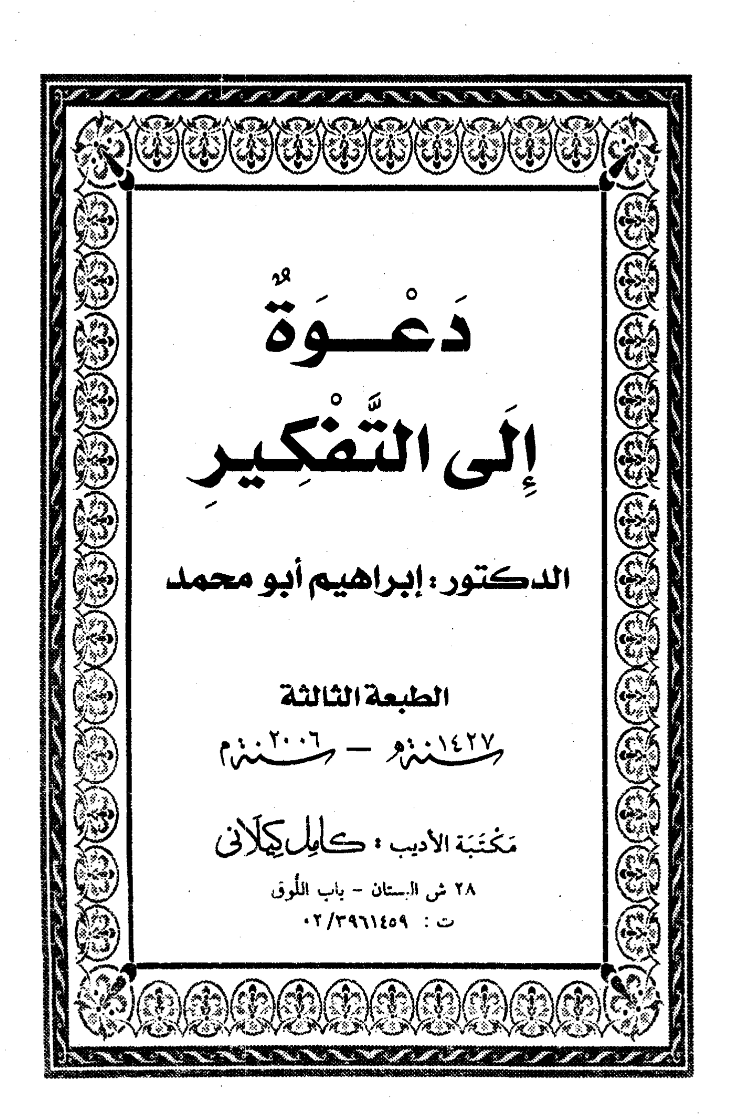


دَعْـــوَةٌ إِلَى التَّفْكِيرِ

الدكتور: إبراهيم أبو محمد

الطبعة الثالثة
سنة ١٤٢٧هـ - سنة ٢٠٠٦م

مكتبة الأديب: كامل كيلاني
٢٨ ش البستان - باب اللوق
ت: ٠٢/٣٩٦١٤٥٩



بطاقة فهرسة :
فهرسة دار الكتب والوثائق القومية
أبو محمد / إبراهيم
دعوة إلى التفكير / إبراهيم أبو محمد
محمد ط ٣. القاهرة : مكتبة الأديب كامل كيلانى : ٢٠٠٦
٢٢٤ صفحة : أبيض أسود - ١٤×٢٠ سم -
١ - التفكير
أ - العنوان : ٢٨ شارع البستان - باب اللوق
رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٨٩٠١ ١٥٣,٤٢

الإهـــداء

إلَى الأطْهـارِ الشُّرَفـاءِ ، وَإلَى الأحْـرارِ الأخْيـارِ فِى أرْضِ اللهِ الـواسِـعَـةِ .

إلَى الـبـاحِـثِـيـنَ عَـنِ الـحَـقِـيـقَـةِ ، الَّـذِيـنَ يُـؤْمِـنُـونَ

بِـالْـفِـكْـرِ الـحُـرِّ وَالْـحِـوارِ الـنَّاضِـجِ ..

إلَى كُلِّ الَّذِينَ يُـؤْمِـنُـونَ بِـطَـهـارَةِ الـحَـرْفِ الـمُـضِـىءِ ، وَقُـدْسِـيَّـةِ

الْـكَـلِـمَـةِ الـمُـؤْمِـنَـةِ الـحُـرَّةِ ، الَّـتِى لايُـمْـكِـنُ إغْـواؤُهـا أوْ تَـهْـدِيـدُهـا .

فَـلا يُـمْـكِـنُ إغْـواؤُها بِـمَـنْـحِ مَـبـاهِـجِ الْـحَـيـاةِ ، لِـتَـكُـفَّ وَتَـتَـخَـلَّـى ! ..

كَـما لايُـمْـكِنُ تَـهْـدِيـدُها بِـمَـنْـعِ الْـحَـيـاةِ عَـنْـها ؛ لِـتَـصْـمُـتَ أوْ تَـتَـراجَعَ ؛

لِأنَّ الْـحَـيـاةَ الـدُّنْـيـا لَـيْـسَـتْ غـايَـةً وَمَـطْـلَـبًـا ،

وَإنَّـمـا مـا بَـعْـدَ الْـحَـيـاةِ الـدُّنْـيـا هُـوَ الْـمَـطْـلُـوبُ الْـمَـرْغُـوبُ .

إلَى الَّـذِينَ ما زالُـوا عَـلَى عَـهْـدِهِمْ بِـالْـحُـرِّيَّـةِ ، والْـقِـيَـمِ ، وَمَـكارِمِ الأخْـلاقِ ،

فِى عَـصْـرٍ تَـحَـوَّلَـتِ الْـقِـيَـمُ فِـيـهِ إلَى بِـضـاعـاتٍ فِى الأسْـواقِ ! ..

إلَى الَّـذِيـنَ مـا زالُـوا عَـلَى عَـهْـدِهِـمْ بِـالـرُّجُـولَـةِ

فِى عَـصْـرِ الأُنُـوثَـةِ ، والْـخُـنُـوثَـةِ ، وَأشْـبـاهِ الـرِّجـالِ ! ..

إلَى كُـلِّ هٰـؤُلاءِ جَـمِـيـعًـا - فِى كُـلِّ مَـكـانٍ -

أُهْـدِى هٰـذا الْـكِـتـابَ

المـؤلـف

الدكـتـور/ إبـراهـيـم أبـو مـحـمـد

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ

لَمْ تَكَدِ الطَّبْعَةُ الأُولَى مِنْ هذا الكِتابِ تُطرَحُ فِى الأَسْواقِ ، وَتَصِلُ إِلَى أَيْدِى القُرَّاءِ ، إِلَّا وَقَدْ نَفِدَتْ فِى مُدَّةٍ قِياسِيَّةٍ مُذْهِلَةٍ ! ..

وَأَشْهَدُ أَنَّ القارِئَ الكَرِيمَ قَدْ عَدَّلَ لَنا المَوازِينَ ! ..

فَفِى عَصْرِ المَعْلُوماتِ الَّتِى تُغَطِّى الدُّنْيا : شَرْقًا وَغَرْبًا - عَنْ طَرِيقِ الأَقْمارِ الصِّناعِيَّةِ وَوَسائِلِ الإِعْلامِ - تَشْتَدُّ المُنافَسَةُ عَلَى اجْتِذابِ القارِئِ ، والمُشاهِدِ ، وَالمُسْتَمِعِ .. وَتَتَعَدَّدُ وَسائِلُ التَّخاطُبِ ، وَلُغَةِ الخِطابِ ، وَمُفْرَداتِ التَّأْثِيرِ عَلَى المُثَقَّفِ لِيَأْخُذَ المَوْقِفَ المَطْلُوبَ.

وَبِالتَّالِى لَمْ يَعُدِ الكِتابُ هُوَ المَصْدَرَ الوَحِيدَ لِلْمَعْرِفَةِ والثَّقافَةِ.

لٰكِنَّ قُرَّاءَنا أَثْبَتُوا قُدْرَةً هائِلَةً وَرائِعَةً عَلَى الفَرْزِ ، والإِخْتِيارِ ، والوَعْيِ بِالكَلِمَةِ الجادَّةِ ، والكِتابِ المُفِيدِ ! ..

كَما أَثْبَتُوا أَيْضًا - بِإِقْبالِهِمُ الشَّدِيدِ - تَفَوُّقَ الكِتابِ الإِسْلامِيِّ بِالصَّدارَةِ فِى مَجالِ التَّوْزِيعِ والإِنْتِشارِ - رَغْمَ انْعِدامِ الدِّعايَةِ وَمَحْدُودِيَّةِ الوَسائِلِ فِى المَجالاتِ المُخْتَلِفَةِ - إِلَّا أَنَّ وَعْيَ القارِئِ عَوَّضَ هٰذا النَّقْصَ ، وَبَرْهَنَ عَلَى مُسْتَوَى إِدْراكِهِ العالِى بِقَضايا دِينِهِ وَأُمَّتِهِ ..

وَأَشْهَدُ أَنَّ هٰذا الوَعْيَ قَدِ ازْدادَ فِى الفَتْرَةِ الأَخِيرَةِ لَدَى القارِئِ عُمُومًا ، والمُثَقَّفِ فِى هٰذِهِ الدَّوْلَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ..

وَتَلْبِيَةً لِلرَّغْبَةِ الكَرِيمَةِ فِى الحُصُولِ عَلَى هٰذا الكِتابِ ، نُعِيدُ طَبْعَهُ مَرَّةً ثانِيَةً ، لِيَكُونَ بَيْنَ يَدَىْ قُرَّائِنا الكِرامِ ، وَبِصُورَةٍ عاجِلَةٍ ..

فَشُكْرًا لَكَ - عَزِيزِىَ القارِئَ - مَرَّتَيْنِ :

مَرَّةً عَلَى وَعْيِكَ بِقَضايا دِينِكَ وَأُمَّتِكَ ..

وَمَرَّةً أُخْرَى عَلَى أَنَّكَ عَدَّلْتَ لَنا المَوازِينَ ، وَأَعَدْتَ إِلَيْنا ثِقَتَنا فِى انْفِرادِ الكِتابِ الإِسْلامِيِّ بِالصَّدارَةِ والتَّفَوُّقِ فِى التَّوْزِيعِ والإِنْتِشارِ.

المؤلف

دكتور/ إبراهيم أبو محمد

الْمُقَدِّمَةُ

عَزِيزِي الْقَارِئَ

فِي مُؤْتَمَرٍ عَنْ حُقُوقِ الإِنْسَانِ

- بِجَامِعَةِ «سِدْنِي» فِي أُسْتُرالْيَا -

وَقَفَتْ إِحْدَى الأَخَوَاتِ النَّابِهَاتِ تُحَاوِرُ

الدُّكْتُور/ جَمَال بَدَوِي فِي بَعْضِ الْقَضَايَا..

وَكُنْتُ أُرَاقِبُ الْحِوَارَ الْجَادَّ ...

وَفِي أَثْنَاءِ الْحِوَارِ ، وَرَدَتْ عَلَى لِسَانِ الأُخْتِ

كَلِمَةُ : (أَنَا أُفَكِّرُ فِي كَذَا)..

فَرَدَّتْ عَلَيْهَا إِحْدَى الأَخَوَاتِ بِانْفِعَالٍ شَدِيدٍ ، قَائِلَةً :

(الإِسْلامُ لَيْسَ فِيهِ تَفْكِيرٌ ..

لا تَقُولِي مَرَّةً أُخْرَى : أَنَا أُفَكِّرُ).

وَقَدْ تَطَوَّعَ الدُّكْتُورُ/ جَمَال بَدَوِي - مَشْكُورًا -

بِإِنْهَاءِ الْحِوَارِ ، وَقَامَ بِتَوْضِيحِ الْمَوْقِفِ..

وَبَيَّنَ الرَّجُلُ أَنَّ الإِسْلامَ لَمْ يَأْتِ إِلَّا لِيُحَرِّرَ الْعَقْلَ ؛

كَيْ يَبْحَثَ وَيُفَكِّرَ ، ثُمَّ يَخْتَارَ بِحُرِّيَّةٍ ..

لٰكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُسَجِّلَ الْمَوْقِفَ هُنَا ،

وَأَنْ أُعَلِّقَ عَلَيْهِ كَإِثْبَاتٍ لِحَالَةِ الْخَلَلِ الثَّقَافِيِّ

الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا شَبَابُنَا : فِتْيَانًا وَفَتَيَاتٍ ! ..

وَكَيْفَ تَضَمَّنَتْ هٰذِهِ الحالَةُ الْكَثِيرَ
مِنَ الْخَطَرِ عَنْ طَرِيقِ الْفَهْمِ الْمُفَخَّخِ !..
كَما أَنَّها تَبَنَّتْ - بِإِلْغاءِ الْعَقْلِ - الْكَثِيرَ
مِنَ الْخُطُورَةِ ، عَنْ طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ الْمُلَغَّمَةِ
الَّتِي تُغْلِقُ كُلَّ النَّوافِذِ والأَبْوابِ ،
وَتَدْعُو لِتَغْيِيبِ الْعَقْلِ عَنْ حَياتِنا !..
وَإِذا كانَتْ بَعْضُ الْمَذاهِبِ والْمِلَلِ - لَدَى الآخَرِينَ -
تَخْشَى وَتَخافُ مِنْ طَرْحِ قَضاياها عَلَى الْعامَّةِ مِنَ النَّاسِ ،
وَتَجْعَلُ بَعْضَ الْقَضايا سِرًّا مِنْ أَسْرارِها ؛
فَلا يَطَّلِعَ عَلَيْها إِلَّا خاصَّةُ الْخاصَّةِ !..
وَتَدْعُو إِلَى إِطْفاءِ سِراجِ الْعَقْلِ ،
كَيْ يَدْخُلَ الإِنْسانُ مَلَكُوتَ السَّماءِ ؛
فَإِنَّ الإِسْلامَ - دِينَ اللهِ الْخاتَمَ -
لا يَعْرِفُ هٰذا الْكَلامَ ، وَلا يَعْتَرِفُ بِهِ..
وَإِنَّما يَعْتَبِرُ الْعَقْلَ شَرِيكًا لِلنَّصِّ
فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ ، كَما أَنَّهُ يَعْتَمِدُ
عَلَى الْعَقْلِ كَأَساسٍ لِلتَّكْلِيفِ ،
فَلا تَكْلِيفَ عَلَى مَنْ لا عَقْلَ لَهُ .

غايَةُ ما يَطْلُبُهُ الإسْلامُ وَيَرْجُوهُ : أنْ يَكُونَ
العَقْلُ حُرًّا أثناءَ البَحْثِ والحِوارِ والمُناقَشَةِ ؛
فَلا يَنْطَلِقُ فِي تَناوُلِ القَضايا مِنَ الهَوَى ،
أوْ مِنْ مَوْرُوثاتٍ ثَقافِيَّةٍ فاسِدَةٍ ! ..

يَقُولُ القُرْآنُ المجيدُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ .... ﴿٤٦﴾ ﴾ (سبأ)

فَعَمَلِيَّةُ التَّفْكِيرِ - هُنا - يَجِبُ أنْ تَكُونَ
مُتَحَرِّرَةً مِنْ تَقالِيدِ البِيئَةِ الفاسِدَةِ ، وَنَزَعاتِ الأهْواءِ ،
وَشَهْوَةِ الانْتِصارِ عَلَى الطَّرَفِ الآخَرِ ! ..

مَثْنَى : لا أكْثَرَ .. لِيُتِيحَ لِلإنْسانِ فُرْصَةَ التَّفْكِيرِ
بِغَيْرِ ضُغُوطٍ أوْ مُؤَثِّراتٍ مِنَ الخارِجِ ، وَلِيُساعِدَهُ
عَلَى الاعْتِرافِ بِالخَطَإ ، وَسَلامَةِ مَوْقِفِ الطَّرَفِ الآخَرِ
إنْ كانَ الحَقُّ بِجانِبِهِ ، دُونَ خَجَلٍ مِنْ نَظَراتِ الآخَرِينَ ،
وَيَحْمِيهِ مِنْ مُحاوَلاتِ العِنادِ وَالمُكابَرَةِ الَّتِي تُسَيْطِرُ
عَلَى النَّفْسِ ، وَتُغْرِيها بِشَهْوَةِ الانْتِصارِ - وَلَوْ بِالباطِلِ -
خُصُوصًا إذا تَمَّ الحِوارُ فِي جَماعَةٍ ! ..

وَفُرادَى : لِيَخْلُوَ الإنْسانُ بِنَفْسِهِ فِي لَحَظاتِ
الصَّفاءِ ؛ فَيُقَلِّبَ الأمْرَ عَلَى كُلِّ وَجْهٍ ،

وَيَسْتَعْرِضَ الصُّورَةَ - مَوْضِعَ الْبَحْثِ والْمُناقَشَةِ - والْحِوارَ - مِنْ جَمِيعِ الْجَوانِبِ - ثُمَّ يَتَّخِذَ قَرارَهُ بِإِرادَةٍ حُرَّةٍ ، وَبَعْدَ تَفْكِيرٍ مُسْتَفِيضٍ .

فَهَلْ هٰذا الدِّينُ يَحْتِمُ عَلَى أَتْباعِهِ : أَلَّا يُفَكِّرُوا ؟! ..

وَهَلْ يَكُونُ الشِّعارُ فِيهِ : (أَنا أُومِنُ .. إِذَنْ أَنا لا أُفَكِّرُ) ؟!

إِنَّ عَكْسَ هٰذا . هُوَ الْمَطْلُوبُ فِي الدُّخُولِ إِلَى دِينِ اللهِ : (أَنا أُفَكِّرُ .. إِذَنْ أَنا أُومِنُ) ..

وَإِذا كُنَّا نَعْتَرِفُ أَنَّ خُطُوطَ التَّواصُلِ الْفِكْرِيِّ مَقْطُوعَةٌ - أَوْ شِبْهُ مَقْطُوعَةٍ - بَيْنَنا وَبَيْنَ قَضايانا الْعِلْمِيَّةِ والإِجْتِماعِيَّةِ والإِقْتِصادِيَّةِ والسِّياسِيَّةِ ..

وَأَنَّ قَنَواتِ الْبَثِّ والتَّوْصِيلِ - بِلُغَةِ الإِعْلامِيِّينَ - مُعَطَّلَةٌ ، أَوْ شِبْهُ مُعَطَّلَةٍ ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ قَدْ حَدَثَ بِفِعْلِ قُوًى شِرِّيرَةٍ ، حاوَلَتْ - وَلا زالَتْ تُحاوِلُ - أَنْ تَسْلُبَ مِنَّا الذَّاكِرَةَ ، وَأَنْ تَقْطَعَ صِلَتَنا بِدِينِنا وَثَقافَتِنا ، وَأَنْ تَسْتَبْدِلَها بِالْفِكْرِ الْمُهَجَّنِ والْمُدَجَّنِ ! .. بِالْفِكْرِ الْمُهَجَّنِ بِثَقافَةِ بَنِي صَهْيُونَ وَسُمُومِ الْماسُونِيَّةِ ، وَأَفْلامِ الْكاوبُوي ؛ حَتَّى لا تُتاحَ لِلإِنْسانِ الْمُسْلِمِ فُرْصَةُ التَّعَرُّفِ عَلَى وِجْهَةِ النَّظَرِ الإِسْلامِيَّةِ فِي طَرْحِ مُشْكِلاتِهِ وَقَضاياهُ !..

وَكَفاهُ فَخْرًا : أَنْ يَتَوَلَّى (الْعَمُّ سام) - نِيابَةً عَنْهُ -
حَلَّ الْقَضايا وَتَسْوِيَةَ الْمُشْكِلاتِ ! ..
والْفِكْرُ الْمُدَجَّنُ : الَّذِى لا لَوْنَ لَهُ ، وَلاطَعْمَ ، وَلا رائِحَةَ !..
والَّذِى لايَسْتَجِيبُ إِلَّا لِمَطالِبِ الطَّعامِ والْجِنْسِ ! ..
فَيُزْهِلُ الإِرادَةَ ، وَيَشُلُّ التَّفْكِيرَ ، وَلايَبْعَثُ
عَلَى يَقْظَةٍ ، أَوْ حَتَّى يُقاوِمَ ما يُفْرَضُ عَلَيْهِ ! ..
بَلْ يَظَلُّ مُغَيَّبًا عَنْ ساحاتِ الْحَياةِ ؛
لِتَبْقَى هٰذِهِ الأُمَّةُ بِلا رَأْسٍ ! .. وَلارَمْزٍ ! .. وَلامَرْجِعِيَّةٍ ! ..
بِلا رَأْسٍ تُفَكِّرُ ، أَوْ تَقُودُ ! ..
وَلا رَمْزٍ يَأْخُذُ مَكانَ الْبَطَلِ وَمَكانَةَ الْقُدْوَةِ
- فِى حَياةِ أُمَّتِنا - فَتُحاكِيهِ ، وَتَقْتَدِى بِهِ ! ..
وَلا مَرْجِعِيَّةٍ تَنْطَلِقُ مِنْها وَتَحْتَكِمُ إِلَيْها
عِنْدَ الإِخْتِلافِ ؛ لِيَظَلَّ كُلُّ فَرْدٍ فِيها كالنَّبْتِ
الشَّيْطانِىِّ ، بِغَيْرِ جُذُورٍ ، وَلا هَدَفٍ ، وَلا رِسالَةٍ ! ..
وَقَدْ حاوَلْتُ - قَدْرَ جُهْدِى - أَنْ أَتَعَرَّضَ لِبَعْضِ الْقَضايا ،
طَرَحْتُها كَعَيِّناتٍ وَنَماذِجَ - فَقَطْ - لِما يَجِبُ
أَنْ يَحْتَلَّ مَكانَ الأَوْلَوِيَّةِ والصَّدارَةِ فِى حَياةِ الْمُسْلِمِ ،
وَلِما يَجِبُ أَنْ يَحْظَى - مِنْ تَفْكِيرِنا - بِالْعِنايَةِ والإِهْتِمامِ ..

وَلَمْ نَطْمَحْ - عَزِيزِىَ الْقارِئَ - أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ
- فِى الْحِوارِ الْمَطْرُوحِ - لِحُجَّةِ الْكاتِبِ وَدَلِيلِهِ ..
وَأَنْ يَتَحَوَّلَ الْقارِئُ إِلَى مُجَرَّدِ التَّلَقِّى فَقَطْ ..
وَإِنَّما نُرِيدُ الْقارِئَ شَرِيكًا فِى الْبَحْثِ
والْفِكْرَةِ ، والْحِوارِ الْحُرِّ ..
وَأَنْ نَتَعَوَّدَ الِاخْتِلافَ الْمُهَذَّبَ ، الَّذِى يَلْتَزِمُ بِعِفَّةِ الْكَلِمَةِ ،
وَشَرَفِ الْمَسْئُولِيَّةِ ، وَأَمانَةِ التَّوْجِيهِ والْبَحْثِ ...
وَأَنْ نَطْرَحَ مِنْ حَياتِنا اخْتِلافَ أَهْلِ الأَهْواءِ والنَّزَعاتِ ..
وَكَفانا تَمَزُّقًا وَتَقْسِيمًا ! .. وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وِحْدَةَ
الْحَقِيقَةِ لاتَمْنَعُ مِنْ تَعَدُّدِ وِجْهَةِ النَّظَرِ إِلَيْها .
والإِسْلامُ قَدْ فَتَحَ النَّوافِذَ والأَبْوابَ لِلتَّفْكِيرِ الْحُرِّ ،
والْحِوارِ الْجادِّ ، والْبَحْثِ النَّافِعِ .

* * *

وَهٰذا الْكِتابُ إِنَّما هُوَ نافِذَةٌ ، نُطِلُّ مِنْها
- بِصُحْبَتِكَ - عَلَى بَعْضِ مَشاكِلِنا ؛
عَلَّنا نَجِدُ فِيهِ بَعْضَ الدَّواءِ ، وَإِنَ كانَ مُرًّا ..
وَبَعْضَ الشِّفاءِ ، إِنْ شاءَ اللهُ .
وَاللهُ هُوَ الْهادِى إِلَى سَواءِ السَّبِيلِ .

المُؤَلِّف

الدكتور/ إبراهيم أبو محمد

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّالِثَةِ

الكَلِمَةُ فِى عُرْفِ اللُّغَوِيِّينَ :

لَفْظٌ مُفْرَدٌ دَلَّ عَلَى مَعْنًى ، لا يَصْلُحُ لِلتَّخاطُبِ ..

بَيْنَما الكَلامُ : ما تَرَكَّبَ مِنْ كَلِمَتَيْنِ فَأَكْثَرَ ،

وأَفادَ مَعْنًى يَحْسُنُ السُّكُوتُ عَلَيْهِ .

وَبِمُقْتَضَى هٰذا التَّعْرِيفِ .. فَإِنَّ هُناكَ كَلامًا كَثِيرًا

يُفِيدُ مَعانِيَ لايَحْسُنُ السُّكُوتُ عَلَيْها ؛

لِأَنَّهُ يُزَيِّنُ مُنْكَرًا ، وَيُزَيِّفُ حَقِيقَةً ، وَيُبْرِزُ ظُلْمًا ،

وَيَتَغَنَّى بِأَمْجادِ الطُّغاةِ والظَّالِمِينَ ! ..

وَإِذا كانَ لِأَهْلِ الباطِلِ امْتِدادٌ فِى الزَّمانِ والمَكانِ ؛

لِذٰلِكَ فَهُمْ يَتَعَشَّقُونَ الكَلِمَةَ الطَّاهِرَةَ ..

خُصُوصًا حِينَ تَكُونُ مُحَمَّلَةً بِأَرِيجِ الحَقِيقَةِ ،

مَمْزُوجَةً بِنَسِيمِ الحُرِّيَّةِ .. وَلِأَنَّها تُحَدِّدُ مَوْقِفًا ،

وَتُشَكِّلُ ضَغْطًا ، وَتُغَيِّرُ واقِعًا ،

وَتُخاطِبُ عَقْلًا ، وَتَصْنَعُ فِكْرًا ..

وَمِنْ ثَمَّ يَخْشاها الظَّالِمُونَ دائِمًا ،

وَفِى كُلِّ عَصْرٍ ! ..

وَبِرَغْمِ السَّمَٰوَاتِ الْمَفْتُوحَةِ بِفَضَائِيَّاتٍ
- تَفُوقُ الْعَدَّ وَالْحَصْرَ -
تُحَاوِلُ كُلُّهَا اخْتِطَافَ الْمُسْتَمِعِ وَالْمُشَاهِدِ،
وَتَشُدُّ بَصَرَهُ بَعِيدًا عَنِ الْكِتَابَةِ وَالْكِتَابِ ؛
إِلَّا أَنَّ الْكَلِمَةَ الْمَكْتُوبَةَ ظَلَّتْ أَبْقَى وَأَخْلَدَ !..
وَظَلَّ عُشَّاقُهَا يَبْحَثُونَ عَنْهَا ، عَبْرَ دُورِ النَّشْرِ الْجَادَّةِ
الَّتِى تَحْرِصُ عَلَى تَقْدِيمِ الْخُبْزِ الثَّقَافِيِّ لِعُمُومِ النَّاسِ ؛
بِجَانِبِ الصِّنَاعَةِ الثَّقَافِيَّةِ الثَّقِيلَةِ الَّتِى تَنْهَضُ
بِالْعَقْلِ الْمُسْلِمِ ، وَتَدْفَعُهُ إِلَى أَنْ يَسْتَعِيدَ
ثِقَتَهُ بِنَفْسِهِ ، وَيَكُفَّ عَنْ جَلْدِ ذَاتِهِ !..
وَمُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِ سَنَوَاتٍ ، كُنَّا قَدِ اكْتَفَيْنَا
بِنَفَادِ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هَٰذَا الْكِتَابِ
فِى مُدَّةٍ قِيَاسِيَّةٍ مُذْهِلَةٍ !..
وَبَعْدَ أَنْ تُرْجِمَ الْكِتَابُ لِأَكْثَرَ مِنْ لُغَةٍ ،
وَحِينَ حَضَرْتُ إِلَى الْقَاهِرَةِ لِحُضُورِ أَحَدِ الْمُؤْتَمَرَاتِ ،
فُوجِئْتُ بِعُشَّاقِ الْحَقِيقَةِ يَطْلُبُونَ مِنِّى
مُقَدِّمَةً ثَالِثَةً لِلْكِتَابِ ، بَعْدَ أَنْ بَدَءُوا
- فِعْلًا - فِى إِعْدَادِهِ لِطَبْعَةٍ ثَالِثَةٍ !..

وَلَمَّا تَساءَلْتُ عَنِ السَّبَبِ، قالُوا: إِنَّ الْعَقْلَ الْمُسْلِمَ - فِى مُواجَهَةِ تَيَّارِ التَّزْييفِ - يَحْتاجُ إِلَى إِعادَةِ تَرْتِيبِ لِكَثِيرٍ مِنْ أَوْلَوِيَّاتِهِ، وَكَثِيرٍ مِنْ قَضاياهُ.

وَهٰذا الْكِتابُ يُساهِمُ فِى تَراكُمِ الْوَعْيِ الذَّاتِيِّ، وَيُقَدِّمُ رُؤْيَةً نَحْنُ أَحْوَجُ ما نَكُونُ إِلَيْها الآنَ، نَلُوذُ - مِنْ خِلالِها - بِأُصُولِنا الْفِكْرِيَّةِ والْعَقَدِيَّةِ، وَنَسْتَعِيدُ هَوِيَّتَنا الثَّقافِيَّةَ فِى مُواجَهَةِ مَوْجاتِ الْمَسْخِ والذَّوَبانِ والسَّحْقِ!..

لِذٰلِكَ نَحْرِصُ أَنْ يَكُونَ هٰذا الْكِتابُ بَيْنَ يَدَيِ الْقارِئِ - الآنَ - فِى طَبْعَتِهِ الثَّالِثَةِ الْجَدِيدَةِ..

فَشُكْرًا لِكُلِّ هٰؤُلاءِ الْمُرابِطِينَ، الَّذِينَ يَحْمُونَ حُصُونَنا الثَّقافِيَّةَ، وَهُمْ يَعْمَلُونَ - بِجِدٍّ - بَعِيدًا عَنِ الظُّهُورِ والشُّهْرَةِ!..

وَشُكْرًا لَكَ - عَزِيزِيَ الْقارِئَ - حِينَ تَخْتارُ قافِلَةَ الْخَيْرِ، تَنْضَمُّ إِلَيْها، وَتُبارِكُ خُطاها، وَتُشارِكُهُمْ لَذَّةَ الْعَمَلِ لِلَّهِ؛ بِرَغْمِ وُعُورَةِ الطَّرِيقِ والْعَقَباتِ الَّتِى تُحِيطُ بِهِ - مِنْ كُلِّ جانِبٍ - فِى مُحاوَلَةٍ لِتَشْوِيهِهِ وَصَرْفِ النَّاسِ عَنْهُ!..

قال تبارَكَ وتعالَى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ.... ﴿١٥٣﴾ ﴾ (الأنعام)

المؤلف

الدكتور/ إبراهيم أبو محمد

(بَيْنَ يَدَيْكَ فِي أَدَبٍ .. وَعَلَى اسْتِحْياءٍ)

كَيْفَ يَكُونُ وَجْهُ الأَرْضِ ؟ وكَمْ تَكُونُ مُظْلِمَةً بارِدَةً ؛
لَوْ غابَتِ الشَّمْسُ عَنْها ، وتَخَلَّفَ الْقَمَرُ ؟ ! ..
وكَيْفَ يَكُونُ طَعْمُ الْحَياةِ لَدَى الْكائِناتِ والْبَشَرِ ،
بِغَيْرِ وُجُودِ الْماءِ والْهَواءِ ، إنْ وُجِدَتْ هُنالِكَ حَياةٌ ؟ ! ..
وكَمْ يَبْلُغُ حَجْمُ التَّخَبُّطِ والْمُعاناةِ ،
لَوْ أَنَّ النَّاسَ عاشُوا بِغَيْرِ نُورٍ وَضِياءٍ ؟ ! ..
تِلْكَ تَساؤُلاتٌ تَعْرِفُ الإجابَةَ عَلَيْها كُلُّ الْعُقُولِ
بِمُخْتَلِفِ مُسْتَوَياتِها وَثَقافاتِها ، لِأَنَّ مَوْضُوعَها :
ضَرُوراتُ الْحَياةِ الَّتِي لا يَسْتَقِيمُ لِلنَّاسِ وُجُودٌ بِغَيْرِها ! ..
لِذَلِكَ ، فَإنَّ اللهَ - تَعالَىٰ - قَدِ امْتَنَّ عَلَى خَلْقِهِ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ
فِي السَّماءِ بُرُوجًا ، وجَعَلَ فِيها سِراجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ! ..
والسِّراجُ : هُوَ الشَّمْسُ الَّتِي تُمِدُّ الأَرْضَ - وَما عَلَيْها ، وَمَنْ عَلَيْها -
بِأَسْبابِ النَّماءِ ، وَأَسْبابِ الْوُجُودِ ، مِنْ دِفْءٍ وَضَوْءٍ وَحَرارَةٍ ..
وَتِلْكَ بَعْضُ وَظائِفِ الشَّمْسِ بِالنِّسْبَةِ لِلْوُجُودِ الأَرْضِيِّ .
وقَدِ اقْتَضَتْ سَماءُ الْحَقِيقَةِ : أَنْ يَكُونَ لَها شَمْسٌ وَقَمَرٌ ،
وَدَلَّتْ بَشائِرُ الْوُجُودِ ، وَتَيَقَّنَ - فِي حَقائِقِ الْكَوْنِ والتَّارِيخِ
وَضَمِيرِ الزَّمانِ - فِي الْماضِي والْحاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ :
أَنَّ مُحَمَّدًا - وَحْدَهُ - هُوَ الْمُؤَهَّلُ لِأَنْ يَكُونَ شَمْسَها وَقَمَرَها مَعًا ! ..
وَكانَتْ إرادَةُ اللهِ ، وَكانَ اخْتِيارُهُ .. واللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ .

(اَلْـمِـيـلادُ .. وَذاكِـرَةُ الـتَّـارِيـخِ)

كَـمْ قَـذَفَـتِ الأرْحامُ بِـأجِـنَّـةٍ فِى هٰـذا الْـيَـوْمِ ؟

لٰـكِـنَّ الـزَّمَـنَ لَـمْ يَـتَـوَقَّـفْ إلَّا عِـنْـدَ طِـفْـلٍ واحِـدٍ فَـقَـطْ ! ..

وَذاكِـرَةُ الـتَّـارِيـخِ لَـمْ تَـعِ - مِـنْ كُـلِّ الأسْـمـاءِ - إلَّا اسْـمًا واحِـدًا ،

هُـوَ اسْـمُ مُـحَـمَّـدِ بْـنِ عَـبْـدِ اللهِ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَـلَّـمَ ! ..

وَهَـتَـفَـتِ الْـجَـزِيـرَةُ الْـعَـرَبِـيَّـةُ - مِـنْ أعْـمـاقِـهـا -

وَهِـىَ تَـتِـيـهُ - فَـخْـرًا - : « اَلْـيَـوْمُ : مِـيـلَادُ الْـحَـيـاةِ » .

مِـيـلادُ أحْـمَـد لِـلْـحَـيـاةِ : حَـيـاةُ

فَـالأرْضُ : ظَـمْـأى ، والْحَـبِـيـبُ : فُـراتُ !

اَلـنُّـورُ ، والْـغَـيْـثُ الْـمُـبِـيـنُ ، وَرَحْـمَـةٌ

لِـلْـعـالَـمِـيـنَ ، وَمِـنْـحَـةٌ وَعِـظـاتُ

لَـمَّـا أتَىٰ هٰـذا الْـوُجُـودَ ، أحـالَـهُ

رَوْضًـا ؛ فَـألْـسِـنَـةُ الْـوُجُـودِ : شُـدَاةُ

فَـإذا الْـهَـوَى : أُسْـطُـورَةٌ ! . وَإذا الْـهُـدَىٰ

تَـسْـبِـيـحَـةٌ ! .. وَكُـلُّ الْـكـائِـنـاتِ : صَـلاةُ ! ..

دُنْـيـا الـسَّـعـادَةِ ، لا تُـشـادُ بِـغَـيْـرِهِ

أرْكـانُـهـا : الإيـمـانُ ، والآيـاتُ

(هُوَ: شَمْسُ الْكَوْنِ .. وَقَمَرُ الْوُجُودِ)

وَما أَظُنُّ بَشَرًا - أَوْ مَلَكًا مُقَرَّبًا - اَجْتَمَعَ فِيهِ الْوَصْفانِ : وَصْفُ الشَّمْسِ ، وَوَصْفُ الْقَمَرِ ، مِثْلَما وَصَفَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مُحَمَّدًا : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! ..

فَإِذا كانَتْ حَياةُ النَّاسِ - عَلَى الأَرْضِ - لا تَقُومُ ، وَلاتَسْتَقِيمُ ، بِغَيْرِ الشَّمْسِ والْقَمَرِ ؛ فَكَذٰلِكَ حَياتُهُمُ الْمَعْنَوِيَّةُ لاتَقُومُ - وَلاتَسْتَقِيمُ - بِغَيْرِ رَسُولِ اللهِ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمِنْ هُنا كانَ الرَّبْطُ - فِي الْوَصْفِ - بَيْنَ الْوَظِيفَتَيْنِ

- وَظِيفَتَي : الشَّمْسِ والْقَمَرِ -

بِالنِّسْبَةِ لِلْحَياةِ الْمادِّيَّةِ عَلَى الأَرْضِ ،

وَوَظِيفَةِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

بِالنِّسْبَةِ لِلنَّاسِ : رُوحِيًّا وَمَعْنَوِيًّا .

قال - تَبارَكَ وَتَعالَى - : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ (الفرقان)

وَبِنَفْسِ الْوَصْفِ والصِّيغَةِ ، تَحَدَّثَ الْقُرْآنُ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَأَنَّهُ يَلْفِتُ الأَبْصارَ والْبَصائِرَ إِلَى تِلْكَ الْمِنَّةِ الْكُبْرَى عَلَى النَّاسِ بِبَعْثِهِ هٰذا النَّبِيِّ .

قال - تَبارَكَ وَتَعالَى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأحزاب)

فَأَيُّ بَشَرٍ هٰذا ؟ ! ..

(بَيْنَ الْعِصْمَةِ والْبَشَرِيَّةِ)

إنَّ الْخَيْرَ والشَّرَّ : كِلاهُما لَهُ أَمْواجٌ يَحْمِلُها الأَثِيرُ !..
وَنُفُوسُ الْبَشَرِ : كَأَجْهِزَةِ الإِرْسالِ والإِسْتِقْبالِ مَعًا ؛
فَهِيَ تُرْسِلُ وَتُشِعُّ بِمَّا فِيها عَلَى الآخَرِينَ ، وَتَنْضَحُ عَلَيْهِمْ
مِنْ خَيْرِها وَشَرِّها !.. كَما أَنَّها تَسْتَقْبِلُ وَتَتَلَقَّى ،
وَتَتَأَثَّرُ بِأَمْواجِ الْخَيْرِ والشَّرِّ الَّتِى تُبَثُّ عَبْرَ الأَثِيرِ!..

وَقَدْ خُلِقَتِ النُّفُوسُ كُلُّها مُزَوَّدَةً بِقابِلِيَّةِ
الإِيجابِ والسَّلْبِ ، تُجاهَ الْخَيْرِ والشَّرِّ ،
وَذٰلِكَ ما نَصَّ عَلَيْهِ الْقَسَمُ الْقُرْآنِيُّ :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾
(الشمس)

هٰكَذا كُلُّ النُّفُوسِ .. وَلَمْ يُسْتَثْنَ مِنْ هٰذا الْقانُونِ
إِلَّا نُفُوس الأَنْبِياءِ . وَهٰذا هُوَ مَعْنَى الْعِصْمَةِ
الَّتِى وَجَبَتْ لِأَنْبِياءِ اللهِ عُمُومًا ؛ فَنُفُوسُهُمْ
قَدْ أُعِدَّتْ بِحَيْثُ لا تَسْتَقْبِلُ أَمْواجَ الشَّرِّ ،
وَلا تَتَأَثَّرُ بِها ، وَلا تَسْتَجِيبُ لِدَواعِيها وَإِغْرائِها ،
لِأَنَّ بَواعِثَ الشَّرِّ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِها أَصْلًا !..

وَاللهُ - جَلَّ جَلالُهُ - يَصْطَفِى مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا ، وَمِنَ النَّاسِ ..
وَهٰكَذا نُفُوسُ كُلِّ الأَنْبِياءِ .. إِنَّهُمْ خُلاصَةُ الْبَشَرِيَّةِ الْكامِلَةِ
فِى طَهارَتِها ، وَشَرَفِها ، وَسُمُوِّ خُلُقِها ، وَعُلُوِّ أَمَلِها وَطُمُوحاتِها
حِينَ تَتَعَدَّى حُدُودَ الزَّمَنِ الْفانِى ، وَتَدْخُلُ زَمَنَ الْخُلُودِ
وَرَسُولُ اللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ - خاصَّةً ، مِنْ بَيْنِ كُلِّ الأَنْبِياءِ -
قَدْ جَمَعَ اللهُ - تَبارَكَ وَتَعالَى - فِيهِ مِنْ خِصالِ الْكَمالِ
وَرُقِىِّ الْخَصائِصِ : ما يَجْعَلُهُ أَهْلًا لِأَنْ يَحْمِلَ آخِرَ رِسالاتِ السَّماءِ

لِأَهْلِ الأَرْضِ جَمِيعًا ، ما بَقِىَ اللَّيْلُ والنَّهارُ ،
وَإِلَى قِيامِ السَّاعَةِ .. فَكَأَنَّهُ وَرِسالَتَهُ :
خُلاصَةُ الْخُلاصاتِ ، وَأَعْظَمُ الْقِمَمِ وَأَعْلاها !..
وَكَأَنَّ التَّارِيخَ قَدْ تَجَزَّأَ وانْتَصَفَ ،
فَوُزِّعَتْ رِسالاتُ السَّماءِ عَلَى الْجُزْءِ الأَوَّلِ مِنْهُ ،
وَاسْتَبْقَى اللهُ لِلْجُزْءِ الثَّانِى - مِنْ مَسِيرَةِ الأَيَّامِ واللَّيالِى -
نَبِيًّا قَدْ تَجَمَّعَتْ وَتَلاقَتْ وَتَعانَقَتْ فِيهِ
كُلُّ الْكَمالاتِ الَّتِى تَوَزَّعَتْ عَلَى الأَنْبِياءِ السَّابِقِينَ ،

فَكانَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عُنْوانًا لَهُمْ جَمِيعًا :
يُكْتَبُ آخِرًا .. وَيُقْرَأُ أَوَّلًا ! ..
وَكانَتْ رِسالَتُهُ سِجِلًّا جامِعًا يَتَضَمَّنُ
وَصايا السَّابِقِينَ مِنْ رُسُلِ اللهِ، وَإِضافَةً إِلَيْها ...
واحْتَوَتْ - ضِمْنَ طَيَّاتِها - مَصالِحَ النَّاسِ،
وَصَلاحَهُمْ ، وَسَلامَتَهُمْ ، وَسَعادَتَهُمْ إِلَى الأَبَدِ ! ..
كَما اتَّسَعَتْ واسْتَوْعَبَتْ كُلَّ ما يَسْتَجِدُّ
فِي مُسْتَقْبَلِ الأَيَّامِ ، عَلَى طُولِ الزَّمانِ
وَعَرْضِهِ ، وَعُمْقِهِ واتِّساعِهِ ! .. ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ
وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴿٣﴾ ﴾
(المائدة)
وَإِذا كانَتِ الْعِصْمَةُ لا تَنْفِي الْمِحْنَةَ ،
والِاصْطِفاءُ لا يَمْنَعُ الِابْتِلاءَ ، فَإِنَّ اللهَ - تَبارَكَ وَتَعالَى -
أَرادَ بِذٰلِكَ أَنْ تَتَحَقَّقَ فِي شَخْصِيَّةِ الأَنْبِياءِ :
عُمُومًا ، والنَّبِيِّ الْخاتَمِ : خاصَّةً ،
كِبْرِياءُ السِّيادَةِ ، وَتَواضُعُ الْعُبُودِيَّةِ ! ..

(كِبْرِياءُ السِّيادَةِ)

بِالاسْتِعْصاءِ عَلَى السُّقُوطِ فِى مَزالِقِ الرَّذِيلَةِ ،
والتَّرَفُّعِ عَنِ التَّأَثُّرِ بِأَمْواجِ الشَّرِّ ؛
فَلا تَصِلُ إِلَيْهِمْ ، وَلا تَسْتَقْبِلُها فِطْرَتُهُمْ ! ..
وَهٰذا الْمَعْنَى قَدْ أَدْرَكَهُ الشَّيْطانُ - مُنْذُ بِدايَةِ الْخَلِيقَةِ -
حِينَ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدَ السُّوءِ بِالإِغْراءِ والإِغْواءِ ،
وَأَقْسَمَ فِيهِ - بِعِزَّةِ اللهِ ، وَغِناهُ عَنْ خَلْقِهِ -
أَنْ يُغْوِيَهُمْ وَيُغْرِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ! ..
غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ أَدْرَكَ أَنَّ نُفُوسًا - هِيَ خُلاصَةُ الْخُلاصاتِ -
تَسْتَعْصِى عَلَيْهِ ، وَتَسْمُو فَوْقَ إِغْوائِهِ وَإِغْرائِهِ ،
وَلا تَسْتَجِيبُ لِدَواعِى الشَّرِّ الَّتِى يُرْسِلُها هُنا وَهُناكَ وَهُنالِكَ .
إِنَّهُمُ الْمُصْطَفُونَ الأخيارُ، الْمَحْفُوظُونَ بِعِنايَةِ اللهِ لَهُمْ ،
وَالْمَعْصُومُونَ بِعِصْمَةِ اللهِ فِيهِمْ ..
إِنَّهُمْ عِبادُ اللهِ حَقًّا ...
فَلَيْسَ لِلشَّيْطانِ سَبِيلٌ إِلَيْهِمْ ، وَلا سُلْطانَ عَلَيْهِمْ .
وَهٰكَذا اعْتَرَفَ قائِلًا ﴿ ... لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾
إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾
(الحجر)
فَتَحَقَّقَ بِهٰذا الاسْتِعْصاءِ جانِبٌ مِنَ الْعِصْمَةِ ،
وَهُوَ كِبْرِياءُ السِّيادَةِ .

(تَواضُعُ الْعُبُودِيَّةِ)

أمَّا تَواضُعُ الْعُبُودِيَّةِ فَقَدْ تَحَقَّقَ بِخُضُوعِ الْبَشَرِ
كُلِّهِمْ - بِما فِيهِمُ الأَنْبِياءُ والرُّسُلُ -
لِقانُونِ الْقَهْرِ الإلٰهِيِّ ، الَّذِى يَجْرِى
عَلَى الْجَمِيعِ فِى النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ ، والصِّحَّةِ والْمَرَضِ ،
والْحَياةِ والْمَوْتِ ، وَالْوُجُودِ والْعَدَمِ .
وَإذا كانَتِ الْعِصْمَةُ - كَما قُلْنا -
لا تَنْفِى الْمِحْنَةَ ، والاصْطِفاءُ لايَمْنَعُ الابْتِلاءَ ؛
إلَّا أنَّ قُدُراتِ الْبَشَرِ وَإراداتِهِمْ كَثِيرًا ما تَخُورُ
أمامَ الْمِحَنِ ، وَتَذُوبُ أمامَ الْمَصائِبِ ،
وَتَتَأَثَّرُ - بِذٰلِكَ - أَفْكارُهُمْ وَعُقُولُهُمْ ..
وَعَواطِفُهُمْ وَمَشاعِرُهُمْ وَتَصَوُّراتُهُمْ ! ..
وَكَثِيرًا ما تَأْتِى أحْكامُهُمْ عَلَى الأَشْياءِ - تَحْتَ ضَغْطِ
الظُّرُوفِ - مُجافِيَةً لِلصَّوابِ ، مُنافِيَةً لِلْحَقِيقَةِ ! ..
غَيْرَأنَّ جانِبَ النُّبُوَّةِ فِى الرَّسُولِ الْخاتَمِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
مَعْصُومٌ بِكَمالِ اللهِ - تَبارَكَ وَتَعالَى - لَهُ ..
وَهٰذا الْكَمالُ - فِى شَخْصِيَّتِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
قانُونٌ لا يَتَخَلَّفُ أبَدًا ؛
فَلا تُغَيِّرُهُ الظُّرُوفُ ولا الأَحْداثُ ،
ولاتَرْفَعُهُ الْمَصائِبُ وَالْمِحَنُ ! .

لِذٰلِكَ فَإِنَّ اللهَ - تَبارَكَ وَتَعالى - طالَبَنا
- وَنَحْنُ نُسْلِمُ لِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
عُقُولَنا وَقُلُوبَنا ، وَمَشاعِرَنا وَعَواطِفَنا - :
أَنْ نَكُونَ عَلَى ثِقَةٍ وَيَقِينٍ
بِسَلامَةِ مَوْقِفِ الاتِّباعِ لَهُ ، والانْقِيادِ لأَمْرِهِ ،
والانْصِياعِ لِتَوْجِيهِهِ فِي الأُمُورِ كُلِّها :
أَمْرًا كانَتْ ، أَمْ نَهْيًا .
وَإِذا كانَتِ النُّجُومُ - فِي مَسارِها ،
بَيْنَ شُرُوقٍ وَغُرُوبٍ - نَراها لاتَضِلُّ ،
وَلاتَزِلُّ ، وَلا تَخْرُجُ عَنْ مَسارِها فَتَخْتَلُّ ،
وَتَجْرِي فِي هٰذا الْفَضاءِ الرَّهِيبِ
- مُنْذُ مَلايِينِ السِّنِينَ - وَلاتَتَخَلَّفُ أَبَدًا ؛
فَكَذٰلِكَ عَقْلُ رَسُولِ اللهِ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !..
وَعَلَى فَرْضٍ - جَدَلِيٍّ - لَوْ أَنَّ هٰذِهِ النُّجُومَ ضَلَّتْ ،
أَوْ زَلَّتْ أَوِ اخْتَلَّتْ ؛ فَإِنَّ عَقْلَ رَسُولِ اللهِ
- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لايَضِلُّ ، وَلا يَزِلُّ ، وَلا يَخْتَلُّ !..
وَهٰذا هُوَ مَدْلُولُ الْقَسَمِ الْجَلِيلِ والْجَمِيلِ
فِي تَأْكِيدِ هٰذا الْمَعْنَى...

﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (النجم)

فَأَيُّ بَشَرٍ هٰذا ؟ !.. وأَيُّ عَقْلٍ هٰذا ؟ !..

هُوَ بَشَرٌ مِثْلُنا !.. لٰكِنَّنا لَسْنا مِثْلَهُ !..

إِنَّ اللهَ - تبارَكَ وتَعالَى - حَدَّثَ الْبَشَرَ

عَنْ حَجْمِ التَّفاعُلِ الَّذِى يَحْدُثُ لِلْجِبالِ

لَوْ أَنَّها تَلَقَّتْ كَلِماتِ اللهِ..

وَأَرادَ - سُبْحانَهُ وَتَعالَى -

أَنْ يَضْرِبَ لِلنَّاسِ مَثَلًا يَدْفَعُهُمْ

إِلَى التَّأَمُّلِ ، وَيُثِيرُ فِيهِمُ الْعَقْلَ والْفِكْرَ..

إِنَّ ذٰلِكَ لَوْ حَدَثَ ، وَتَلَقَّى الْجَبَلُ كَلِماتِ اللهِ :

لَرَأَيْتَهُ خاشِعًا مُتَصَدِّعًا ، تَنْهَدُّ جَنَباتُهُ وَتَنْهارُ قُوَاهُ !.

قالَ - تبارَكَ وتَعالَى - : ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ ﴾ (الحشر)

هٰذا شَأْنُ الْجَبَلِ ... فَما شَأْنُ رَسُولِ اللهِ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ ؟!

لَقَدْ تَنَزَّلَ هٰذا الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ -

وَتَلَقَّى كَلِماتِ اللهِ عَلَى مَدَى ثَلاثَةٍ وَعِشْرِينَ عامًا ،

وَهِيَ تُتْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ..

وَمَعَ ذٰلِكَ ، ظَلَّ واثِقَ الخَطْوَةِ ، يَمْشِى بَشَرًا ،
مُتَواضِعَ النَّفْسِ ، مُسْتَقِرَّ الفُؤَادِ ،
غَيْرَ جَبَّارٍ وَلا مُتَكَبِّرٍ ! ..
فَأَىُّ بَشَرِيَّةٍ هٰذِهِ ؟ !
وَما حَجْمُ طاقَتِها وَقُدُراتِها ؟ ! ..
وَهَلْ تُماثِلُنا : مَوْضُوعًا ، وَإِنْ تَماثَلَتْ : شَكْلًا ؟ ! ..
لَقَدْ قالَ المُفَسِّرُونَ والخُبَراءُ فِى عُلُومِ القُرْآنِ :
إِنَّ (سُورَةَ الأَنْعامِ) نَزَلَتْ جُمْلَةً واحِدَةً ، وَهِىَ مِنَ السُّوَرِ
المَكِّيَّةِ الطِّوالِ ذَواتِ الفَواصِلِ المُتَباعِدَةِ ..
وَعَدَدُ آياتِها خَمْسٌ وَسِتُّونَ وَمِائَةٌ نَزَلَتْ مَرَّةً واحِدَةً ..
وَتَلَقَّاها قَلْبُهُ ، وَوَعاها عَقْلُهُ ، واحْتَوَتْها ذاكِرَتُهُ ،
دُونَ أَنْ تَغِيبَ مِنْها كَلِمَةٌ ، أَوْ يُفْلِتَ حَرْفٌ واحِدٌ ! .
فَأَىُّ قَلْبٍ هٰذا ؟ ! .. وَأَىُّ عَقْلٍ هٰذا ؟ ! .. وَأَىُّ بَشَرٍ هٰذا ؟ ! ..
إِنَّهُ : بَشَرٌ مِثْلُنا ! .. لٰكِنَّنا : لَسْنا مِثْلَهُ ! ..
فَهُوَ يَبِيتُ عِنْدَ رَبِّهِ ، يُطْعِمُهُ وَيَسْقِيهِ ! ..
وَلا يَعْرِفُ كُلَّ قَدْرِهِ العَظِيمِ :
إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الَّذِى يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ؟ ! ..
وَنِعْمَ : المَوْلُودُ العَظِيمُ ، صاحِبُ الخُلُقِ العَظِيمِ ..
وَتَبارَكَ اللهُ : أَحْسَنُ الخالِقِينَ .

(مِنْ عُمْقِ الْمَأْساةِ : نُناديكَ)

ذٰلِكَ - سَيِّدِى - بَعْضٌ مِنْ سَناكَ ،
نُقَدِّمُها إِلَيْكَ ، مِنْ عُمْقِ الْمَأْساةِ الَّتِى تَحْتاجُ إِلَيْكَ ،
فَآهٍ ، لَوْ كُنْتَ مَعَنا ، أَوْ كُنَّا مَعَكَ !..
لَوْ كُنْتَ مَعَنا - أَوْ كُنا مَعَكَ - : ما ذَلَّتْ نُفُوسٌ
لِغَيْرِ خالِقِها !.. وَما خَضَعَتْ رِقابٌ لِغَيْرِ بارِيها !..
لَوْ كُنْتَ مَعَنا - أَوْ كُنَّا مَعَكَ - : ما جاعَ فَقِيرٌ !..
وَما تَعَرَّى صَبِيٌّ !.. وَما تَجَرَّعَتِ امْرَأَةٌ
فِى الْبُوسْنَةِ والْهِرْسَكَ ، كَأْسَ الْمَذَلَّةِ والْمَهانَةِ !..
لَوْ كُنْتَ مَعَنا - أَوْ كُنَّا مَعَكَ - : ما أُبِيدَ
شَعْبُ الشِّيشانِ !.. وَلا تَجَرَّأَ الصِّرْبُ فِى الْبَلْقانِ !..
وَلا عَبَثَتْ آلَةُ الْحَرْبِ فِى الْعِراقِ وَلُبْنانَ !.
لَوْ كُنْتَ مَعَنا - أَوْ كُنَّا مَعَكَ - : لَأَشْرَقَ صُبْحُ الْعَرَبِ
الْغائِبُ هُناكَ ، خَلْفَ الإنْقِساماتِ والْخِلافاتِ !..
لَوْ كُنْتَ مَعَنا - أَوْ كُنَّا مَعَكَ - :
لَعَبَرْتَ بِنا جُسُورَ الْهَمِّ الْعَرَبِىِّ ،
ولَحَقَنْتَ - بَيْنَنا بَحْرَ - الدَّمِ الْعَرَبِىِّ الْمُراقِ !..
لَوْ كُنْتَ مَعَنا - أَوْ كُنَّا مَعَكَ - :

لَأَنْقَذْتَ أُمَّتَنا مِنْ عارِ الْهَزائِمِ النَّفْسِيَّةِ والْفِكْرِيَّةِ !.
وَلَأَخْرَجْتَها مِنْ ذُلِّ التَّخَلُّفِ والتَّبَعِيَّةِ !..
ولَحَقَّقْتَ لَها حُلْمَ الْفَجْرِ الْغائِبِ ، الَّذِى طالَ انْتِظارُهُ !.
لَوْكُنْتَ مَعَنا - أَوْ كُنَّا مَعَكَ - : لَسادَ بَيْنَنا
الْعَدْلُ الْمَفْقُودُ !.. وحَلَّتْ بَيْنَنا الْأُخُوَّةُ الضَّائِعَةُ !..
وَتَسَرْبَلَ النَّاسُ بِالْكَرامَةِ الَّتِى بِيعَتْ فِى زَمَنٍ
تَحَوَّلَتِ الْقِيَمُ فِيهِ إِلَى بِضاعاتٍ فِى الْأَسْواقِ !..
لَوْ كُنْتَ مَعَنا - أَوْ كُنَّا مَعَكَ - : لَانْتَهَتِ
الْفَوْقِيَّةُ والتَّحْتِيَّةُ الَّتِى سادَتِ الْعالَمَ فِى غِيابِ
مَنْهَجِكَ ؛ فَحَوَّلَتِ النَّاسَ وَالْمُجْتَمَعَ
إِلَى شَمالٍ وَجَنُوبٍ ، وَسادَةٍ وَعَبِيدٍ !..
لَوْ كُنْتَ مَعَنا - يا سَيِّدى ، أَوْكُنَّا مَعَكَ - :
لَما تَشَدَّقَ بِفُحْشِ الْقَوْلِ دُعاةُ الْبُهْتانِ والزُّورِ ،
الَّذِينَ يُشِيعُونَ فِى الْمُجْتَمَعاتِ الْفَواحِشَ بِاسْمِ
الثَّقافَةِ ، والِاسْتِبْدادَ بِاسْمِ الْحُرِّيَّةِ ، والْقَهْرَ
والْكَبْتَ بِاسْمِ الدِّيمِقْراطِيَّةِ واخْتِيارِ الشُّعُوبِ !..
وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا !..
لَوْ كُنَّا مَعَكَ - أَوْكُنْتَ فِينا - : لَما قُلِبَتِ
الْحَقائِقُ !.. وَلَما اسْتَبَدَّ الْجَهْلُ بِالنَّاسِ !..

وَلَما طَغَىٰ لَيْلُ الْمُجُونِ عَلَى تَسابِيحِ السَّحَرِ !..
لَوْ كُنْتَ مَعَنا - أَوْ كُنَّا مَعَكَ - : ما تَطاوَلَ
الصِّغارُ !.. وَلا تَخَلَّى - عَنِ الدَّوْرِ - الْكِبارُ !..
وَلا تَعَدَّى ظَلامُ اللَّيْلِ عَلَى ضَوْءِ النَّهارِ !..
لَوْ كُنْتَ مَعَنا - أَوْ كُنَّا مَعَكَ - :
ما جَمَعَنا - عَلَى مَوائِدِ الْمَذَلَّةِ - عارُ الْمُفاوَضَةِ !..
وَلَما قَبِلْنا - بِالْمَهانَةِ - مَبْدَأ الْمُقايَضَةِ !..
لَوْ كُنْتَ مَعَنا : ما تَنَكَّبَ الطَّرِيقَ مُنْحَرِفٌ !..
وَلا ضَلَّتْ خِرافُ النَّاسِ وانْجَرَفَتْ !..
فَبِئْسَ الْيَوْمُ الَّذِى ضَيَّعَنا عَنْكَ، وَتاهَ مِنَّا - فِيهِ - مَنْهَجُكَ !..

* * *

وَمَعْذِرَةً - سَيِّدِى - إِنْ وَقَفَ كاتِبُ هٰذِهِ السُّطُورِ - بَيْنَ يَدَيْكَ - فِى أَدَبٍ وَعَلَى ٱسْتِحْياءٍ ، يُحاوِلُ بِكُلِّ أَدَواتِ الْبَلاغَةِ والْبَيانِ ؛ فَتَهْرُبُ مِنْهُ الْعِبارَةُ ، وَتَخْجَلُ مِنْهُ الْفِكْرَةُ ، وَيَعْجِزُ مِنْهُ اللِّسانُ ، وَتَسْخَرُ مِنْهُ الْكَلِماتُ وَهِىَ تَتَساءَلُ فِى ٱسْتِغْرابٍ وَتَعَجُّبٍ : ماذا سَتَقُولُ كَلِماتُكَ ،
- يا هٰذا - بَعْدَ مَدْحِ اللهِ لَهُ ، وَثَناءِ اللهِ عَلَيْهِ ؟!..
فَيَا سَيِّدِى ، يا رَسُولَ اللهِ ، مَعْذِرَةً
فَلَسْتُ أَبْغِى - بِهٰذا الْمَدْحِ - إِحْسانـ
وَأَنْتَ أَسْمَىٰ عَلَى شِعْرِى وَمَوْهِبَتِى
لَمَّا سَمَوْتَ - بِمَدْحِ اللهِ - : قُرآنا !

(نُـجُـومٌ بَـيْـنَ بَـرِيـقِ الـشُّـهْـرَةِ .. وَنِـداءِ الْـفِـطْـرَةِ)

الإسلام دين الفطرة :

تلك عبارة تتردد كثيراً على ألسنة الناس .

وهذه العبارة - ببساطة شديدة - ودون الدخول بالقارىء الكريم في تفاصيل علمية معقدة ليس هذا مكانها تعني أنه دين يتفق ويتطابق تماما مع التكوين الإنساني من حيث الأفكار، والمشاعر والأحاسيس، والحاجات الأساسية للكائن البشري الذي هو الإنسان. . . . وهذا التطابق مع مكونات الإنسان النفسية والمادية، يتم به وعن طريقه تلبية حاجات الإنسان في توافق وانسجام .

والإسلام دين الفطرة - أرضية لا خلاف عليها بين العامة والعلماء والأعلام، فالناس يولدون عليه مهداً، ثم هو يسجل مع الجنسية في شهادة الميلاد، ولا يحتاج لجهد إضافي لكي يستقر في الأعماق، لأنه يدخل إلى الإنسان من كل مدخل، ويتسلل إليه من كل جانب، وينزل وينساب باستمرار مع الدم والعروق إلى أبعاد غير مرئية في روح الإنسان ومادته . .

ومن هنا كان حديث النبي ﷺ :

(كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)(١) .

---

(١) صحيح الجامع الصغير ج ٤ ص ١٨١ حديث رقم ٤٤٢٥ تحقيق ناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي.

والفطرة هنا هي الإسلام الذي يرفع قدر الإنسان وكرامته، ويقدم له من التكاليف والتوجيهات ما تصلح به دنياه وأخراه معاً. في بساطة وسماحة وتيسير.

يقـــول ربنـــا:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١).

وهذا الدين القيم، تتميز تكاليفه وتوجيهاته بأنها في نطاق قوة الإنسان وقدرته، فلا تكليف بما فوق الطاقة، والله جلت قدرته الذي خلق الإنسان وأمر بالتكاليف، لا يكلف نفساً إلا وسعها، وتكليفه سبحانه يتم دائما بمراعاة التخفيف واليسر:

قال تعالى:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٢).

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٣).

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (٤).

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (٥).

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦).

ويمزج هذا الدين في تكاليفه بين ما يُصْلِحُ الإنسان وينمي قدراته روحياً وعقلياً وبدنياً، وبين ما يحميه في حياته وحركاته ونشاطه كله، حتى يؤدي رسالته على الوجه الأكمل والأجمل، دون خلل في ميدان من ميادين الحياة..

---

(١) الروم ٣٠

(٢) البقرة ١٨٥

(٣) الحج ٧٨

(٤) النساء ٢٨

(٥) الأعلى ٨

(٦) مريم ٩٧

وفي خطابه العام ودعوته للآخرين ليدخلوا فيه، يعتمد على الحجة والمنطق، ويحترم الدليل والبرهان، ويقدم الحقيقة مقرونة بشواهدها وشهودها في النفس والآفاق، والبيئة المحيطة، والكون الواسع العريض.

يقول الله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١).

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (٢).

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٣).

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (٤).

هذه هي بعض آيات الحق، وشواهد الحقيقة في كتاب الله المقروء، وهي كما نرى ليست قاصرة فقط على الوحدات القرآنية المعروفة في إصطلاح علماء القرآن بالآيات - وإنما تتسع هنا لتشير إلى آيات الحق وشواهد الحقيقة في كتاب الكون العميق، أو إن شئت فقل ﴿في القرآن الصامت﴾.

(١) فصلت ٥٣
(٢، ٣) يونس ٥، ٦
(٤) الرعد ٢

فالقرآن الكريم كون ناطق، والكون الكبير قرآن صامت، وكلاهما صادر عن الله، الأول كلامه، والثاني فعله، وهما معاً يلتقيان دوماً ولا يتناقضان، ويتعانقان دوما ولا يختلفان، ويشيران معاً إلى قدرة الله في التغيير والتبديل والتحويل . .

فهو سبحانه يداول الأيام، وَيُغيّر الأشخاص، ويُبَدل المواقف والمواقع، ويهب الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع . .

تلك هي بعض أنواع الآيات التي يلفت القرآن إليها نظرنا، ويوجهنا نحوها، بأسماعنا وأبصارنا وعقولنا، كما يحذرنا من الغفلة والتغافل عما تحمله وتحتويه من دلالات وعبر وعظات، ويجعل هذا التغافل صفة من صفات الذين حبست آمالهم وطموحاتهم في قفص الحياة الدنيا، ونسوا الله، ورسالتهم، والدار الآخرة، واستمع لما يقوله القرآن وصفاً لهؤلاء . .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [1] .

هذا المصير المشؤوم الذي آل إليه هؤلاء الغافلون، يدعونا إلى الحذر من الغفلة عن آيات الله في الزمان والمكان والبشر، وهي آيات تشد الأبصار وتبهر الألباب، يقدمها القرآن الكريم، ويشير إليها وهو يتحدى بالنصوص المعجزة، ويتحدى بالإبداع والروعة، كما يتحدى بالعقل المتأمل في هذا الوجود.

يقدم للإنسان الحقيقة خالصة من شوائب الأوهام والخرافات تسطع أنوارها، فتبدد أمام العقل ظلمات الجهالة، وتغمر النفس بفيض السكينة والهدوء.

---

(١) يونس ٧، ٨.

وتضفي على حياة القلب بعض الرضوان الأعلى، فيعيش صاحبه في ملأ من الملائكة الكرام، يعَمِّر الحياة، ويُرَقّي الوجود، ويزيد من نغم الكون في تسبيحه الطاهر، ويوسع دوائر الخير في كل ما تتناوله يداه . .

تلك هي بعض معطيات الإسلام الأولية للذين يقبلون عليه ويعتنقون عقيدته، ويعتمدونه برنامج عمل لحياتهم فيطبقون تعاليمه وتوجيهاته في مجال الحياة . .

وبموجب قانون - البقاء للأصلح - يظل هذا الدين هو النبع الأصيل لكل ما تصلح به الحياة وتنمو، وتسعد به النفوس وتطمئن، وينتصر به الحق وتعلو رايته .

لكن هل يعيش الحق وأهله في الحياة بغير منغصات . . . . !

إن الباطل هناك يتربص وينتهز الفرص، ويحيك المؤامرات وينصب شباكه ويعكر الماء ليصطاد أهل الحق في كل ميدان .

وقد يتساءل المرء، ولماذا هذا الصراع ؟ وما الداعي إليه ؟

أليس الإنسان حراً في أن يعتنق من المباديء والأفكار، ويتخذ من المواقف ما يحلو له . . . . !

ونحن نسارع بالموافقة، وندعو الجميع إلى أن يجيبوا بنعم .

ولكن هل يوافق الباطل وأهله على هذا الموقف، وتلك الإجابة ؟

إن التاريخ بأحداثه، وما فيه من مواقف ومواقع يجيبنا، وكما تجيبنا أحداث التاريخ يجيب الأدب بحكمته وشعره وهو يسجل مع التاريخ كيف كان الصراع .

وليــت مــن لم يكــن بــالحق مقتنعــاً
يخلي الطـريـق فـلا يـؤذي مـن اقتنعـا

كانت هذه أمنية، تمناها الحق وأهله من قديم الزمان، وهم يواجهون أهل الباطل في صلفهم وغرورهم.

إنهم لا يقتنعون. فليكـن. فهذه حـرية.. لكن البـاطل وأهلـه لا يكتفون بهذا الموقف. إنهم يتخـذون موقفا مضاداً مـن كل مَنْ فكر واقتنـع.. والويل كل الـويل لكل مـن مارس التفكير.. وتعـاطى البحـث عن الحقيقـة أو اقتنع بها، ولطـالما قال الرسول ﷺ لأهل مكة ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ (١).

فكان ردهم: لنـا ديننا وليس لك ديـن، وعليك أن ترجع إلى ديننـا، أو لا يكون لك عندنا إلا الموت أوالخروج مطروداً أنت ومن معك ممن فكر واقتنع.

وهذا مـوقف مـن أهل الباطـل ليس خـاصاً برسـول الله وحده، وإنما تكـرر مع الأنبياء السابقين قبله، حتى أن القرآن الكريم قد سجله ليفضح به أهل الباطل على مدى الزمان والمكان.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢).

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٣).

---

(١) الكافرون ٦.
(٢) إبراهيم ١٣. (٣) الأعراف ٨٢.

وهذا موقف غريب وعجيب. فالتطهر في نظر الملوثين جريمة. والعِفَّة في نظر المفسدين مشكلة. والشرف مصيبة وكارثة.

وطبيعة الحق أنه يكشف الباطل ويعريه، ويظهر سوءاته ويكشف مخازيه، ويفضح قبحه وآثامه، فينصرف الناس عنه، ويتمسكون بالحق الذي يخاطب عقولهم، ويضيء حياتهم، وتطمئن في ظل مبادئه نفوسهم وأرواحهم.

كما أن من طبيعة الباطل أنه لا يملك أن يحيا وسط الضوء والسنا، ولا يستطيع أهله أن يعيشوا في ظل سيادة الحق الذي ينصف الجميع من الجميع، ويحمي شرف الحياة، ويذيب الفوارق المصطنعة بين البشر، ويجعل جمال الكل في الكل. ويوظف من أجل هذا كل وسائل التأثير وصياغة الرأي العام بما في ذلك كل الفنون والآداب.

الفن بين الالتزام الأخلاقي وتلاميذ مدرسة هوليود وشيكاغو

وينظر الإسلام إلى الفن على أنه في المنظور الصحيح قضية وموقف، وضرورة وجدانية ونفسية ملحة، وليس مجرد ترف رقيق يهتز له الوجدان، وتطرب له المشاعر والأحاسيس إن كان ذا محتوى قيمي.

وإلاَّ فإن الخنوثة التي ترتبط بهز الوسط والبطون، وتعمل على إثارة الشهوات بكل وسيلة ممكنة لا يمكن أبداً أن تنتمي إلى الفن ولا صلة بينها وبين الفن أو الأدب من قريب أو بعيد.

وإذا صح القول أنه لا فن بلا إنسان . . فينبغي القول أيضاً أنه لا إنسان بلا قيم .

والسؤال المطروح على كل العاملين في هذه الميادين والمشرفين عليها والمتصلين بها والمتعاونين معها - سواء أكانوا كتابا أو ممثلين أو مخرجين أو صحافيين أو إذاعيين - ممن يجرون معهم اللقاءات والحوار الطويل السؤال المطروح على هؤلاء جميعاً هو: هل ندخل عالم الفن متسلحين بالوعي والإدراك أم ندخل عالم الفن عرايا عن الأخلاق والقيم والفضائل؟

تلاميذ مدرسة هوليود وشيكاغو يفضلون الخيار الأخير، فشعار الشهوات لديهم هو وسيلة الكسب، وإثارة الغرائز قاسم مشترك عندهم في كل عمل .

ونمط هذه المدرسة العبثية يُصدَّر إلينا، ويفرض علينا، ليجتاح في الأمة كل عناصر الخير وقيم الجمال والرجولة والمقاومة، ويحول الإنسان المكرم إلى مجرد حيوان لا يبحث إلا عن الطعام والجنس بعد أن يكون قد اغتال فيه أعز وأغلى ما يملك .

وإذا كان ولا بد من التعامل مع الفن كتعبير عن الوجدان الإنساني فإن المصطلح يحتاج إلى ضبط وترشيد لمفهومه ومحتواه .

وما من مفردة من مفردات الفن إلا وهي محتاجة إلى قيد أو شرط أو جزء تنسجم معه وتتكامل به، وذلك يعتبر إحقاقا للتلازم الضروري بين الفن والأخلاق والأمانة، فالفن في صورته الراقية موقف وقضية ورسالة .

وبالتالي فغير الملتزم أخلاقيا أو أدبيا بالقضايا المصيرية لأمته لا يمكن أن يحقق نجاحاً بالمقياس الصحيح للفن الأصيل، ويجب النظر إليه بمنظار الخيفة والتوجس لأن قضية الالتزام - دون سواها - هي التي تجعل الفنان منطلقا من حرية مسؤولة،

وتُعدُّه بين المجـاهدين حين يعمل على تغيير البيئـة المادية والنفسية، وينتقـل بها من البـاطل إلى الحق، ومـن الضلال إلى الهدى، ومـن الخطأ إلى الصـواب، ومن الغـيِّ والفساد إلى عالم الإدراك الرشيد والسلوك السـديد.

إن الالتزام هنا - وليس الإلزام طبعا - ليس انتقاصا من حرية الفنان، أو الحد من قدرته على العطاء والإبداع، بل إن القضية عكس ذلك تماماً.

فالالتزام هنا خـروج به من عالم المادة الضيق والمحسوس إلى الارتبـاط الحر بقضايا المصير في الغيـب والشهادة، والمادة والـروح، والعقل والقلـب. وذلـك عالم رحـب فسيح يفتح أمام الفنان الأفق الأبعد والأوسع والأجمل في عالم الروعة والابداع.

وأداء الفنـان - حين يكـون ملتزمـا بهذهِ القضـايـا يصبـح إسهامـاً في أداء الأمـة لمسؤوليتهـا ورسالتها، ويتحـول الفنان بالتزامـه هذا من مجرد حكـواتي أو مشخصاتي ممسوخ إلى داعية خير وداعية تضامن ورافض لأنواع القهر والظلم والاستبداد.

لأن الالتزام هنا حالة اختيارية ضد القهـر وضد التبعية العمياء لما يفرضه الآخرون من أنماط فنية في مخاطبـة الغرائز و إثارة الشهوات وكشف العورات، وتفـريغ الإنسان من كـل قيمة وكـل فضيلة، وتجريـده من الحياء والخجـل، وتعريتـه حتى مـن ورقة التوت.

إن تلاميذ الإلزام بنمط الآخرين يتحدثون كثيرا عن حرية الفنان، في الوقت الذي يسجنون فيه أنفسهم ويعتقلون مواهبهـم الإبداعية في معتقلات الغرائز والشهوات، وهـؤلاء مساكين. فهـم يعيشـون حـالة أشبـه مـا تكـون إلى المرض منها إلى الصحـة والعافية، ويعانون من إدمان المعاصي كما يعاني مدمنوا المخدرات.

و إذا كانـت الدول المتحضرة تُعِدُّ للمدمنين مصحـات نفسية يعالجون فيهـا، فإن هـؤلاء يحتاجـون أيضـا إلى الـدخول في مصحـات أخـلاقيـة تعلمهم أن للنـاس قيما

ومبـاديء وفضائل، وأن الانســان - ذكـرا وأنثى - قـد ورث عـن أبـويه آدم وحـواء خصائص أخرى غير الذكورة والأنوثة .

وأن حرية الانسان تبدأ من رأسه لا من رأس البر[1] ومن عقله الذي يسيطر به على غرائزه وشهـواته وليـس من تحت الحزام، وذلك عـالم رحب فسيـح يفتح أمـام الفنان الأفق الأبعد والأوسع والأجمل في عالم الروعة والابداع .

حجاب الفنانات وتهمة التمويل من الخارج

ولقد أدرك هذا المعنى بعـض الفنانين والفنانات فانتشلوا أنفسهـم من هذا الجو، وتمردوا على هذه البيئة المملـوءة بدخان المعصية وفقدان المناعـة ، وعادوا إلى الله تائبين نادمين، ورفضوا أن يظلوا دُمـىً تتحرك بأيدي الآخرين باسم الفـن والثقافة والإبداع والحداثة بعدما تبين لهم أن هذه المصطلحـات يساء استعمالها، ويتعسف الآخرون في مدلولاتها حتى أضحـت مرادفة لمعاول الهدم، وتخريب النفوس والقلـوب، والمشاعر والأحاسيس، و إفساد الذوق العام .

وهنا قامت قيامة أهل الباطل ممن كانوا بالأمس معهم وتساءلوا في دهشة :

كيف يخرج هؤلاء على أخلاق القطيع؟

كيف تخلصوا من ثقل الشهوات والنزوات؟

كيف تحرروا من ربقة الهوى والسقوط و إدمان المعاصي . . كيف؟

وبـدلا من أن يقتـدوا بهم ويسلكوا معهـم نفـس الطريـق، ويهتدوا بنـور اليقين وينعموا بنعمة السكينة النفسية التي تضفيها التوبة على كل عائد إلى الله، بدلا من أن يفعلوا ذلك تحركت فيهم - عقدة الضعة - فـراحوا يسخرون من الهداية، ويستهزئون بالعفة ويتهمون التائبين بالعمالة والهوس .

---

(١) شاطيء ومصيف في مصر.

والانسان يتساءل في عجب. أليس الناس أحرارا - يا دعاة الحرية - فيما يعتقدون وفيما يأخذونه من مواقف؟

فلماذا كل هذه الحملة على هؤلاء. لكن العجب يزول عندما يدرك الإنسان أن أهل الباطل في ظل الباطل الذي يعتنقونه قد تعودوا أن تكون لهم امتيازات خاصة، يستطيعون بموجبها أن ينطلقوا في تلبية شهواتهم ونزواتهم بغير حدود أو قيود، وبالتالي:

فالنور يكشفهم، والهداية تعريهم، والمساواة تخيفهم، والعفة تهدد شهواتهم. والفضيلة تكشف عوراتهم وتهدد كيانهم العام.

ولذلك فهم يكرهون الحق، لا لأنه حق، وإنما لما فيه من ضوابط تهدد وضعهم، وتشير بألف إشارة إلى سوءاتهم وخطيئاتهم العقلية، والنفسية والاجتماعية، والاقتصادية.

وتنسحب تلك الكراهية على أهل الحق الذين يدعون إليه ويبشرون به، كما تنسحب على العائدين التائبين إليه ممن كانوا بالأمس معهم، لأنهم لا يريدون لأحد أن يستفيق أو يستعيد وعيه ورشده وإنسانيته.

إنهم يريدون للجميع أن يظلوا غارقين في حمئة الشهوات والنزوات باسم الفن وحرية الفنان.

ويقظة الآخرين تؤرقهم، وتوبة البعض تقض مضاجعهم، فإذا رجع إلى الله فنان أو تابت ممثلة فإنهم ينشطون وبسرعة ويجندون كل من على شاكلتهم في محاولة لإيقاف تيار الحق وهو يتحرك، يحاولون حصار أهله، والنيل منهم، والهجوم عليهم، والتقليل من قيمتهم، ولا مانع من اتهامهم بكل وسائل التجريح، وتخويفهم بكل وسائل القمع والترويع، ومنها أحدث الموديلات في عالم التهم، تهمة التمويل من قوى خارجية وداخلية للفنانات من أجل الحجاب.

والمرء يضحك ويتساءل في سخرية :

من هـو الذي يمـول من أجـل الحجاب ؟ ومـن وراءه يا تـرى ؟ وما طبيعـة تلك القوى؟

وهل ستقدم تمويلاً مجزياً يغري هؤلاء الفنانات بترك الشهرة والنجومية ، والانتشار بين الجماهير، والغياب عن عيون الملايين من البشر ؟

وهل هـذا التمويل مـن الإغراء بحيث يجعل الفنـانات يتركن مـا كن يأخـذن من أجور تبلغ في الفيلم الواحد حد الخيال ؟

ومرة أخـرى من هـو هذا الذي يملـك كل هذه الملايين ليقـدمها إغـراء لهؤلاء من أجل الحجاب ؟

وهل صحيح أن قـوى - داخلية كانت أو خارجية - وراء هـذه الظاهرة ؟ . . . . ظاهرة عودة الفنانين والفنانات إلى الله . . . . !

وهل هذه القوى التي تمول الفنانين والفنانـات من أجل الحجاب ؟ ؟ ؟ هي التي مولـت أيضا المطرب والمغنـي الإنجليزي المشهور (كـات ستيفز) الذي أسلـم وسمى نفسه يوسف إسلام، وتبنى الدعوة إلى هذا الدين في كل بلاد العالم . . ؟

وهل هـذه القوى أيضـا هي التي كانـت وراء السفير الألماني فـي المغـرب (ولفرد هوفمن) والـذي أعلن إسلامه بعد أن قـرأ القرآن الكريم عدة مـرات ، وقرأ الصحاح الستـة مـن كتب السنّـة ، وأعلـن قـراره على الـدنيـا كلها أن الإسـلام هـو ديـن الله الصحيح ، الجدير بالوراثة والتصحيح ؟

وهل هذه القـوى أيضا هي التي مـولت المفكر الفرنسي (روجيـه جارودي) عضو مجمع الخالدين ، والذي أعلن إسلامه وسمى نفسه رجاء ، وأعلن قراره مدويا في طول الأرض وعرضها : أن الإسلام بصيغته الربانية هو القادر الوحيد على أن يقوم بعمليات الإغاثة والإنقاذ لهذه البشرية ؟

إننا نتساءل ونضحك عن سر الحملة المحمومة وسر الغضب الشديد . . . . هل هي مجرد العودة إلى الله ، وارتداء الحجاب واختيار طريق العفة والشرف ؟

هل هذا هو سر الحملة المسعورة والغضب الشديد . . ؟

أم أن سر الحملة المسعورة والغضب الشديد أن هؤلاء الفنانين والفنانات أُعِدوا ليكونوا أدوات هدم وتدمير فشاء الله لهم أن يكونوا عنوان هداية وتغيير . . ؟

أم أن هؤلاء كان من المخطط لهم أن يكونوا دعاة للبهتان والزور، فشاء الله لهم أن يكونوا دعاة للحق والنور . . ؟

وهذا هو التمويل الحقيقي الذي أغرى هؤلاء وغيرهم فتركوا ما كانوا فيه ليستعيضوا عنه بشيء آخر، وبحياة أخرى، ونعيم آخر، وسعادة أخرى . . . .

إنها الرحمة التي يستروح في ظلها القلب المكدود .

والرضا الذي تطمئن به النفس القلقة .

والسعادة التي لا تعوضها الشهرة ولا النجومية ، ولا ملايين الدولارات .

إنه الرضوان الأعلى حين يتجلى على القلب فيطير فرحاً بربه ، ويشرق له الوجدان والفكر، فإذا الظلام يتبدد، والليل الأحمر يذهب بعيداً إلى غير رجعة ، وإذا بفجر التوبة يولد ومعه تتجافى الجنوب عن المضاجع خوفاً وطمعاً ، ويولد معه الإنسان من جديد .

إنها نسمات الجنّة هبَّت على هؤلاء بعطرها وشذاها، فتاقت أرواحهم إلى الله ، فتجلى عليهم باسم التواب ، فإذا بالحياة غير الحياة، وإذا المعالم غير المعالم، وإذا الإنسان خلق آخر، وإذا المذاق طعم آخر، وإذا الدنيا والشهرة والنجومية بكل مغرياتها هينة رخيصة حين تكون ثمناً للحظة أنس بالله .

وهذا هو الإغراء الذي يسكبه الإيمان في القلب الجديد للإنسان الجديد، ويقدمه الإسلام وحده دون سواه تمويلاً لنفوس وأرواح وقلوب كل التائبين والعائدين.

هذا هو التمويل الذي لم يذق طعمه أولئك الذين حرموا نعمة الإيمان، فأرّق ليلهم تسبيح العابدين، وقض مضاجعهم أنين التائبين، وسوّد نهارهم رؤية المسلمة المحجبة، وهي تعلن بزيها في تواضع واقتدار معاً تحديها لصراخهم وهذيانهم، كما تعلن في عزم و إصرار اعتصامها بحبل الله وحده، ولو صرخت من حولها كل أفواه الثعابين، وتميزت غيظاً كل القلوب المريضة.

وهذا الذي حدث ويحدث للفنانين والفنانات وغيرهم إنما هو آية من آيات الله في التبديل والتحويل والتغيير.

ولنذكر ونتذكر دائما:

أنَّ من ألْقى ثِقَلَ همومه على باب مولاه استراح

وأن قطرة من بحر جوده تملأ الأرض رِيًّا

وأن نظرة بعين رضاه تجعل الكافر ولِيًّا

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴾ (١).

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٢).

أقول قولي هذا ولست محامياً عن أحد.

---

(١) النساء ٢٧.

(٢) الفتح ٤.

أَزْمَتُنا الرَّاهِنَةُ ..
بَيْنَ التَّفْكِيرِ والْمُواجَهَةِ

الحضارات والأمم تتعرض لما يتعرض لـه الأفراد مـن شباب وشيخوخـة ، ومرض وعافية ، ومد وجزر، وامتداد وانكماش .

وكثيرا مـا تكون حـالات الامتـداد المادي مصحوبـة بـالترف والطغيان كما يحدثنـا التاريخ .

ذلك لأن الترف والطغيان قرينان ، يلتقيان دائما و يتعانقان .

فـالأول : مقدمة للثاني وتمهيد لوجوده .

والثاني : نتيجة حتمية ومحصلة للأول .

والترف نوعان مادي، وعقلي، والأخير أخطرهم .

لأنه عادة ما يكون مصحوباً بترهل الإرادة الذي يأتي بدوره نتيجةً لإصابة المجتمع بحالة من التُخمَةِ ، بعد أن يكون قد تشبع من متع الحياة بشتى صورها دون ضوابط .

وكثيراً مـا تسـاعد طـراوة البيئـة ، ورخـاوة العيش على استرخـاء الإرادة، وغفلـة العقل، وهبوط الهمة .

ولعل المثل المضروب في هذا الشأن يساعد على فهم الظاهرة حيث يقولون :

« إذا امتلأت البطنة نامت الفطنة »

وبخاصة إذا لم يكـن هنالك مشروع حضاري يحفز الهمم وينشـط العزائم ويبعث على الفعل الإيجابي، ويوجه الطاقات العقليـة والنفسية لخدمة قضية كبرى تتلاقى في سبيلها الإرادات تـلاقياً حراً، وتتوحـد حولها التصورات، ويصب حجـم النشاط في مجراها العام.

ولقد مرت أمتنـا بمرحلة من الترف المادي في عصـورها الأولى، خاصة بعـد فتوح البلدان وانفتاح المسلمين على حضارات وثقـافات الآخرين، وما صاحـب ذلك من حركة ثقافيـة ضخمة نقلت فيها الفلسفات عن طريق الترجمة إلى العـربية، وبقدر ما كـان لهذه المرحلـة مـن أثـر طيـب تمثـل في لقاح الفكـر الإسـلامـي بفكـر وثقـافـة الآخريـــن، إلا أن مردوده على المستوى العـام جعل البعض ينحو منحى الفلسفة اليونانية خاصة في قضية الإلهيات.

ولما كان العقل المسلـم في تلك الفترة غير مشغول أو مهموم بهم عـام فقد اتجه إلى أمور تفصيلية قدم فيها العرض على الجوهر، والمظهر على المخبر، والجدل العقيم على العمل النافع، وأخذت القضايا الجزئية والفرعية حجما أكثر مما تستحق، وتقدمت في كثير من الأحيان على قضايا كلية كان يجب أن تحظى بالأولوية والاهتمام المطلق.

وهذا الخلل في توجهات العقل المسلم في تلك الفترة جعله يستنفد طاقاته وقدراته في تفاصيـل ابتعدت به عن مهمتـه الأساسية، ونأت بـه عن النهج الذي سـار عليه الصحابة رضوان الله عليهم.

غير أن أثر هذا الخلل لم يظهر في حينه، حيث كـانت الأمة في قمة عافيتها العقلية والنفسية، وكانت عمليات الإقلاع الحضاري تتم على قدم وساق، وبقوة دفع فاقت كل التصورات.

وبالتالي لم يُـلْـتَفَتْ إلى هذا الخلل وسط حالة السلامة والعافية العامة.

وحيث يعمل جهاز المناعة بكفاءة فـائقة تختبيء الجراثيم والميكروبات، ولا تظهر عادة إلا في حالات الضعف العام. ويلاحظ أننا في ذلك الوقت كنا العالم الأول.

وقد يتصور الإنسان أن تنشغل العقول بهذا النوع من الاهتمامات الفرعية في فترات فراغها حيث الدولة مستقرة، والفتوحات على أشدها، والنصر تتوالى مواكبـه، وتتوج هامات الأمة بأكـاليله مع كل فجر جديد، ولكن الـذي لا يفهم أن تظل هذه الحالة تتمدد على مساحـة العقل المسلم لتحتل مكان الصدارة والأولـوية على كل شيء، في زمن تـراجعت فيـه الأمة تـراجعاً مخيفا، وانكمـش ظل شريعـة الإسلام عـن حياتها انكماشا رهيبا، وغابـت روح الدين، وبقيت صورته شاحبةً في النفـوس وشكله باهتا في وجـوه أتباعـه، وتفلَّـت الناس مـن تبعـات الجانب العملي والخلقـي في الإيمان، وتمسكوا ببعض ظواهره، وصنعوا حولها معارك فكرية بدأت تأكل الأخضر واليابس، وتُؤَصل الأحقاد في النفوس، وتوغر الصدور.

وامتـد شواظ هـذه المعارك ولهيبهـا ليلفح وجـوه المخالفين وَيَصِـمَ البعض منهـم بالمروق والفسوق ولو كانوا من أهل العلم، وأولي النُهى، وأصحاب الطاعات.

تلك مصيبة كبيرة، والأكبر منهـا أن يُـجَرَّ بعض أهل العلم إلى هـذا المستنقع من الانقسامات، وأن تبعث من جديد صراعـات ماتت من مئات السنين، وأن يصنف الناس على أسـاسها في مربعـات فئوية، كـل فئة منهـا تدعي الحق لجانبهـا وتحتكر الصواب دون سـواها، ولا يتـوقف الأمـرعند هـذا الحد من التجـاوز في أدب الحوار، وإنما يمتـد ليسفـه رموزا سـاهمت في ثـراء الفكـرالإسـلامـي، ودافعت عنـه عقيـدة وشريعة، وأبلت في القديم والحديث بلاءً حسناً في ميدان الجهاد والدعوة إلى الله.

والإنسان لا يـدري لصالح مـن يتم هٰذا القفـز على تلك القمم وتـدمير منجزاتها الفكريـة والثقافية على أيـدي صبية صغار بعضهم قـد طُـرَّ شـاربه ونبتـت لحيته بالأمس فقـط.

والغريب العجيب أن يجري على ألسنة هؤلاء الصبية - وهم يتجاوزون - القول المعروف « هم رجال ونحن رجال ».

وباسم الرجولة هذه تلغى الاعتبارات العلمية، وتذوب جهود الأئمة، ويضيع علم غزير أفنى العلماء عمرهم في تحصيله وتدوينه والبحث فيه.. فإذا «بالرجولة الجديدة» تعلن الحرب عليهم، وتسبهم آناء الليل وفي وضح النهار، وتطالب بحرق كتبهم لأنها تخالف مذهبهم وتناقض أهواءهم. وأشهد أن من هؤلاء شباباً على خلق، وبعضهم طاقات هائلة، غير أن البعض الآخر ينطلق دون وعي في التهجم على الآخرين، ويسارع في الانتقاص منهم والنيل من كرامتهم دون اعتبار لحرمتهم العقلية؛

وكأنما يراد لهذه الأمة أن تعيش بلا رأس، ولا رمز، ولا مرجعية ويتم القفز على كل القمم الفكرية والثقافية في تاريخ أمتنا..

وإذا روجع في ذلك، قال: « هم رجال ونحن رجال » علما بأن حظه من العلم قليل، وزاده من الفقه أقل، ومعرفته بالسنة مبتورة الصلة بمعارف القرآن الكريم. وهم يعتمدون بعض آراء الإمام الفقيه العظيم ابن تيمية، ولو أنه رحمة الله عليه كان حياً لقال لهم: أفيقوا أيها الناس، وكفوا عن إثارة الفتن، فالزمن غير الزمن، والحال غير الحال، والرجال غير الرجال، وانشغلوا وأشغلوا غيركم بالقضايا الكبرى لأمتكم.

إنه من غير المعقول ولا من غير المقبول أن تتجه جهود الجامعيين والمجمعيين إلى شكليات ربما تؤثر في السطح بأثر محدود.

إن الواقع والحالة هذه يفرض على العلماء وأهل الرأي أن يزيلوا غشاوة هذا الليل، وأن ينقذوا الأمة من غيبوبتها المادية، وأن يعيدوا إليها بيقظة العزم وصحوة التصميم رشدها المفقود.

ولا يتم ذلك - ولن يتم - إلا عن طريق تحديد قائمة بالحاجات الأولية التي تحتاجها الأمة في قضاياها المصيرية الكبرى.

والوسيلة إلى هذا، هي الكلمة الطيبة المخلصة التي لا تقتلها ألف قذيفة، الكلمة المشرقة التي تجمع الشمل وتلملم العقد بالغضب المقدس من أجل الحق حين تنتهك حرماته وتستباح، وهل جاء الإسلام إلا من أجل ذلك :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (1).

والفرق كبير - سادتي العلماء - ومعروف لكل عاقل، بين المسلم العادي وبين المسلم المتخصص في نوع من الدراسات الأكاديمية، فالأخير من واجبه - بحكم التخصص - مناقشة كل صغيرة وكبيرة في قاعات البحث العلمي، وبين زملائه من أهل هذا الفن.

ولكن ليس من حقه أن يشغل جمهور الأمة بتلك الأشياء الصغيرة التي تأكل الوقت، وتستنفد الجهد والطاقة، وتحول اهتمام الإنسان المطحون من قضايا كبرى إلى شكليات تلهيه أو نلهيه بها تحت دعوى محاربة البدعة وتبصير الناس بدينهم.

ومن واجب العالم أن يجيب إذا سُئِل، وأن يُفْتِيَ إذا استفتِيَ، ولكن ليس من حقه أن يرفع صوته - بسيف البدعة الضالة مهدداً ومتوعداً، وكل ذلك ليس في كبيرة حدثت، ولا في حرمة انتهكت، ولا في حق أهين، بل في شكلية قد تُخدش أظافر الدين، وكان يكفي الإشارة إليها والتنبيه إلى جانب الخطأ فيها، ولسنا في حاجة إلى معارك تصنع حولها، تضخم الضئيل الضحل، وتصنع من الحبة قبة - كما يقولون - بينما ما يطعن الإيمان في قلبه ويجتث جذوره من عمق المجتمع نتغاضى عنه أحياناً بالتبرير المفجع، وأحيانا بالسكوت المر.

---

(1) الحديد ٢٥.

أليس من حق العقل أن يتساءل هنا عن صاحب المصلحة في المعركة المثارة كل عام حول - الاحتفال بالمولد النبوي - بين المؤيدين والمعارضين ؟

تدويخ المسلم وتبديد الجهد

إن هناك مخططاً لجر الأمة إلى هاوية سحيقة من الخلافات الشكلية تلهيها عن أهدافها وتحولها عن الوجهة الصحيحة ، وتقتل أو تؤجل إلى حين صحوة المسلمين وعودتهم إلى دينهم الصحيح .

وكل ذلك يتم بتوجيه الاهتمام حول أنماط من التدين العاجز المشلول الذي يحصر الإسلام في ركن من أركان المسجد ، ويحدده في أوراد تقال في الصباح والمساء ، أو في رؤى منامية تحلق بأصحابها في عالم آخر غير ما نحيا فيه ونعيش ، بينما يحرم الإسلام الحقيقي من حق توجيه الحياة وتسيير شؤونها في اتجاه يرضي الله ورسوله ، ويعيد للإنسان كرامته المسلوبة ، وحريته الضائعة ، وحرماته المستباحة .

ومن يا ترى صاحب المصلحة في إثارة هذه التساؤلات ، هل الصفات هي عين الذات أم زائدة عليها ؟

وهل المطلوب في تربية اللحية أن تكون قدر قبضة أو قدر قفصة ؟ - وما معنى استواء الله على العرش ؟ - وهل رؤية الله جائزة أم مستحيلة ؟ - وهل الاحتفال بالهجرة بدعة أم سنة ؟ - وكذا صيام النصف من شعبان ، ودعاء القنوت ، وهل نؤذن للجمعة أذاناً واحداً أم أذانين ؟ - وهل تجوز درجات المنبر أكثر من ثلاث ؟ - والدعاء بعد الصلوات جهرا هل هو سنة أم بدعة ؟ - ثم الجماعة الثانية بعد الجماعة الأولى ما الدليل عليها ؟ إنها بدعة ؟ في رأي البعض - والسترة بين يدي المصلي وبم

تكون وكيف تتحقق ؟ - وطول الثوب أو تقصيره، ومقداره، والأقطاب، والأوتاد، وزيارة القبور، والأولياء . . وما إلى ذلك من القائمة الطويلة العريضة، التي أضحت معروفة من كثرة ما دار حولها من نقاش، وما تم بسببها من اتهام بالابتداع والتكفير، وما وقع بين المؤيدين والمعارضين من معارك .

ونحن نتصور أن تطرح هذه التساؤلات في قاعات البحث وسط المتخصصين أنفسهم . . ولا معنى لأن يشغل الإنسان العادي بهذا الكلام . . ويكفي في الضغط عليه أنه مشغول بتأمين البيت والزيت . .

ولا علاقة له بأبي الحسن الأشعري، فالرجل قد مات سنة ٣٢٤ هـ أي ما يقرب من ١١٠٠ سنة تقريباً .

كما لا علاقة له بجهم بن صفوان فقد توفي الرجل عام ١٢٨ هـ يعني منذ . . ١٣ سنة تقريباً .

لكن طائفة من الناس تصر على بعثه من جديد، وتجعل منه قضية كبرى يدور حولها نقاش طويل يبدأ بأن في عقائدهم « دَخَـلٌ » أي فيها بعض انحراف يختلط معه الحق والباطل » ثم ينتهي بالفسوق أو الشرك أحياناً، والمطالبة بحرق انتاجهم الفكري والتخلص منه أحيانا أخرى .

وهكذا ندور في تلك الحلقة المفرغة التي لا تنتهي عند جيل بعينه، وإنما تتوارثها الأجيال، ويستمر الصدام حولها، ويُفَـرِّغُ الجهد والطاقة في غير الاتجاه الصحيح، وبهذا تبقى معاناة الأمة في الميادين المختلفة العلمية والاقتصادية وفي شتى جوانب الحياة زراعة وصناعة وتجارة، كما هي، بل في تراجع مستمر، وكأن التخلف والتراجع قدرنا المقدور .

إن الإنسان المسلم مستهـدف من كل القوى ليفرغ من محتـواه، ويجر إلى خلافات تنأى به عن التدين الحق والإيمان الصحيح، وقد عاش ما يقرب من قرون يعاني سكرة الموت الأدبي وغيبوبة التخدير التي وفدت اليه عن طريق الإعلام الموجه والمُسَيَّس من الغرب والشرق معاً .

وكان الأجدر والأحـرى بالوسط العلمـي أن يترفع عن السقوط في تلـك الهاوية، وألا يسـاهم في هـذا الغيـاب، وأن تتضـافر الجهـود لتحمـي - بـالقول، والفعـل، والإنتاج - الأرواح المسلمة التي تباد في أرض الإسلام وفي ديـاره وبأيدي أبنائه أحيانا كثيرة..

كان على الوسط العلمـي أن يستنفر جهود العاملين لحقن الدمـاء المسلمة المراقة، ووقف نـزيفها، وإعـادة الرشد إلى الخارجين على تعـاليم الله مـن الطغاة والمستبـدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويبددون أمـوال الأمّة بسفه بالغ، ويلعبون بقدرها ومصيرها. دون محاسب أو رقيب.

وبدلاً من تبديد الجهود وشغل الأمة بقضايا فرعية.. قولوا لنا أيها السـادة:

قـولوا لنـا رأي الإسـلام في النكبات والاضطهـاد الـذي ينـزل بالمسلمين في ديـار المسلمين وبأيدي المسلمين أنفسهم..

وما هي مسـؤولية الدول المسلمة في حماية الأقليات التـي تتعرض لحرب الإبادة في الهند وكشمير وبورما والفلبين.. لا لشيء إلا لأنهم مسلمون.

قولوا لنا - أفادكم الله -

ما هي مسؤولية الأمة حكامـا ومحكومين في عمليات التصفية الجماعية التي تحدث

للمسلمين داخل ديار مسلمة، وكيف السبيل لوقف هذه التصفية ؟

قولوا لنا - أفادكم الله -

ما هي مسؤولية الحكومات التي تسكت - سكوت البكر - على عمليات الذبح الجماعي لمسلمي البوسنة، والشيشان، بينما ترتفع أعلام سفارات الدول التي تفعل ذلك، والدول التي تؤيد هذا الذبح وتعين عليه في ديار المسلمين؛

قولوا لنا حكم الإسلام في ذلك ؟

أفيدونا - أفادكم الله -

عن موقف الشعوب التي تقدم لحكامها الطاعة ثم تأخذ في مقابلها الهوان ؟

أفيدونا - أفادكم الله -

عن موقف الدول التي تعقد معاهدات الصلح مع اليهود بينما تعبث الآلة العسكرية اليهودية بأهل لبنان، وتعمل فيهم قتلاً وتدميرا في الصباح والمساء، وتنتهك طائراتها السماء العربية دون أن يعترضها أحد.

قولوا لأمتكم -

رأي الإسلام فيما يسمى بالنفاق العالمي الجديد [النظام العالمي الجديد] الذي يفرض الحظر والحصار بشدة وصرامة، ويتشدد في المؤاخذة والعقاب حين تكون الضحية دولة مسلمة وشعبا مسلما.

بينما يسكت هذا النظام ويغض الطرف حين تنتهك إسرائيل أو الصرب أو الروس كل القوانين والأعراف الدولية، ودون أن تعلو وجهه حمرة الخجل.

وما هي الوسيلة لجمع الأمة في مواجهة موجات الإبادة التي يُصَدِّرُها لنا الغرب بين الحين والحين ؟ وتستعمل فيها إسرائيل قفازاً ينفرد بكل دولة على حدة، وكأنها تِنِّين يعيش على القضم والهضم، فإذا جاع عاود الأكل من فريسة جديدة دون مقاومة أو اعتراض .

قولوا لنا - أفادكم الله -

ما هو حكم الإسلام في الأموال الإسلامية التي يديرها اليهود، ويستثمرونها في بنوك أوروبا وأمريكا؟ .

وما هو حكم الإسلام في فائض أرباح هذه الأموال حيث يستعمل في صنع الطائرات والدبابات وشتى وسائل التدمير، ثم تعود كل هذه الآلات إلى إسرائيل في صورة هدايا لتدك الإنسان العربي، ولتصنع له المقابر الجماعية، وتجعل من تبقى على قيد الحياة تحت وطأة الجهل والتخلف والاحتلال .

ثم ما هو رأي الإسلام في الأموال الإسلامية التي تهدر بالملايين على موائد القمار في صالات لندن وباريس ونيو يورك وعواصم الغرب المختلفة ؟

قولوا لنا - أفادكم الله -

ما هو رأى الإسلام في الإنسان العربي الذي طال على رقه الأمد، ولم يحظ في بلاد - العرب الحرة المستقلة - بما حظي به الحيوان في أوروبا من حقوق، بينما ترتفع في بلاده شعارات الحرية والديمقراطية وكرامة الإنسان ؟

قولوا لنا - أفادكم الله -

ما هي مسؤولية الحكومات في تربية أجيال تعرف كل شيء، ويباح لها كل شيء إلا الإسلام الصحيح ؟

وكيف نُعبيء الجهود ليستيقظ الإنسان ويستعيد وعيه وذاكرته المفقودة، ويتخلص من هذا التخلف الذي يفرض عليه من الدول الكبرى ؟

إن منطق الإسلام لا يقبل نافلةً حتى تؤدى الفـريضة ، فهلا بدأنا بالأولويات أيها العلماء والحكماء .

ومنطق الإسـلام يأبى أن يجر أهل العلـم والتقوى إلى دائرة الانقسامات المصنـوعة عمداً ليتخلف المسلمون عن الركب ، وليسود بينهم عدو سافر أو عدو مقنع .

ونحن نهيـب بالمخلصين مـن رجال الفكـر والعلماء الأجلاء أن يبتعـدوا عن هـذه الدائرة الخبيثـة ، وأن ينأوا بـأنفسهـم وأمتهم عـن السقوط فيها ، وأن يـأخذوا بـأيدي الجماهير المسلمة إلى هـدفها المنشـود من خلال التـدين الواعـي الذي يَصُـفُّ أقدام الشباب على طريق العـودة إلى الإسلام الصحيح بصيغته الربانيـة حتى تستطيع الأمّة أن تستعيد من جديد مواقف الآباء الكبار ومواقعهم على أرض الله الواسعة .

ويومئذ تفيق الأمة من رقادها وتستعيد دورها وسط الأمم .

ويشعر الإنسان بأنه حر كما خلقه الله دون أن تكبله قيود أو تقعد به أغلال .

وينتهي هذا الشعـور المقيت ، شعور المسلم بـالغربة حتى وهـو داخل وطنه وبين أهله وعشيرته .

وأغرب الغرباء من كان غريبا في وطنه .

وعندها ستكف مركبة العواصف عن موالاة المسير، ويعود للمجتمع توازنه وخلقه ، ويعود للإنسانية رشدها وهداها بعد أن تكون قد استعادت وعيها بمنظور الإيمان . .

ولا يتحقق ذلك ، ولن يتحقق إلا إذا تم تبادل البحث والحوار، وتخلينا عن المواجهة والصدام ، وتركنا العصا الغليظة واستبدلناها بالفكر المضيء والبحث الحر .

فهلا بدأنا بالأولويات أيها العلماء والحكماء ؟

الْإِسْلامُ .. وَصِناعَةُ الرُّجُولَةِ

الإنسان هو أجل وأسمى مخلوقات الله على الأرض، من أجله خلقت الأشياء وسخرت له بغير إرادة منه.

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾ (١).

وقال سبحانه:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢).

إذاً فمنطق الإيمان يقرر أن الإنسان أجلُّ المخلوقات على الأرض. وهو بمنطق الإيمان هذا يعلو ويهبط، ويرتفع وينخفض بقدر معرفته بالله وخضوعه له. وتتحقق إنسانيته وتتكامل حين تتحقق عبوديته لله وتتكامل.

وكلما ارتقى هذا الإنسان في سلم المعرفة الإلهية، وفي سلم العبودية الخالصة، كلما كُشِفَ له من أسرار الوجود ما لم يكن من قبل معلوماً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣).

---

(١) الإسراء ٧٠. (٢) الجاثية ١٣

(٣) الأنفال ٢٩

إذاً فسيادة الإنسان في الكون والحياة تنبع أصلاً من عبوديته لله، ومعرفته لدوره ووظيفته، وممارسته لإرادته الخيرة التي هي جزء من قدر الله الغالب وقضائه الذي لا يرد، بها ينتشر الحب ويُحْرَسُ الحق، وَتُغْرَس في الدنيا بذور الفضائل.

وبغير هذه الممارسة يغيب الإنسان عن دوره فلا يكون له حضور في الواقع الاجتماعي للناس، وبالتالي لا يكون له حضور في الواقع الذاتي لنفسه.

وتلك حالة من التردي حذر القرآن منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ (١).

هذا فضلاً عن درجات التدني التي تهبط بالإنسان كلما غفل أو تغافل عن قيمه العليا.

ويظل الخط البياني كذلك في هبوط ما لم تنهض في الإنسان همته، وتستيقظ فيه صحوة التصميم، ويحيا فيه الضمير، ويعرف ويدرك أنه مخلوق لشيء آخر غير متعة الجسد وشهوات النفس.

وأن العيش في نطاق تلك الشهوات بعيداً عن قيم السماء هو سمة الكافرين.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ (٢).

ومع حقارة المبدأ وضآلة الاهتمامات يضل الإنسان ويضيع، وربما انطمست في نفسه معالم العقل والبصيرة معاً. فتنعكس اتجاهاته وتنقلب الوسائل في نفسه بحكم انقلاب المنطق إلى غايات. وربما قضى أكثر أيام عمره في الدوران حولها والذهول عما عداها. ولذلك جاءت الحكمة هنا من أفواه المربين تنذر وتحذر وكأنها بصيص من نور النبوة ومنطق الرسالة:

---

(١) الحشر ١٨ - ١٩ (٢) محمد ١٢

(اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك . . . . .) .

ومع إيقاع الحياة السريع ، وتحت ضغط ثقلها المادي ، يتغافل الناس أو يغفلون عن هذه المعاني الجليلة التي شدهم إليها القرآن شداً ورفعهم إلى مستواها حين قال :

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢) .

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ (٣) .

غير أن هذه المعاني الرفيعة قد هبط الكثير من الناس دون مستواها ، اللهم إلا من رحم الله . وقليل ما هم .

وأضحى الشعار المرفوع بين البشر الخبز - الطعام - أكل - العيش - رفع المستوى .

مع أن هذه المطالب بمدلولاتها قد ضمنت من الله سبحانه وتعالى شكلاً وموضوعاً . وطولب الإنسان فقط بممارسة الأسباب استجابة لسنن الله في الكون .

فعليه أن يسعى وأن يبذل الجهد . وعلى الله إتمام المقاصد .

إلا أن الإنسان قلب الحقيقة رأسا على عقب ، واختلَّت في نفسه قيم التوازن بين الوسائل والغايات ، فتوجهت همته ، وارتبطت مشاعره وأحاسيسه ، وملء قلبه ووجدانه بحاجته اليومية ، فلم يعد يسعى إلا لها ، ولم يتردد في سمعه إلا صداها .

---

(١) الذاريات ٢٢ - ٢٣ (٢) هود ٦

ومن هنا سُدّتْ عليه المنافذ، ووهـــت صلتـه بالله الذي في يده وقدرتـه إجابة الحاجات مهما تعددت وكثر السائلون.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ (١) .

ولو أن هذا الإنسان - الذي يركض في الدنيا ركض الوحوش - لو أنه سعى إلى الله بنصف الجهد الذي يسعى به بحثا عن حـاجته، أو طلبا لرزقه لطار هذا الإنسان في الهواء، ولأصبح العبد الرباني الذي يشع على المجتمع والبيئة إشعاعات الإيمان والخير والرحمة.

وإذا كان الدين يطلـب من الإنسان أن يعمل فلأنه يعتبر الفقـر مصيبة، لكنه لا يقاومها بنـدب الحظوظ ولطم الخدود، أو بالتطلـع إلى ما عند الغير، أو بالـدعوة إلى السطـو على ما لـدى الآخريـن كما فعلـت الأيديـولـوجيات المفلسـة، أو بالانتحـار والتخلص مـن حياة البؤس والعَوَزْ، وإنما يـأخذ الموقف الايجابي تجاه هـذه المشكلة، ويعمل على تخليص الناس منها قدر المستطاع.

والنبي ﷺ كـان يعتبر الفقر من أكثـر المشاكل التي تـؤثر سلباً على قـرار الانسان واستقلاله، وأشدها على الناس وقعا، ولذلك كان من دعائه ﷺ:

«اللهم اني أعـوذ بك مـن الكفر، وأعـوذ بك مـن الفقر، وأعـوذ بك مـن عذاب القبر، لا إله إلا أنت».

فلسفة الاسلام وقضايا الإنسان

والدعـاء هنا ليـس مجرد توجـه إلى الله ببعض الخواطـر التي تحمـل معانـاة النفس المتعبة، وإنما الدعاء هنـا - وخصوصا من رسول الله ﷺ - يشكل الخطـوط العريضة والقسمات العامة لبروز منهج يصاحـب الناس ويحقق أمنهم النفسي والاقتصادي إلى قيام الساعة.

---

(١) الحجر ٢١.

ولهذا ربط النبي ﷺ بين الاستعاذة من العوز والحاجة وبين سقطات المعاصي فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم»(1).

والمأثم هو سقطات الانسان في مزالق المعصية.

أما المغرم فهو دوام الحاجة والعوز.

والحقيقة أن الدعاء هنا يحمل فلسفة خاصة تجاه الكرامة الإنسانية، ويوضح طبيعة المنهج وموقفه تجاه القضايا الاقتصادية التي تستوعب الجهد الإنساني وتغطي نشاط الناس، وربما تحصرهم وتحبسهم في نطاقها وتعزلهم عما عداها.

ولذلك فإن النبي ﷺ بعد ما ربط في دعائه بين المأثم والمغرم، ربط أيضا بين العجز والكسل من ناحية، وبين غلبة الدين من ناحية أخرى.

فكأنَّ غلبة الدَّيْنِ نتيجة سلبية لحالة العجز والكسل.

والعجز والكسل كلاهما يمثل عائقا عن استعمال القدرة الطبيعية في مجال النفع العام أو الخاص.

أما غلبة الدين فهي تمثل هنا مشكلة اقتصادية بالفعل أساسها أن العائد أقل من المنصرف، أو الدخل أقل من الاحتياجات.

والإسلام هنا يبين أن المسلم يجب أن يملك أمره ويستثمر قواه، ولا يعيش عالة على غيره، ولا مضيعا لملكاته بالكسل، أو لكرامته بالحاجة والعوز، واللجوء إلى الآخرين.

---

(1) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري - كتاب التعوذ ص٥٠٤ تحقيق ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الاسلامي.

ولذلك جاء في الحديث: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[1].

ويلاحظ أن كراهية الإسلام للفقر والتبطل جعلته يرفع منزلة العمل، ويعتبر التعب فيه جهادا في سبيل الله، كما أنه يعتبر الهجرة في طلبه هجرة إلى الله.

والقرآن قد تضمن في نظمه ضمن مطالبه أن يتنقل المسلم في جنبات الأرض طلبا للعفاف وسعيا للثراء الحلال.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ (٢).

والنص هنا يتضمن صراحة دعوة إلى الضرب في الأرض طلبا للغنى والعفاف، لكن بعد التزود بالإيمان والتقوى، والصبر على تكاليف الحياة.

وهذه دعوة لصناعة الرجولة في الكيان الإنساني حتى لا يرضى بالعيش في بيئة تحتقر ملكاته وقدراته، وتحرمه من ثمرة جهده وجهاده.

والسبيل إلى تماسك هذه الرجولة في الذات الإنسانية هو السعي إلى طلب العفاف والغنى، وهذا السعي ليس كسعي الوحوش في الغابة بغير قانون بحيث يتحول الآدمي فيه إلى وحش له أنياب ومخالب فيسطو على كل شيء، ويلتقم كل ما يلقاه في طريقه بغير ضوابط من الحلال والحرام والمباح والمحظور.

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته - المجلد الأول، ج٢، ص١٤٥ حديث رقم ١٨٧٨ تحقيق ناصر الدين الألباني طبعة المكتب الاسلامي - الطبعة الثالثة ١٩٨٢.
(٢) الزمر ١٠.

وإنما هو سعي ينبع من الإيمان بالله، ومزود بالتقوى التي تعصم الانسان من الزلل، وتحميه من أن يعيش على كد غيره أو يغتصب بقواه ما ليس له.

ومجال النشاط والعمل هنا هو كل بيئة ينمو فيها العمل ويزداد، ولا يتوقف عند حدود بيئة بعينها، وإنما يتعداها ليشمل كل حركة نشيطة تضيف جديداً، وتُرَقِّي الحياة وترفع قدر الإنسان، وتنفع الناس.

وقد يكون الجهد المبذول في مجتمع المهجر بعيدا عن الوطن الأم، وهنا لا بد أن يحمل الانسان معه زاداً من الصبر الجميل يهون عليه مشقات الغربة، ويعوضه عن فقدان الأنس بين الأهل والأحباب والوطن.

غاية ما هنالك أن الدين لا يجرد العمل من غاياته، وإنما يربط العمل بمقاصده، ويصلح النوايا المصاحبة لهذا العمل حتى يتجه الجهد المبذول لسمو الغاية برضا الله ثم نفع الناس وترقية الحياة.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (١).

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢).

ومن هنا كانت دعوة القرآن للناس أن يستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم.

---

(١) الإسراء ١٨-١٩

(٢) النجم ٣٩ - ٤٢

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١) .

وطبيعي أنّ هذه ليست دعوة للركض في طلب الضرورات، والبحث عن المرفهات، واللهث وراء رفع مستوى المعيشة، فالناس ليسوا بحاجة إلى من يطلبهم لذلك أو يذكرهم بشيء منه، لأنهم بحكم واجبات الحياة مدفوعون إلى ذلك دفعاً.

إنما الدعوة التي يوجهها القرآن للناس، ويطالبهم بالإستجابة لها، هي دعوة من أجل حياة الضمير وحياة الخلق الرفيع، وحياة السمو وحياة القيم العليا في نفوسهم.

إنها دعوة من أجل الحياة الإيجابية ذات الفاعلية في كل نواحي المجتمع.

إنها حياة المشاركة في الواقع الاجتماعي، والواقع الاقتصادي، والواقع السياسي، والواقع العلمي والأدبي تحت مبدأ المساواة بأخوة الإسلام، وتحت مبدأ الحرية بكرامة الإنسان وولاية المسلم للمسلم بالتآزر والتناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنقية هذا الواقع من المثالب التي فيه، وإضفاء روح الخير والإيمان عليه، وتوظيف ذلك كله في اتجاه يرضي الله تعالى، ويبني الإنسان، وينفع الناس، ويغير في الوقت ذاته وجه الحياة، ومسيرة التاريخ.

حينئذ، وحينئذ فقط - وبدوافع الإيمان لا بغيرها - تستيقظ في النفس مواهبها وتتفجر فيها طاقاتها، ويمارس الإنسان إرادته ويؤدي وظيفته بانسجام تام بينه وبين المجتمع، وبينه وبين الكون والحياة، وتجتمع في ذاته عوامل البناء للدنيا والتعمير للكون بدوافع العمل لله وطلباً لرضاه في الدنيا والآخرة.

وهنا يحدث المزج التام بين الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد وكل شؤون الحياة.

---

(١) الأنفال ٢٤

كما يحدث المزج التام بين ما هو ديني محض وما هو دنيوي محض فيجتمع الاثنان في مبدأ ويتسقان في غاية .

«ولقد شاع بين الناس – خطأ – أن هناك أعمالاً للدنيا وأعمالاً للدين ، وأن أعمال الدنيا لا شأن لها بالثواب والعقاب في الآخرة ، وهذا تصور خاطىء يتعارض مع المنطوق والمفهوم من الكتاب والسنة ، ذلك لأن مجرى الحياة واحد وزمانها واحد»[1] .

والإسلام يتدخل في النية المصاحبة لكل عمل فيتحول تلقائياً إلى عبادة ما دام مصحوباً بحسن القصد ، وشرف الغاية ، ولو كان عملاً من أعمال الحياة البحتة .

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [2] .

مع ملاحظة المزج بين الصلاة والانتشار في الأرض .

غير أن المسلمين في حياتهم المعاصرة غابت عنهم هذه المعاني . وقصروا جهدهم على ميدان الحياة وحدها ، وليتهم أبدعوا فيها أو اخترعوا . بل إنهم أخذوا ما أبدع غيرهم بما فيه من خير أو شر ، ونافع وضار ، وغث وسمين ، دون أن يغربلوا مايتناسب مع حياتهم وبيئتهم ، وغابت عن أذهانهم وعقولهم التفرقة الواضحة بين عالم الأفكار وعالم الأشياء ، وبين الوسائل والغايات ، فعاشوا عالة على غيرهم ، ليس بما يستوردونه منهم وما يجلبونه لبلادهم من أشياء صنعت هناك فقط .

(١) انظر كتاب المحاور الخمسة للقرآن الكريم لمؤلفه العلامة الشيخ محمد الغزالي ، ص١٥٤ بتصرف ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م – دار الصحوة للنشر .

(٢) الجمعة ٩ – ١٠ .

بل جاءوا بهذه الأشياء مصحوبة بأفكار نشأت في بيئة بعيدة عنا وتختلف ظروفها عن ظروفنا، ولذلك حدث الخلل العام في قيم المجتمع، واهتزت فيه ثوابت ما كان يجب أن تهتز، واضطربت فيه موازين كثيرة، واختلط كثير من الباطل الوافد بقليل من الحق المتبقي في نفوس الناس.

ولقد تسبب ذلك في وجود أجيال مغربة فيما تستعمله في حياتها اليومية، وفيما تعتنقه من مبادىء وأفكار.

ونشأ عن ذلك تشوه في حقائق الإيمان داخل نفوسهم، واختلطت اليقينيات بالأساطير والخرافة.

ثم نشأت قيادات بمرور الزمن وتعاقب الأجيال، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

إنها قيادات منهزمة في عقائدها، فلا هم مسلمون في وجهتهم ولا في توجهاتهم، ولا هم أحرار في بلادهم.

وأصبح الإسلام في نفوسهم هوية وليس اتجاهاً. يذكر فقط كبند في الدستور، أو كمصدر من مصادره الكثيرة، ويُحْتَفَى ببعض مظاهره في المناسبات العامة درءاً لتهمة الخروج عليه وذراً للرماد في العيون.

ثم حوصرت تعاليمه في المسجد وأضحت قاصرة على العبادات فقط حتى تخمد أنفاسه بين الجاهلين به والمتنكرين له، وكلاهما وحشة وضياع.

وكانت النتيجة أن جنى المجتمع كله الثمرة المرة من غياب الإسلام، جناها هزيمة شديدة القسوة، أليمة الوقع؛

جناها قهراً واستبداداً واحتلالاً للأرض، واختلالا في الفكر، وشللاً في الإرادة، وانتهاكاً للمقدسات.

وعاش أفراد المجتمع المسلم ما يسمى بمرحلة الاستلاب، وظلت هذه المرحلة جاثمة على صدور المسلمين حقبة من الزمن غير قليلة. فانتقصت أرضهم من أطرافها؛

واستبيحت مقدساتهم، وغاب الفعل الإسلامي المؤثر بغيبة الإسلام عن أهله.

ثم حلت مرحلة التمزق والتشرذم والتبعثر، ومن ثَمَّ جاءت مرحلة التمحور لا حول الذات وما تبقى فيها من أصالة، وإنما حول الغرب وحول الشرق حينا آخر. وترتب على ذلك أن انقسم الولاء في العالم الإسلامي لهذا وذاك؛

وأضحى لدينا من أبناء جلدتنا أمريكيون أكثر تعصباً لأمريكا من أهل البيت الأبيض.

وروسيون أكثر تعصبا لروسيا من أهل الكريملن، وتنحى الولاء للدين جانبا وكذلك الولاء للوطن.

ثم كانت المأساة التي يعاني منها المسلمون في العصر الحديث وما زالوا تحت وطأتها وآثارها حتى هذه الساعة.

ولا يمكن للمجتمع أن ينهض مرة أخرى ويتبوأ مكان القيادة والريادة إلا إذا استيقظ من غفلته التي طالت، وأفاق من غيبوبته التي دامت، وتحامل على جراحه وتجاوز حدود المأساة.

ولن يتم له ذلك إلا من خلال دينه، حيث تتوحد في بوتقته كل الاتجاهات، وتحل من خلاله جميع التناقضات، ويتساوى الجميع في رحابه، وينطلق إلى العمل

لا من خلال ألف قيادة، وألف زعامة، وألف مذهب، وألف تصور.

بل من خلال قيادة واحدة تدين لله بالعبودية، ولمحمد بالرسالة، وولاؤها لله، ومن خلال الولاء لله يتأتى الولاء للوطن وللأرض وللتاريخ باعتبار هذه الأشياء إطارا للعقيدة ومحتوىً لها.

وبهذا وحده يمكن لنا أن نتجاوز حدود المأساة، ونمارس من خلال ديننا مرحلة الإقلاع أو الانطلاق إلى الحضارة الإسلامية من جديد. ونعيد إلى الدنيا تلك الحضارة التي تعلي قدر الإنسان وتستهدف كرامته وأمنه وحريته وتجعل منه سيداً لا عبداً، وقائداً لا مقوداً، وهدفاً يسعى لغاية.

تلك الحضارة التي تنفرد وتتميز بالطابع الرباني الذي يجعل منها سماوية المصدر، ربانية الغاية، إنسانية النزعة، طاهرة الوسائل، سامية الغايات؛

إنها الحضارة التي يتم عن طريقها ومن خلالها التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، والتوافق بين الوسائل والغايات دون أن يحدث انشطار أو خلل في بنية المجتمع النفسية والاقتصادية والاجتماعية.

ذلك لأن الأُطُر والضوابط التي تضعها هذه الحضارة وتفرزها تحدد العلاقة بين الفرد والمجتمع، وبين الحاكم والمحكوم. لا على أساس عبودية وسيادة، وإنما على أساس أنهم فروع في شجرة واحدة، كل له حق، وكل عليه واجب.

وبهذا يصبح الفرد جزءاً من كل لا يكمل الكل إلا به، ولا يستطيع الجزء أن ينفرد بالحياة بعيدا عن الكل.

وبهذا تحل التناقضات الموجودة داخل المجتمع بغير صراع بين الطبقات كما

يقولـون، وبغير إراقة الـدماء، ويشعـر الفرد مـن خلال وجـوده الاجتماعي بـأهميته ودوره، وتذوب في نفســه روح الفرديـة ونزعـة الأنانيـة، حيث يشعـر بأنـه جزء مـن المجتمع يحميه ويحتمي فيـه، وتتولد في نفسه مشاعر الـولاء والحب، والإحساس بأن كل شيء في المجتمع ملك له، إن لم يتملكه ملكية ذاتيـة فهو يتملكه ملكية اعتبارية تعود بخدمة الأشياء إليه وسيادته عليها.

وبغير هـذا المنهـج تظل الصراعـات تنخـر في عظـام المجتمع، تغـذيها الأحقـاد والضغائن والمؤامرات، وترويها دمـاء الأبرياء من الناس، قربانـا للكرسي الذي صنع منه الشيطان وثنا يعبد من دون الله في عالم الحكم والسياسة، وبسببه يغتال الأخ أخاه والابن أباه.

وما إن يستقر نظام حتى يأتي نظام آخر فيحطمه ويثور عليه.

وهكذا دواليـك. لأن شجـرة العلقــم لا تثمـــر إلا علقماً ولو سقيـت بالعســل المصفى.

والنظم التي تصنعها الأحقاد يهدمها الانتقام. ومن يزرع الشوك يجني الجراح.

أما النظم التـي يصنعها الإيمان فيحميها الحب، والعدل، والإحسـان، والأخوة، والمساواة، وكرامة الإنسان.

وبالكيل الذي تكيلون به يكال لكم ويزاد.

اَلْإِنْسانُ .. وَظاهِرَةُ الِانْشِطارِ

في حياة الإنسـان معوقـات كثيرة تحول بينه وبين اتخاذ القـرار الصحيح، وعـوائق شتى تجعله يتردد كثيرا قبل أن ينحاز إلى الحق.

من هذه المعوقات:

الحرص، الجبن، استبقاء وضعية معينة، الخوف على الحياة.

وكثيرا ما يترتب على اتخاذ القرار الصحيح بعض ما يهدد هذه الأشياء وبالتالي.

فهي تشكل مثبطات تضعف من عزيمة الفرد، وتشل إرادته حيال مواقف ما كان يود أن يتردد فيها أبداً، ولا أن يتردى إلى مستواها لو أنه مستقل الإرادة، حر الاختيار، لا يشغله خوف الخلق، أو هم الرزق، أو هما معا.

وساحة الصراع بين الحق والباطل تشاهد كثيرا من المواقف التي تنشطر فيها الذات الإنسانية على نفسها، وذلك حين يكون القلب في جانب والمصالح والمنافع والمغانم في جانب آخر.

حينئـذ يؤثـر الإنسان السـلامة ويتخـذ أحيـانا مـوقف الحيـاد البارد، أو الحيـاد السلبي، ظنا منه أنه بهذا الموقف لم يساند الباطل صراحة وإن لم يعلن أنه مع الحق.

وهذا الموقف لن يبقى طويلا لأن ساحة الصراع لا تحتمل مثل هذه المواقف دائما. ذلك لأن الباطل يستغل نقاط الضعف فيشـد الإنسان إلى جانبه شدا، ويستخدم في ذلك وسائل متعددة، منها القوة، والنفوذ، والإغراء، كما يستخدم السياط والتهديد والوعيد والحديد والنار.

والإنسان كي تتكامل شخصيته لابد أن تتكامل فيه عناصر ثلاثة هي . .

- العقل .
- القلب .
- الإرادة .

فالعقل يصدر عنه الرأي وهو خلاصته .

والقلب تصدر عنه العاطفة وهو مصدرها ، ويعبر عنها إيجابا وسلبا بالحب أو الكره .

والإرادة يصدر عنها الموقف بعد ترجيح إحدى الكفتين على الأخرى في حالة التناقض والتضاد بين العقل أو القلب .

وبغير هذه العناصر الثلاثة لا تتكامل شخصية الفرد ولا يتطور المجتمع .

وقد توجد هذه العناصر ، وقد تنعدم تماما تحت ضغط القهر والطغيان وسحق شخصية الفرد نهائيا .

وفي المجتمعات التي تنعم بالحرية والاختيار الحر تتكامل هذه العناصر الثلاثة في شخصية الفرد ، وتعمل في اتجاه واحد ، مما يدفع بعجلة المجتمع إلى التقدم والنمو .

بينما في المجتمعات التي تعيش الحرية المزيفة ، أو تعيش الديمقراطية ذات العصا الغليظة كما يقولون ، قد توجد هذه العناصر في شخصية الفرد ، وتعمل داخل الكيان الاجتماعي ، ولكنها تعمل بلا توافق ولا انسجام .

وغياب التوافق والانسجام ناشىء بسبب غياب المنظومة الاجتماعية التي يفترض

فيها حماية الوحدات الصغيرة، وضبط المسار العام واحترام الكيان الإنساني، وبالتالي فهناك غياب للإطار العام، أو للسقف الاجتماعي الذي يحمي الفرد من جور أصحاب النفوذ والسلطان الذين يملكون القوة ولا يملكون معها الضمير والخلق.

حيال هذه المواقف يؤثر الإنسان السلامة - كما أشرنا سابقا - فينحاز للباطل وقلبه مع الحق.

عناصر التكامل تعمل إذن، ولكن كل عنصر يعمل في اتجاه يعاكس العنصرين الآخرين ويتضاد ويتناقض معهما في الفعل والنية والحركة.

وعندها تبدو ظاهرة الانشطار في الذات الإنسانية واضحة جلية، فالعاطفة في ميدان الصراع تكون مع الحق بموجب أنه حق.

والعقل يدرك عن طريق البرهان والدليل والحجة أنه الحق، وأنه الأولى بالتأييد والنصرة، والأولى بالولاء والانتماء.

ومع هذه القناعة العقلية وهذا الانفعال العاطفي إلا أن الإرادة تأخذ موقفا آخر متأثرة في ذلك بمجموعة العوائق أو المثبطات - التي أشرنا إليها آنفا - والتي تجعل الإنسان يحجم عن مناصرة الحق والوقوف بجانبه حرصا على مصلحة، أو جبناً عن التحدي، أو عجزا عن مواجهة.

فالمعوقات والمثبطات جراثيم تشل الإرادة وتحول بين الإنسان وبين اتخاذ القرار الصحيح.

وهكذا تتسلل دوائر المثبطات لتشل الإرادة عن اتخاذ القرار الصحيح في مواجهة الباطل ومناصرة الحقيقة في الوقت المناسب.

وإذا تقصينا تلك الدوائر - الجهنمية - التي تتسبب في هذا الموقف المخجل فسنجدها قد اجتمعت وتلخصت كلها في عبارة الحديث الشريف ...... «الوهن» الذي هو . . «حب الدنيا . . . وكراهية الموت» .

في الجانب الآخر يقف الباطل بطغيانه، يصادر في الإنسان كل شيء حتى عواطفه، ويحاول أن يتسلل إليها، يصنف الناس والأشخاص تبعا لاتجاهاتهم، ومواقفهم وعواطفهم، وأفكارهم وأحيانا نواياهم وضمائرهم أيضا .

ومن ثم فهو لا يتركك حرا تمارس إرادتك في الاختيار، وإنما يريدك معه في ساحة الصراع، ومن هنا تنشأ الخطورة ويبدأ التردي .

فقد تكون عواطف الإنسان مع الحق وبالتالي فهي في الاتجاه الصحيح .

لكن الباطل يجذب الإنسان إليه، ويشده إلى جانبه شيئا فشيئا، ومن هنا تحدث الردة في المواقف والانتكاس في الاتجاه .

وقد عبر الفرزدق عن هذه الحالة قديما تعبيرا دقيقا حين سأله الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما عن الناس وموقفهم من الصراع بينه وبين يزيد بن معاوية . .

فقال الفرزدق :

«الناس يا أبا عبدالله قلوبهم معك، وسيوفهم مع بني أمية» .

وهنا يأتي التساؤل المر: لماذا لا تكون القلوب والسيوف في اتجاه واحد؟

والجواب : أن بني أمية يملكون القوة والنفوذ، والإغراء والسياط والوعيد .

- ولذلك وتحت وطأة تلك الضغوط - انشطرت الذات، وحدثت الازدواجية والانفصام، فكانت العاطفة في جانب، والموقف والحركة في جانب آخر.

والعقل يعاني الحيرة والتردد، فهو لا يريد أن يضحي بالمال والحياة، ولكنه في نفس الوقت يعرف أن تكاليف الحق باهظة، وأن تأييده ومناصرته ليست مسألة هينة، ولكنها مكلفة جدا.

خطر الانزلاق النفسي

وأمام هذا التردد يزداد الخطر، ويلمع بريق المصالح أمام النفس، فيثير فيها لعاب المطامع، فتؤثر جانب الباطل، وهنا يحدث الانزلاق النفسي إن لم يتدرب الإنسان ويروض النفس ويوطنها دائما على أن تتحمل تبعات الحق وتكون دائما معه وبجانبه في ساحة الصراع، وإلا فإن موقف الحياد لن يدوم، وسينتقل الإنسان من مكان الحياد ليكون مساندا للباطل، لأن المنطق في طرفي المعادلة لا يقبل التمييع والحياد، فإما حق.. وإما باطل.

القضية إذن واضحة، فأطراف المعادلة حق وباطل، وعلى الإنسان أن يختار.

ولهذا نجد كتاب المنهج الإسلامي «القرآن الكريم» يتناول هذه المعادلة شارحاً لأبعادها المختلفة وتأثيراتها وتداعياتها على مستوى الفرد والمجتمع والأمة، ليحمي بها الكيان العام للشرائح الاجتماعية بمختلف مستوياتها من التميع والتمزق والضياع.

ويدفع عنها جراثيم التثبيط التي تشل الإرادة الإنسانية عن اتخاذ القرار الصحيح، والذي يتمثل بدوره في ضرورة وحتمية الوقوف بجانب الحق منذ اللحظة الأولى مهما كانت التضحيات.

ولذلك فإن القرآن الكريم قد حسم الموقف حتى لا يترك مجالاً للتردد وتمييع المواقف، فقال تعالى:

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١) .

فإما أن يكون الإنسان مع الله . وإما أن يكون مع الشيطان .

فهما موقفان لا ثالث لهما وحزبان لا ثالث لهما .

أمّا موقف التميع أو ما يسمى بالحياد البارد فهو موقف نظري ، لا يلبث أن يتحول سريعا ، وغالبا ما يكون هذا التحول في جانب الباطل وإن بقيت العاطفة الداخلية تميل إلى الحق . لأن المثبطات والمعوقات ذات أثر كبير في التأثير على الإرادة .

والإنسان كثيرا ما يختلق الأعذار لنفسه لتبرير الموقف المائع حتى لا يظل طويلا تحت وطأة التأنيب ووخز الضمير.

ومن هنا تحدث عملية الانفلاق في الذات الإنسانية ، وتنشطر على نفسها .

وهذه ظاهرة بواعثها تلك الجراثيم التي تشل الإرادة كالحرص ، والجبن ، والخوف على المصالح ، وحب الدنيا ، وكراهية الموت ، وما يستتبع ذلك وينشأ منه ، ويتفرع عنه من مذلة ، ومهانة ، وتنازل يبدأ من نقطة ثم ينتهي في نهاية المطاف إلى التنازل عن كل شيء حتى الهوية والدين .

وهذا الموقف قد يصيب الإنسان في رجولته ، وقد ينزلق به ليكون مائع الإرادة ليس في موقف واحد فقط ، بل تصبح هذه الميوعة عادة له في كل موقف .

وربما يتدنى ليصل إلى درك النفاق الاجتماعي أو العقدي ، وتلك مصيبة يخسر معها الإنسان كل شيء حتى نفسه .

وماذا يتبقى للإنسان إن خسر نفسه حتى وإن ربح الدنيا بأسرها . . ؟!

---

(١) يونس ٣٢ .

لذلك كان تصوير القرآن الكريم لحجم الخسارة فادحاً حين تناول نفس الإنسان وهي أغلى ما يملك . . . . .

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ (١) .

وحتى يتلاشى الإنسان هذا الموقف الخطير، لابد أن ينحاز إلى الحق من اللحظة الأولى، وأن يتمسك به، وأن يتعصب له، وأن يدافع عنه، وأن يكافح دونه، وألاَّ يترك إرادته للتردد والتميع في مهب الريح، تميل معها حيث مالت. ومن هنا نفهم نفاسة عبارتين من توجيهات النبي الكريم ﷺ.

الأولى قوله ﷺ: «لا تكونوا إمعة. تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»(٢).

والتوجيه النبوي الشريف هنا يريد من الإنسان أن يكون حرا لا تابعا، مستقل الإرادة مستقل القرار.

أما الثانية . . . . . فهي قوله ﷺ في دعائه «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا». (٣)

ترى هل هناك أبلغ في تحرير الإنسان من هذا الكلام؟

وهل يوجد في البيان العربي ما يحمي ذات الإنسان من الانشطار والتمزق أفضل من هذه الدعوة؟

---

(١) الزمر ١٥

(٢) سنن الترمذي - مشكاة المصابيح ج٢ ص ١٤١٨ تحقيق ناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي.

(٣) سنن الترمذي ج٩ ص١٦٩ ط المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر - استانبول

أَمـانَـةُ الْـكَـلِـمَـةِ

كل قول، وكل فعل له في الزمان والمكان تداعيات وآثار.

وهذه التداعيات والآثار إما أن تكون إيجابية، وإما أن تكون سلبية.

فإذا كانت الكلمة طيبة، أو كان الفعل خَـيِّراً كانت التداعيات والآثار خيرة وإيجابية ونافعة.

وإذا كانت الكلمة خبيثة، أو كان الفعل سيئا، كانت التداعيات والآثارِ خبيثة وسيئة، وربما مدمرة.

وهكذا تتحدد نوعية الآثار والتداعيات وفقا لنوع الكلمة، أو نوع الفعل والسلوك.

وبصرف النظر عن النية المصاحبة لكل كلمة أو لكل فعل، لأن الإنسان أحياناً يلقي الكلمة لا يحسب لها حساباً ثم تكون آثارها أكثر مما كان يتصور، سواء بالخير أو بالشر.

ومن هنا كان تحذير النبي لنا من إطلاق القول على عواهنه، دون أن يسبقه تفكير وتقدير، ودون أن يكون للكلمة الملقاة سندٌ من دليل أو برهان.

قال ﷺ:

«إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها. يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[1].

(١) مختصر صحيح مسلم تحقيق ناصر الألباني ص ٥٥٦ ط المكتب الإسلامي.

هذا الوعيـد المرعب للكلمة حين لا تكون منضبطة بضـوابط الشرع يحتم على المرء العاقل أن يفكر قبل أن ينطق، وأن يتدبر أمره قبل أن يقدم على عمل ما.

وهذا الضبط في القول والفعل يخلق لدى المسلم دقة في المعايير، وحاسة يقيس بها القول والفعل، حتى يخرجان معاً في الصورة المرجوة من حيث المقصد والآثار.

فمن حيث المقصد والغاية. . وجه الله عند المؤمن أولى بالرعاية.

ومن حيث الآثار والتداعيات. . . المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، وحماية منفعـة المجتمع، وصيـانة الحقوق العـامة كلها غـايات يجب أن تبـذل الجهود لتحقيقها.

ثم هي تدخل في حسه وضميره ضمن أنواع التعبد، كما تحسب في دينه من أفضل القربات.

وهكذا، يتم التفاعـل بين وحدات المجتمع بأفراده وشرائحه. فيحـرص الفرد فيه على أن يكون قـوله أو فعله أو سلوكـه إضافة جـديدة لكل خير. وما لم تتحقـق تلك الإضافة، فلا أقـل من أن تكون الكلمة أو الفعل تقليصاً لشر مـوجود، أو دفعاً لشر محتمل.

بين المجتمع الحي والمجتمع الميت

ويرســم لنا القـرآن الكريـم صورة حية للمجتمعـات التي يعـرف الفرد فيهـا ماذا يقول، وماذا يفعل.

ويشرع من القوانين والآداب ما يحمي بنية المجتمع -التحتية والفوقية - من شرور الكلمة حين تنطلق بغير ضوابط، فتدمر بغير حدود.

كما يحميه أيضاً من شذوذ الأفعال والسلوكيات حين تستشري بين لبناته فتقوض البناء وتأتي عليه من القواعد.

ويضع من التوجيهات سياجا عاماً يحمي كيان الفرد والمجتمع والأمة من قالة السوء، والثرثرة الفارغة، التي تأكل الوقت، وتُضَيّع العمر، وتلوك سِيَرَ الآخرين.

وتأمل روعة البيان القرآني وهو يشير إلى بعض تلك التوجيهات. .

﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (١) .

وهنا نجد أنفسنا أمام توجيه امتزجت فيه غايات وأهداف.

فرعاية وجه الله وابتغاء رضاه غاية يتطلع إليها المؤمن، ويعمل من أجلها، ويرجوها من ربه.

وهذه الغاية قد ارتبطت بأهداف هي :

١ - حقوق الضعفاء الاقتصادية ممثلة في الأمر بالصدقة.

٢- حقوق الأفراد الاجتماعية ممثلة في المعروف بين الناس، وهي حقوق يتسع مداها في النص الكريم لأقصى ما يمكن أن يحتاجه المجتمع أو يتطلع إليه بشر من حماية ورعاية وضمان وأمان.

---

(١)النساء ١١٤ .

فكل مروءة، وكل معروف، وكل ما يصلح الناس وَيُرَقّي حياتهم وَيُنَمّي وجودهم يدخل في نطاق تلك الحقوق ليشكل في نهاية الأمر مجموعة من روافد الخير، تمد الأمة بطاقات من الفعل الحضاري غير محدود، كما تساعدها على كسر طوق التخلف والإقلاع من ظلمة الواقع إلى فجر الأمل الأخضر والمستقبل المجيد.

ولما كانت الآثار والتداعيات للقول أو الفعل لا تتوقف عند زمن بعينه، وإنما تمتد فتتعدى حدود الجيل الذي قيلت فيه، وحدود البيئة التي انطلقت منها، فهذا يعني أن هذه الآثار وتلك التداعيات تتجاوز حدود الزمان والمكان وتُلْحِقُ بالفاعل الأول أو القائل الأول نصيبا من الجزاء - ثواباً أو عقاباً - لا بقدر كلمته الأولى أو بقدر فعله الأول فقط، وإنما بقدر ثواب أو عقاب كل من تأثر بكلمته فرددها أو قال مثلها متأثراً بها.

وهكذا مع كل كلمة وكل فعل يتجدد الجزاء، وتحدث إضافات جديدة للفاعل الأول أو للقائل الأول، حتى ولو لم يكن على قيد الحياة.

وهناك أقوال وأفعال توسع دائرة الخير في الإنسان والكون والأشياء.

كما أن هناك أقوالاً وأفعالاً توسع دائرة الشر في الإنسان والكون والأشياء.

ووفق اختيار الإنسان لقوله أو فعله يترتب عليه جزاء القول أو الفعل نفسه، ثم تضاف إليه الآثار والتداعيات التي ترتبت عليه، وتولدت منه، وتفرعت عنه.

وهذا هو معنى قول الله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ (١).

---

(١) يس ١٢.

وما قدمه الإنسان هو ما اكتسبه من قول أو فعل.

أما الآثار فهي ما ترتب على القول والفعل من تداعيات في الزمان والمكان، خيِّرة كانت أو شريرة.

وهذا ما يلفتنا القرآن الكريم إليه وهو يحدثنا عن آثار الكلمة وما تسببه من مصير مشؤوم على أصحابها حين تكون في الاتجاه الخاطيء، فتنكر حقاً، أو تنتقص من قدرته وقيمته. أو تحرض الآخرين على إنكاره والخروج عليه.

قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١).

وهم بهذا القول، أنكروا الحق وجحدوه ......

ثم نسبوه لغير قائله.....

وحاولوا أن يزيفوه.....

وأن يشيعوا في الناس أنه أساطير الأولين.....

فماذا كان رجع الصدى لهذه المقولة الشريرة..... ؟

إنها أوزار تتعاقب عليهم، وتضاف أثقالها على ظهورهم ما بقي للكلمة صدى وللضلال أتباع.

قال تعالى:

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢).

(١) النحل ٢٤. (٢) النحل ٢٥.

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (١) .

الكلمة الشريرة إذاً لن تكون حبيسة البيئة التي انطلقت منها . ولن تكون أسيرة الجيل الذي قيلت فيه .

وإنما تتجاوز تلك الحدود زماناً ومكاناً ، فتُعْدِيَ بالمبادىء التي تحملها بيئات أخرى ، كما تنضح من خيرها أو شرها على نفسية وعقل من يتلقاها ، فتشكل فكره ووجدانه وفق ما تحتويه من حق أو باطل ، من هدىً أو من ضلال .

ولما كانت الكلمة لا تفنى ، وإنما تحمل في الأثير ، وتصعد إلى ما شاء الله لها أن تصعد إن كانت طيبة ، أو تهبط ما شاء الله لها أن تهبط إن كانت خبيثة ، ثم هي تسجل على صاحبها في التو واللحظة .

ولما كان الأمر كذلك فإن القرآن ينبه الإنسان إلى أن القول أمانة ، وأنه يحسب لك أو عليك ، بالخصم - طرحا من رصيدك - إن كان يحمل زورا وبهتاناً ، أو بالإضافة - جمعا وزيادةً في رصيدك - إن كان يحمل حقاً وتبياناً .

قال تعالى :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٢) .

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٣) .

﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (٤) .

﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) العنكبوت ١٣
(٢) الحج ٣٠
(٣) ق ١٨
(٤) الزخرف ٧٩ - ٨٠
(٥) الجاثية ٢٩

ولقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً لامتداد الكلمة أو الفعل في عمق الزمان وعمق المكان فقال ﷺ :

«من سنّ سنّة حسنة عمل بها بعده، كان له أجره، ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

ومن سنّ سنّة سيئة، فعمل بها بعده، كان عليه وزرها، ومثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

فهل يعرف السادة الكتاب والأدباء والشعراء والمفكرون والفنانون أن القول أمانة !

وأن آليات الإدراك والتفكير من سمع وبصر وفؤاد مسؤولية كبرى.

وأن صياغة وتوجيه الرأي العام مردودها ينعكس بالإيجاب أو السلب على الفرد والمجتمع والأمة ؟

وأن الكلمة قبل أن تطلق، يجب أن تستند على الدليل والبرهان ؟

وهل نحمي أجيالنا من الضياع بالكلمة الطيبة والفعل الرشيد ؟

وهل نحصن حاضرنا ومستقبلنا ضد (الأيدز الفكري) المملوء بالبهتان والزور ؟

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [2].

فهل نتحرى قبل أن نوجه الاتهام؟ وهل نفكر قبل النطق بالقول؟

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته ص ٣٠٤، المجلد ٣، ج٥، تحقيق ناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي.
(٢) الإسراء ٣٦.

بَيْنَ الْفِكْرَةِ .. والأَتْبَاعِ

في صراع التدافع الحضاري بين الحق والباطل كثيرا ما تظلم المبادىء والأفكار الصحيحة من خلال أتباعها وأعدائها معاً، فهي مرة تعاني ظلم الأعداء إما لجهل وإما لإنكار وجحود.

وطبيعي جداً أن يكون الناس أعداءَ ما جهلوا، وربما كان السبب المباشر في هذا الجهل أن أتباع الفكرة أو المبدأ لم يشرحوه بطريقة جيدة، وبالتالي فإن الآخرين لم يتعرفوا عليه بالشكل الصحيح.

وقد يكون الباعث على ظلم الفكرة ليس الجهل بها أو سوء الفهم لها، إنما هو الإنكار والجحود.

ربما لأن المنكر الجاحد قد يتصور في المبدأ أو الفكرة الجديدة خطرا يهدد مصالحه ويقوض وضعه، وينقله من مكان الصدارة ومركز القرار إلى مؤخرة الصفوف.

ولذلك فهو يحسب - خطأ - أن انتشار الفكرة أو انتصار المبدأ يعني بالضرورة زوال نفوذه، وإزالة دوره، وإلغاء سيادته ومكانته بين قومه والمحيطين به.

ومن هنا يبدأ العداء برغم وجاهة المبدأ، ووضوح الفكرة ورجاحة الأدلة عليهما معاً.

وهذا نوع من ظلم الإنسان للحقائق الكبرى بمعاداتها وإنكارها، ومحاولة حصارها، ومصادرة حرية أتباعها في الدعوة إليها والترويج لها.

والتاريخ برواياته وآدابه يحدثنا عن هذا الموقف منذ بزوغ فجره ومنذ كان الصراع والتدافع بين الحق والباطل.

فالباطـل بصلفه وغروره يريد أن ينفـرد بالناس بغير منافس، ويـأبى إلا أن تفرغ العقول والضمائر إلا منه .

وفي سبيل ذلـك يفرض نفسـه بالحديـد والنار، ويصـادر كل وجهـة نظر تخالفـه الـرأي، أو تقدح في صحتـه وصلاحيتـه، فـالقيود والأغـلال، والإبعاد والطـرد، في انتظار كل من يخرج على منطق القطيع أو يحاول التفكير والمناقشة والحوار الحر .

ذلك لأن الحرية تكشفه، والمناقشة تعـريه، والحوار الحر يفقده سطوته ويجرده من ادّعائه العريض، ويفضُّ الناس عنه، ولذلك فلا خيار للإنسان أمام الباطل وأهله، فإمـا أن ينحاز لباطلهم، وإمـا أن يخرج مطروداً معذباً تلحـق به التهم وتشاع حـوله الإشاعات والأكاذيب .

وهذا الموقـف طبيعة في الباطـل وأهله، وهو يمثـل جزءاً مـن كيانه العـام أو هو نسيج من تكوينه يمارسه دائما ضد خصومه والمخالفين له في كل بيئة وفي كل زمان .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

لكن سنـن الله في كونه لا تجري وفق مـراد الناس منها، وإنما تجري بـإرادة الله وفق موازين العدالة والحساب .

وبالتـالي فموقـف العداء من المبـادىء والحقائق، وموقـف الإنكار والجحـود من دعوات الخير والعدل والحق لا يجلب لأصحابه إلا الهلاك السريع وسوء المصير.

---

(١) سورة ابراهيم (١٣) .

ذلك لأنه من ناحية، مجافاة صريحة لما في المبادىء والحقائق من خيرات تُرَقِّي الوجود، وترفع قدر الإنسان وتضفي على الدنيا صبغة الله التي تعيد إليها رشدها وحرارة الحياة.

ومن ناحية ثانية يمثل هذا الموقف ظلماً من الإنسان لنفسه ولغيره في آن معاً.

فهو يظلم نفسه مرة حين يحرمها من معرفة الحق واتباع هداه.

وهو يظلم نفسه مرة أخرى حين يعرضها بهذا الحرمان وهذا الجحود لمقت الله وانتقام السماء.

ثم هو يظلم غيره حين يصادر حق الغير في الإرادة الحرة والاختيار الطليق. لأنه يمنع الآخرين من اختيار الهدف، ويحول بينهم وبين ما يقتنعون به من مبادىء وأفكار.

إنه يريدهم نسخة مكررة منه. لا يرون إلا ما يراه، ولا يسمعون إلا بأُذُنه، ولا يفكرون إلا بعقله هو، وذلك هو منطق الفراعنة في العصور الأولى، تـوارثته الأجيال حتى وصل لفراعنة وطغاة القرن العشرين.

وهكذا تتسلسل حلقات الطغيان لتربط بين الماضي البعيد والحاضر الملموس.

فرعون القرون السالفة قال للناس حين فكروا وتدبروا، وتعقلوا واختاروا الإيمان غاية ومقصداً، واقتنعوا بصدق موسى ودعواه:

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ (١).

---

(١) سورة طه ٧١.

لكنهم آثروا ما لديهم من عقائد ومبادىء وقرروا - بعد أن تحررت إرادتهم - أن يضحوا من أجلها بكل شيء، وأن يبذلوا في سبيلها الحياة كلها.

وألا يتخلوا أبدا عما جاءهم من البينات والهدى، وكان جوابهم أن قالوا له

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١).

هذا نموذج من الظلم الذي مورس ضد المبادىء والأفكار، كما مورس ضد العقائد والمؤمنين بها.

وهو ظلم يقع أحياناً من الجهلاء، كما يقع أيضاً من الأعداء الجاحدين.

وبقدر ما تحتوي المبادىء والأفكار، من عناصر الصحة والسلامة، وبقدر ما يكون فيها من خير ينفع الناس ويمكث في الأرض بقدر ما تبقى وتخلد، وإن انهزم الأتباع وتخلفوا عنها.

وقانون الاستبدال هنا يحكم حركة الأتباع ويفصل فيها، وهو قانون يستوعب حركة الصراع زمناً ومكانا، قال تعالى:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣).

---

(١) سورة طه ٧٢، ٧٣.
(٢) محمد ٣٨.
(٣) المائدة ٥٤.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١).

فلا محاباة ولا مجاملة وإنما هي سنة الله العادلة في توجيه حركة الصراع بين المحقين والمبطلين.

غياب القدوة وظلم المبدأ

لكن ظلم المبادىء والأفكار لا يقتصر على الجهلاء الغافلين، أو الأعداء والجاحدين فقط.

وإنما يقع أحيانا من الأتباع حين لا تنضبط سلوكياتهم بضوابط الفكرة التي ينتمون إليها، ويدعون لها، ويبشرون بها.

والناس لا يفرقون دائما بين الفكرة والمبدأ، وبين من ينتسبون إليهما، ومن هنا تأتي الإساءة إلى المبادىء والأفكار، حيث تُحَمَّل أخطاء الأتباع على الفكرة ذاتها، كما تُجَسَّد تجاوزات الأتباع لتحمل أيضاً على المبدأ ذاته.

يحدث هذا للأفكار والمبادىء الإنسانية، كما يحدث أيضاً في التعامل مع منهج السماء حين يعرض على الآخرين فينظرون إليه من خلال سلوك أتباعه.

وكأن حياتهم مرآة تعكس صحة وسلامة مبادىء دينهم، أو تعكس حالة الوهن، والتخلف، والضياع، والبعثرة النفسية، والفوضى الاجتماعية، وهوان الإنسان، فتكون تلك الآفات كأنها وليدة الإسلام، وكأنه هو الذي بذر بذورها وغرس أشجارها بما فيها من مرارة ومذلة وغياب عن الواقع، وفقدان التأثير في

---

(١) فاطر ١٥-١٧.

الحاضر، رغم وجود القـدرات والمؤثرات والطاقات التي تبعث على الفعل الحضاري وتمكـن الأمة مـن عملية الإقـلاع إلى آفاق مستقبليـة مشرقة إذا أحسـن استخدامهـا وتوظيفها وتفجير ما فيها من إمكانات .

وهذا في الحقيقـة ما يضـاعف من مسـؤولية الأتباع في المحـافظة على فكـرتهم من التشويـش والتشويه، وذلـك لا يتم أصلاً إلا بحماية أنفسهـم من ظاهـرة الانشطار النفسي .

تلك الظاهرة التي تجعل القول في جانب والفعل في جانب آخر، وتجعل الفكرة في ناحية والتطبيق في ناحية أخرى .

ومن هنا فقد حدثت الازدواجية بين الإنسان وذاته، وحملت - خطأ - على المنهج والفكرة. علما بأن القرآن الكريم كتاب المنهـج وكتاب الوجود والخلود قد نبه المؤمنين به إلى خطـر تلك الظـاهرة، كما حذرهـم من الـوقوع في شرك هـذه الازدواجية، مهما كانت العقبات، ومهما كان الإنسان يسبح ضد التيار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (١) .

بهذا الوضوح كان التوجيه، وبهذه الصرامة كـان الوصف لحالة الخلل التي تحدث أحيانـاً، فتفصل بين الفكرة والسلـوك .
لكن أتباع المنهج في التحليل النهائي ليسوا ملائكة، إنهم ناس مـن النـاس، بما في الناس من ضعف وخلـل، وما تتعرض له نفوسهم مـن علل وأمراض، وما يعتريهم من غـرائز وشهوات، ومـن هنا وجـب التفريـق بين الفكرة والأتبـاع في مجال الممارسة السلوكية والتطبيق العملي .

(١) الصف ٢، ٣ .

فالأتباع قد يتخلفون عن الركب الحضاري، لكن ذلك ليس دليلاً على تخلف المنهج أو تخلف الفكرة.

قد يعيشون عالة على غيرهم ربما.. لكن هذا أيضاً ليس دليلاً على أن بواعث التخلف في المنهج نفسه.

قد ينهزمون أمام خصومهم وهذا وارد. ربما لأن الفكرة ليست واضحة في أذهانهم كما ينبغي، وربما لأن التطبيق خاطيء، أو لأنهم لم يستجمعوا المؤهلات النفسية والتربوية المطلوبة ليكونوا بها على مستوى الفكرة والمنهج من حيث الانتماء والولاء والاستعداد للتضحية.

وليس هناك ما يمنع أن تعترض مسيرة التاريخ لحظات انكسار، وهذه تحدث عادة في كل حضارة، حيث تبدأ الخطوط البيانية في الهبوط والتدني عندما يحدث خلل في التعامل مع الفكرة والمنهج بشكل سلبي، كل هذا وارد، لكن المهم ألا تنهزم الفكرة في نفوس أصحابها، وألا ينهزم المنهج في نفوس أتباعه.

فهزيمة الأتباع لا تعني بالضرورة زوال الفكرة أو المنهج.

بل ربما تكون الهزيمة دافعا إلى معرفة وجه القصور، ونقاط الضعف، والتعرف على مناطق الخلل، وهل هي في الوعي بالفكرة ذاتها، أو في التطبيق لها، أو في الحركة الدافعة نحوها، أو في الاتجاه المضاد، أو في الجهل بآليات الصراع وأساليبه، المهم ألا تنهزم الفكرة أمام الفكرة المضادة.

أتباع أمام أتباع، هؤلاء تحكمهم حركة الصراع بقوانينها وقواعدها؛

فالباطل عندما يسانده التخطيط والنظام والدقة والعمل الجاد ويستكمل كل مقومات النجاح وأسبابه فإنه لا بد أن ينجح ولو مؤقتاً.

وعندما تكون الفوضى في جانب الحق، ويعيش أهله حالة الخمول والدعة والتسيب، وتنتشر بينهم النيّات المدخولة، فإنه لا بد أن يتراجع، وحركة الصراع بقوانينها وقواعدها تكون صارمة حازمة حاسمة في تعاملها، ولا تخضع أبداً إلا لمدى الولاء والانتماء والاستعداد للبذل، والتضحية، واستكمال أسباب النجاح والانتصار من كل فريق.

وعلى قدر وضوح الفكرة في أذهان الأتباع، ومعايشتها، ومعانقتها، تتحدد الحركة إن كانت في الاتجاه الصحيح أم لا.

قد تكون هناك مؤثرات تؤثر سلباً على حركة الوعي بالفكرة خصوصا لدى الجماهير الغفيرة التي تفتقر إلى المصادر الصحيحة للمعلومات وتستقي معرفتها من مصادر مُسَيَّسَة أو مُوَجَّهة تقوم بعمليات التشويش والتشويه وغسيل الأدمغة حتى تتم عملية إبعاد الأجيال الجديدة عن الفكرة والمنهج، وتفريغ محتواهم التربوي من قيمه، وإفراغهم في قوالب معينة مقصودة سلفا ومحددة، وهذا ما يعرف لدى خبراء الكذب والتضليل بـ(تجفيف المنابع).

وهذا المصطلح وإن كان حديثا - في استعماله اللغوي، إلا أن له نظيراً لدى فراعنة القرون الأولى وكأنهم تواصوا به ونقلوه من جيل إلى جيل.

وقد استطاع فرعون في صراعه مع نبي الله موسى عليه السلام أن يعبيء الجماهير، وأن يحشد الرأي العام ضد موسى وأتباعه، وسلك المسلك نفسه في تجفيف المنابع مع اختلاف بسيط في أسلوب التنفيذ وهو أنه بغباء شديد أمر بقتل الأبناء واستحياء النساء بعد أن ملأ الدنيا ضجيجاً بإعلامه وأبواقه وادعى ظلماً وزورا بأن موسى يشكل خطراً على الناس لأنه يريد أن يبدل دينهم، وأن يظهر في الأرض الفساد؛

واستطاعت الدعاية الموجهة والإعلام المُسَيَّس أن يشيع الكثير من الأقاويل والاتهامات حول موسى والأتباع، والفكرة.

ووقفت الجماهير موقف المتفرج من هذا الصراع، ولو أن كل واحد من الناس التقط حجراً ورمى به فرعون وأتباعه لتغيرت الدنيا وتغير وجه التاريخ؛

لكن هكذا تفعل الشعوب الميتة، تهتف بحياة جلاديها، وتقدم لحكامها الطاعة، ثم تأخذ في مقابلها الهوان.

فماذا كانت النتيجة ؟ لقد حلت بفرعون لعنات الله وأدركه الغرق ومن معه، وتطهرت الأرض من دنسه ورجسه وطغيانه، ونصر الله موسى، وشق له البحر، وفاز أتباعه بتأييد الله ورعاية السماء كما هي العادة دائماً في سنّة الله بعد التمحيص والابتلاء، والبذل والعطاء:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (١).

فهل يعي الأتباع درس االصراع ؟

وهل يعتبر الأعداء بسنّة الله في الذين خلوا من قبل ؟

إن التاريخ يعيد نفسه، وسنّة الله باقية، تعمل عملها في كل الزمان وكل المكان كلما اقتضت الظروف وتوفرت الأسباب:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) صدق الله العظيم.

فهل نفكر ونعتبر ؟

---

(١) غافر ٥١، ٥٢.　　(٢) سورة يونس ١٣، ١٤.

اَلـتَّـلَـوُّثُ الْـخُـلُـقِيُّ .. وَتَـلَـوُّثُ الْـبِـيـئَـةِ

دراســــــــة وتحليـــــــل

حينما تذكر كلمة البيئة يتبادر إلى الذهـن فوراً عمليات التلوث التي أحاطت بهذه البيئة، وتستـدعي الـذاكرة على عجل ثقـب الأوزون، والنفايـات النوويـة، وعوادم المصانـع والسيارات، وغير ذلـك من شتى الغـازات التي تؤثـر سلباً على نقـاء البيئة وصفائها، وتعمل على تلوثها، وتهدد الحياة والكائنات فيها.

وقد اشتد الحديث وتعالت الأصوات منذرة بالكارثة عندما انفجرت آبار النفط في حرب الخليـــج، وعـرضت أجهـزة الإعلام والـدعايـة بعض آثـار الضرر الذي لحق بالبيئة نتيجة تفجير آبار النفط في الكويت.

وبغير شك أن هـذا التلوث خطير النتائج باهـظ التكاليف، لكن البيئـة في العالم الثالث عموماً، والعالم العربي والإسلامي خصوصا ليست مهددة فقط بهذا النوع من التلوث.

لقد بدأ التلوث فيها منذ فترة طويلة، ولم يـرتبط هذا التلوث بانفجار آبار النفط، ولا بدفن النفايات النووية في بحار العرب أو صحرائهم؛

بل ربما كان التلـوث المادي الذي نرى مظاهره فيما حدث بين العـراق وإيران من جهة، والعـراق والكويـت من جهة ثـانية، واليمن واليمـن، أقول : ربما كـان هذا التلوث نتيجة لتلوث من نوع آخر، أصاب البيئـة العربية والإسلامية منذ فترة ولم يتنبه إليه أحد، أو انتبه البعض إليه لكن أحدا لم يقاومه، ولم يحذر منه، ولم يَدْعُ الناس إلى معالجته ومكافحته.

لقد بدأ هذا التلوث عندما تلوثت الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

فتلوث البيئة في العالم العربي والإسلامي بدأ سياسياً عندما شاع القهر والاستبداد والانفراد بالسلطة من ناحية طبقة الحكام.

واستمر هـذا التلوث في الشيوع والانتشار عندما صاحب هذا الاستبداد ظهور بعض المنتفعين، وتعاونهم مع الطغاة، والسكوت على ظلمهم، بل و إطراؤهم وكَيْلُ المديح لهم والثناء عليهم آناء الليل وأطراف النهار.

فالحاكم في الغرب هـو الذي يتملق شعبه، ويكون موضعا للنقد والتجريح، بل للمؤاخذة والعزل إذا أخطأ.

أما الحاكم عند العرب فهو وحده صاحب الحس الوطني الصادق؛

وهو وحده الحريص على مصلحة الأمّة؛

وهو وحده الوطني الوحيد؛

والمفكر الوحيد؛

والسياسي الوحيد.

- وهو وحده صاحب البصيرة النافذة.

- والعليم بكل شيء، والخبير في كل شيء.

- توجيهاته حكيمة، وسديدة ومسددة.

- أحلامه أوامر، وأوامره مقدسة.

هو الغاية والأمل، والحاضر والمستقبل، والرمز والقضية.

وباختصـار شديـد يختزل الـوطن كلـه في فرد واحـد، ولهذا فطرقـه دائماً معبدة، ومفروشة بالورود، فلا مشاكل ولا منغصات، ومن هنا بدأ تلوث البيئة سياسياً.

وبدأ اقتصادياً عندما شـاع الربا، والاستغلال، والاحتكار، والاحتيال، وانتشرت السرقـات واللصوصيـة الشللية (أي اللصـوصيـة الجماعية) التـي تأتي إلى الحكـم - جائعة . . . خائفة - فتملأ جيوبها وتملأ سجونها.

وبـدأ التلوث اجتماعيـاً عندمـا فسدت النخبـة المثقفة وانحلـت عرى الأخـلاق، وفقدت الأسرة والبيت دورهما في التوجيه والإشراف.

كما فقدت مـؤسسات التربيـة، والإعلام، والتعليـم، ووسائل صيـاغة الإنسـان دورها في إعداد الفرد السوي وإيجاد رأي عام واع.

بـل إن هذه الـوسائل تحولـت في ظل القهـر إلى أبواق للهتـاف بحياة الجلاديـن، تعبيء الجماهير معهـم، وتصدر المسيرات تأييداً لهم. وتبـايعهم بالروح والـدم مدى الحياة، بل وما بعد الحياة لو تملك ذلك!!

وتعلن البيانات تلو البيانات إدانـة وشجبا لكل من يخرج على أخلاق القطيع، أو يرفض أن يساق كالبعير التائه.

هذا هو التلوث الحقيقي، وتلك جذوره ضاربة في عمق حياتنا. فلنحاول في هذه الدراسة أن نتنـاول الموضوع بشكل علمي بحيث نـرصد الظاهرة، ونحـدد الدوافع، ونصف العلاج، لا من خلال العناصر الخارجة عن الموضوع، وإنما من خلال علاقة الإنسان بالبيئة بـاعتباره المرتكز الأساسي في كل تقدم، كما أنـه المستهدف دائما في كل حوار.

فبالإنسان أولاً تتطهر البيئة وتصلح الحياة .

وبالإنسان أولاً يتقدم المجتمع وترتفع لبناته .

وبالإنسان أولاً وآخراً يُشَيَّدُ البناء وتؤسس الحضارات .

وبغير الحوار معه لن تصحح الأفكار الخاطئة ، وبالتالي فلن تتم أبداً عمليات التحول والتغيير .

فعلى أي أساس تتحدد علاقة الإنسان بالبيئة ؟

وكيف يستطيع هذا الإنسان أن يؤدي الدور الرائد في دفع عمليات التنمية والتحول ؟

وما هي الدوافع التي تفجر الطاقات الإبداعية الخلاقة في هذا الإنسان ؟

ثُمَّ ما هي الأطر التي تحكم حركته وتدفعه نحو الفعل الحضاري وتتحكم فيه ؟

وهل تكون سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية فقط ؟

وإذا كانت كذلك فكيف نحركها ، وكيف نتحكم فعليا في أدائها العام ، وفي دفعها إلى الأمام ؟

أم أنها دوافع روحية ونفسية وأخلاقية تنبع من المنهج الذي يعتنقه الإنسان ، ثم تنطبع على ممارساته وأنشطته كلها سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية ؟

تلك تساؤلات نحاول الإجابة عليها من خلال هذا الموضوع .

ومن المعروف بداهة أن العين لا ترى وحدها وإنما لا بد من وسط يعين على الإبصار.

كذلك الإنسان . . . . لا يستطيع أن يقوم بكل شيء وحده، وإنما لا بد أن يعينه مَنْ هم حوله، وأن يتعاونوا معه في أداء المطلوب.

ومن هنا تأتي أهمية البيئة الصالحة في إعانة الفرد على أداء التكاليف.

ولا شك أن صلاح البيئة والجماعة المحيطة بالفرد له دور كبير في رعاية الحقوق، وصيانة الفضائل والقيم، حيث يُحْدِثُ هذا الصلاح انسجاما واتساقا وتفاعلا بين الفرد والمجتمع، فيحمي نفسيات الأفراد من التمزق، كما يحمي العقول والأفكار والسلوك من التناقض والنشاز.

وتصبح ذمة المجتمع واحدة فلا تختلف في :

البيت والمدرسة؛

والسوق والمصنع؛

والمزرعة والشارع؛

والمعهد والمسجد .

وبالتالي تتوحد المعايير، وتنضبط الأمور بضوابط الشريعة التي لا اختلاف عليها، فيتولد عن هذا كله - في حس الفرد والمجتمع - وحدة في التصور نحو عدد من القيم الإيجابية، ونقيضها من القيم السلبية كالصواب والخطأ. مثلا :

الهدى والضلال؛

والصدق والكذب؛

والعدل والظلم؛

والحرية والاستبداد ؛

والاستقامة والانحراف . . وهكذا .

فلا يكون الفعل الواحد أو الحدث الواحد له ألف وجه :

يراه هـذا من ناحية ، ويـراه الثاني من النـاحية الأخرى، ثـم يراه ثالث ورابـع كل حسب رغبته ومصلحته وهواه، دون اعتبار للحقيقة في ذاتها .

وإذا حدث هـذا وتعددت المعـايير وغابـت وحدة التصـور نحو هـذه القيم فـإن المجتمع يصاب بمرض تمييع القيم، وتتعرض الأصـول الثابتة فيه لعمليات اهتزاز لا أول لها ولا آخر، ولا يعرف مداها وخطورتها إلا الله .

وهنالـك تختلط الأشياء، وتلتبـس الأمور، كما تحجـب رؤية الحقيقة وسـط النقع المثار.

من أجـل ذلك وتـلاشيا لهذه التداعيـات الخطيرة - على الفرد والمجتمـع والكيان العام للأمة - اهتم الإسلام ببناء الفرد من الناحيتين النفسية والعقلية اهتماما بالغا .

وبين لـه من اللحظـة الأولى أنه لـن يكون سَـوِيَّ النفـس، ناضـج العقل، حـر الإرادة، سيدا في بيئته إلا في إطار منهج الله .

وعلمه أن الحرية المطلقة لا تنبع إلا من عبودية صحيحة لله رب العالمين .

فأحرار النفوس من الشهوات، هم أحرار الرءوس في المجتمعات حتى وإن خلت أيديهم من كل شيء .

قال رسول الله ﷺ :

«اتق المحارم تكن أعبد الناس .

وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا .

وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما »(١).

وعبيد شهواتهم هم عبيد الناس . . . وإن امتلأت جيوبهم بالمال وملكت أيديهم كل شيء .

قال تعالى :

﴿ فلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (٤)

المسلم سيد البيئة وقدر الله الغالب

ومن هذا المنطلق - لا من غيره - وجب أن يكون المسلم سيداً في بيئته ، فلا يجوز أن تحكمه أُطُرُهَا ، خاصة إذا تناقضت المفاهيم السائدة في تلك البيئة مع مبادىء الإسلام وتقاليده وأحكامه .

لذلك رأينا القرآن الكريم يشن حملة شديدة البأس على عبيد البيئة ، الذين

(١) صحيح الجامع الصغير ج١ ص٨٧ تحقيق ناصر الألباني ط المكتب الاسلامي .
(٢) التوبة ٥٥ . (٣) الحجر ٣ .
(٤) محمد ١٢ .

يعيشون تحت مظلة التقاليد الفاسدة دون أن يُعْمِلُوا فيها عقولهم، ويُخْضِعُوا ما يسود فيها من أعراف جائرة لأحكام العقل والمنطق والفطرة السليمة، فيسمحون ببقاء ما ينفع وما يصح، ويرفضون ما لا يصح وما لا يجوز.

فليس كل موروث عن الآباء صحيحا، وليس اتباعهم واجبا في كل حال.

فقد يفتقدون الهداية والعلم، وعندئذ لا بد من النظر فيما خَلَّفُوه للأبناء، فإن كان صحيحا بمقياس الشرع قبلناه، وإن كان فاسدا رددناه.

إذاً فلا بد من عملية الفرز والانتقاء بمقياس العقل والدين معاً، فكلاهما يتلازمان ولا يختلفان وإلاَّ تطابق الوصف وحق العقاب.

قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (١).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢).

وهذا الاتباع والخضوع بغير عقل، يكون أحياناً دلالة ترف مفسد يتمسك به صاحبه، ويريد أن يبقى فيه، مما يدفعه أن يأخذ موقفا يجافي الحقيقة، ويرفض ما يقدم إليه، أو ما يعرض عليه وإن كان حقا.. ومن ثَمَّ يحرم نفسه، ويحرم التابعين له والمحيطين به من فرص التبصير والهداية والرشاد.

قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ

(١) البقرة ١٧٠. (٢) المائدة ١٠٤.

عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١) .

إذاً فالإنسان له موقف تجاه البيئة الفاسدة، وهو مطالب ألا يكون إمَّعة، يمشي مع التيار أو يجري مع الركب دون وعي وتمييز.

بل عليه أن يتصرف وفق ما يمليه شرع الله في كل موقف، وبالتالي فهو يدور مع الحق حيث دار.

ورسول الله ﷺ قد بين أن المسلم يجب أن يكون أصيلاً لا تابعاً. واثقاً من نفسه، مستقل الإرادة مستقل القرار، له موازينه الواضحة التي يزن بها الأمور، فيتحرر بذلك من قيود التبعية للعادات الخاطئة والعرف الفاسد، التي كثيرا ما تبلِّد الحس، وتفسد النفس، وتلوث الفطرة، وتُـعَـوِّد الإنسان على معايشة الخطأ بعد أن يكون قد فقد حساسية التمييز بين الأشياء.

عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«لا تكونوا إمعة . تقولون إن أحسن الناس أحسناً . وإن ظلموا ظلمنا . . ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا . وإن أساءوا فلا تظلموا»(٢).

لكل هذه الأسباب كان من الضروري أن تستجيب البيئة المحيطة وتتوافق مع نوعين من المتطلبات :

١ - متطلبات التوحيد.
٢ - متطلبات الشريعة.

---

(١) الزخرف ٢٣-٢٥ .
(٢) سنن الترمذي شرح ابن العربي حـ٨ ص١٦٩ ، ص١٧٠ دار الكتاب العربي .

متطلبات التوحيد ومقتضياته كعقيدة يقوم عليها بناء شخصية الفرد المسلم والمجتمع المسلم؛

وهذا يفرض على الأمة ألا تسمح بوجود ممارسات وسلوكيات تناقض تلك العقيدة في داخل المجتمع.

كما لا يجوز أن يتسلل من الخارج ما يؤثر بالسلب على تلك العقيدة، أو يختلف من أساسه مع مبادئها وقيمها.

وإذا حدث وتسلل شيء على سبيل الخطأ - غفلة ونسيانا - فلا يجوز أن يمتد أو يستمر، ولا بد من التفريق هنا بين حرية الرأي والتفكير وبين الفوضى والعبث بقيم المجتمع وثوابته باسم الثقافة والفن، والحداثة، والإبداع.

وأما متطلبات الشريعة فلأنها نظام وقانون يجب أن يطبق، وأن يراعى، وأن يعيش المجتمع في ظله وتحت ردائه؛

ولكي تحدث هذه الاستجابة وهذا التوافق جاءت صيغة الأمر الإلهي في الوحي المعصوم جماعية تطالب الناس فرداً ومجتمعاً ودولة بأن يتجمعوا حول منهج الله ولا يتفرقوا.

قال تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١).

(١) آل عمران ١٠٣.

ثم يقول بعد هذا النص مباشرة :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

ويلاحظ في النصين الكريمين :

١ - اعتبارات يجب أن يستوعبها العقل المسلم .

٢ - حقائق يجب أن يراعيها المجتمع المسلم .

٣ - أصول يجب أن تطبقها الأمة المسلمة، وأن تكون أساساً لعلاقتها مع الأمم الأخرى .

وأول هذه الاعتبارات هي :

١ - أن يكون الاعتصام بحبل الله .

وحبل الله هنا هو منهج الله الذي ارتضاه لعباده، فلا يجوز لهم أن يتمسكوا أو يتمحكوا (٢) بأي حبل آخر .

ذلك أن الحبال كلها، والمناهج كلها، والطروحات كلها باستثناء ما جاء به الوحي المعصوم حبال بالية، ومناهج فاسدة، وطروحات تحمل بالضرورة طابع الأرض، وفيها من احتمالات الخطأ أضعاف ما فيها من احتمال الصواب .

فكلها حبال بالية، حاكها الشيطان ليضل بهاالناس ويفسد بها حياتهم، وهي في حقيقتها - رغم البريق والوهج - سراب خادع أوْهَى من خيوط العنكبوت . لا

---

(١) آل عمران ١٠٤ .

(٢) تمحكوا أي لجوا في المنازعة وتجادلوا ، انظر المعجم الوسيط جـ٢ ص٨٥٦ دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان - الطبعة الثانية .

تحمي من الهجير، ولا تقي برداً، ولا تمنح الدنيا سـلاماً أو طمأنينة وحبا، وقد جربها العالم وعاشـت بعض المجتمعات تحت وطأتها ردحـا من الزمن فما جنـت إلا الضياع والخسران والندم.

أزمة الأيديولوجيات وضياع الشعوب

لقد جُرِّبت الرأسمالية. وتمسكت بعض المجتمعات بحبالها. فما ذاقت من ثمرها غير المرار، والعلقـم، وانتشار البطـالة والجريمـة، والاستغـلال والجشع، وتخريـب الذمم، وتقسيم المجتمع إلى سادة: هم أصحاب رأس المال الذين يتحكمون في كل شيء، وإلى عبيد لا يملكون شيئا، وعليهم أن يتحركوا أو يسكنوا بأمر سادتهم، وأن يظلوا دائما تحت الطلب ورهن الإشارة.

وكانت النتيجـة أن أصيب المجتمع بصراعات تهد أركانـه وتقطع أواصره، وتشيع الرعب والفزع في كـل مكان. ورخصت الأعراض، وأبيحت الفواحـش ما ظهر منها وما بطن، وَهَـبَّتْ على الدنيا رياح الخماسين المحملـة بجراثيم الوضـاعة والجريمة، والمعصية وفقدان المناعة.

ثم جربت الماركسية. كرد فعل لحالات الجنون الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الرأسمالية.

وتمسكت بعض المجتمعات أو أكثرها بحبلها، ودعت إليها، وجندت في الدعوة إليهـا كل شيء، الصحـافـة، والإذاعـة، والسينما، والمسرح، والروايـة، والقصـة، والمال، والبشر .. وحتى الحديد والنار.

فماذا كانت النتيجة؟

أفقـرت الأغنياء، وأشقـت الفقـراء، وحولـت الإنســان إلى دُميـة فاقـدة الإدراك والوعي، لا حس فيها ولا شعور لها.

ثم حولت المجتمعـات إلى قطيع من الحيوانات الجائعة، بعـد أن أغرتهم بفردوس موهوم تتحقق فيه شيوعية الطعام والجنس.

حدثتهم في دعوتها عن المساواة :

فإذا هي مساواة الجميع في الهوان، والمهانة، والاكتئاب، والفقر المذل.

وعدتهم بالحرية :

فإذا بها حرية الحزب الواحد في أن يتحكم ويستغل، وحرية الصغار ممن ينتسبون إلى الحزب في أن يتلصصوا على النـاس ويتجسسوا عليهـم، ويسرقوا منهـم ضرورات الحياة، بعد أن سرقوا أحلامهم بالفردوس الموهوم.

ولعنت الشعوب تلك اللحظة التي حلَّت فيهـا الشيوعية بدارهم، فما جلبت لهم غير الخراب والـدمار، وسفـك الدمـاء، وتـأصيل الضغـائن، والأحقاد بحتميـات التاريخ والصراع الطبقي التي دعت إليه وروجت له.

وكـانت النهـاية المفجعـة أن تهاوت الأصنام، وانهدم المعبـد المزيف على يـد كبير الأباطرة، ثم سقط البناء على رءوس العبيد والكهان معاً.

وظهرت شمس الحقيقة لتذيب هذا الجليد البارد.

ولتثبت للناس أنه لا يصح إلا الصحيح وإن طال الزمن.

ولتـؤكد لهم دومـاً أن حبل البـاطل قصير وضعيـف، حتى وإن تسلـح بالحديـد والنار.

وأنه أمـام عوامـل الزمن ودواعـي العقل والفطرة لا يلبـث أن يتعرّى ، ثـم ينقطع ويتلاشى .

وأن الشعـوب في لحظـة وعـي وإفـاقــة ، تثـور على المستبـديـن والآلهة المزيفين ، فتخرجهم من جنتها ، وتتركهم لألسنة اللهيب تشوي جلودهم .

وتفككت دول ، وتـلاشت فلسفـات ، وذابت مدنيـات ، وعرضـت بلاد بـأسرها للبيع في أسواق الحرية والخبز ، والهامبورجر .

وتبـدلت حمرة الخجـل بصفرة الـرعب والفـزع في وجـوه الفلاسفـة ، والمنظّريـن ، والكهان وحـراق البخور ، بعـد أن رأوا بأم أعينهم أحـداث رومانيـا . . وما هـي من الناس ببعيدة .

وانقطع حبـل من حبـال الشيطان . ولكنه لا يكـف عن صنـع البديـل ، ولا يزال يحيك مؤامـرة أخرى ، ويخيط شباكا أخرى يضفـي عليها من السراب الخادع والجمال الموهوم ما يغري بها بعض أتباعه ومريـديه ، كشباك العلمانية ، والنظام العالمي الجديد وغيرهما من صـور الاستعمار البغيض الذي يظهر بين الحين والحين وهـو يرتدي ثـوبا جديـدا يخفي به مطـامعه ، ويغري به المُولَعِين بكـل موضة جـديدة في عالم السيـاسة والأيدويولـوجيات ، وكلها لا تجلب لتـابعيها ومعتنقيها غير الضياع والفقـر ، وهوان الحرمات ، وتكريس عبودية الشعوب لسيطـرة المستغلين الكبار ، الذين يملكون القوة ولا يملكون معها الضمير والشرف .

ذلك حبل جديـد من حبال الشيطان . ووعد بوهم جديـد ، ينخدع به البعض ، ويغتر به الآخرون ويسارعون إليه .

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

(١) البقرة ٢٦٨ .

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴾ (١) .

ووعود الشيطان في مواجهة الحق إلى زوال محتوم، لأنها مجرد زبد لا ينفع الناس ولا يمكث في الأرض، فضلاً عن أنها تفسدهم وتخرب عليهم حياتهم، وتلوث فطرتهم، وطبيعة الباطل هكذا في كل حال .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ (٢) .

فلم يبق أمام أمتنا غير حبل واحد بعد أن تقطعت كل الحبال ؛

إنه حبل الله الذي تملك به أمتنا آلية الدخول إلى عصرها الراهن، وتتفاعل من خلاله مع اللحظة الآنية والمستقبل الآتي. كما تملك من خلال تعاليمه أدوات الحضور والتأثير في واقع العالم بعد أن تعي أحداث التاريخ، وتتخطى فيما بينها حدود الجغرافيا ونقاط التفتيش .

وذلك ما ينص التوجيه القرآني عليه ويلفت الأنظار والعقول إليه .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٣) .

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

(١) النساء ٢٧ .
(٢) الرعد ١٧ .
(٣) الأنبياء ٩٢ .
(٤) آل عمران ١٠١ .

هذا هو الاعتبار الأول :

١- أن يكون الاعتصام بحبل الله لا بحبل آخر.

أما الاعتبار الثاني فهو :

٢- أن يكون هذا الاعتصام فردياً وجماعياً . . جماعياً بمعنى أن يكون المجتمع مسؤولا عن تنمية وتوثيق روابط الإنسان بالله . وذلك يتمثل في مجموعة من الإجراءات نجملها فيما يلي :

أ - توفير المناخ المناسب لرعاية الفرائض، وأداء التكاليف، وحماية الحقوق، وصيانة الفضيلة والشرف.

ب- وجود عدالة حازمة تضرب على كل من يعبث بهذه القيم، أو يتعدى على الحرمات، وذلك بسرعة البت في القضايا التي تمس العرض والشرف، وتشكل تهديداً لأمن الناس في ضرورات الحياة.

جـ- توفير الجو العام وتهيئة البيئة الصالحة، عن طريق تضافر الجهود والتنسيق بين مؤسسات المجتمع كل في مجال اختصاصه بحيث تصبح هذه المؤسسات وكأنها روافد تنبع من نهر واحد وتصب في مجرى واحد، فلا يتناقض ما يقال في المسجد مع ما يذاع مثلاً في التلفاز أو ما يكتب في الصحف، ولا يختلف ما يتلقاه الطالب في المعهد مع ما يسمعه في البيت أو ما يراه في الشارع العام.

هذا من ناحية المجتمع.

أما من الناحية الفردية، فيقصد به استعمال القدرات الذاتية لكل فرد في خَلْقِ رأي عام فاضل واع يضغط في اتجاه الخطأ، يرفض وجوده، ويرفض استمراره في قنوات

المجتمع وسلوكيات الأفراد، ويأبى إلا أن يكون السير في الاتجاه الصحيح.

فيرحب بكل خير، ويقاوم كل دعوى تنال من القيم الفاضلة، أو تحرض الناس على التمرد عليها.

وبهذا تسلم نفسية الفرد من التمزق والبعثرة. وتتوحد في المجتمع المناهج والمشاعر والتصورات، كما تتوحد القنوات والمؤسسات، والأصل في ذلك كله هو توحيد الله الواحد، الذي توحدت به وعن طريقه أهداف المجتمع، وغايته ومراده، فلا يتحول الأفراد فيه أحزاباً وأشتاتاً.

كما تنتفي منه كذلك كل الوثنيات بصورها المتعددة، سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية.

وبذلك تسلم شرائحه ولبناته من - الشذوذ والعلة -.

الشذوذ في الفكر، والعلة في السلوك - وتلك بعض معطيات الكلمة القرآنية العظيمة.

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (١). وهذا هو الاعتبار الثاني.

٣- أما الاعتبار الثالث فهو :

أن الاعتصام بحبل الله جماعياً وفردياً. ليس اعتصاماً غبياً لا دور للعقل والإرادة فيه.

وإنما هو اعتصام ذكي، مصحوب بيقظة عقلية ضخمة، تتسلح بالعلم، وترعى

---

(١) آل عمران ١٠٣.

حركة الجهد العقلي في مجال التجربة، وتدافع عن اختيارها بالحجة والبرهان، وتنفي عن دين الله تهمة العدوان والشراسة، كما تنفي عن المسلمين غفلة النفس، وتوظف العقل الإنساني لخدمة الحقائق، وحماية البيئة، وتنمية المجتمع، وترقية الحياة.

وكما أنه اعتصام مصحوب بصحة عقلية، فهو كذلك مصحوب أيضا بسلامة نفسية واجتماعية واقتصادية تطرد من نفوس الأفراد وساوس الكبرياء المغرور بملكية الأشياء، وتوزع المسؤوليات في المجتمع وفق الكفاءات والقدرات والاختصاصات دون النظر لاعتبارات القبلية وشرف العائلة. فلا يوسد الأمر لغير أهله.... وإلا فإنها الفوضى والهرج والمرج، وعلامة من علامات الخلل التي تلوث البيئة، وتفسد الأمة كما تعجل في بنية المجتمع بقرب ساعته وانهيار الحياة فيه.

قال رسول الله ﷺ:
«إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[1].

لذلك فسلامة المجتمع وحماية البيئة نفسياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً تتطلب جهوداً تعني برسم خطط ووضع برامج عمل على مستوى الأصعدة الأربعة التالية:

١ - على الصعيد النفسي.

يجب العمل على حماية البيئة من التمزق، وذلك بوضع منهج يعني بالتربية السوية التي تهتم بالإنسان من جميع جوانبه وتتكامل فيه الوسائل والغايات، وتلتقي عنده جهود المؤسسات ذات الطابع التوجيهي من صحافة وإذاعة مرئية ومسموعة، وكذلك مؤسسات التربية والتعليم والثقافة، شريطة أن ينصب الاهتمام في عمليتي التربية والتعليم على ملكات الإنسان كلها، البدنية والعقلية والروحية؛

(١) صحيح الجامع الصغير حـ١ ص٢٨٨ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

فـلا ينمي جـانب على حسـاب آخر، ولا بـد من العنـاية بشكـل خاص بتنميـة القدرات العقلية والوجدانية، وغرس قيم الخير والوفاء والحب؛

وذلك لا يتأتى إلا بطهارة النفس وسمو الغرائز وكبح الشهوات، وهذا ما تنفرد به التربية الإسلامية عـن سواها من المناهج الأخرى، حيـث يعتبر منهج الإسلام طهارة النفس شرطاً في صحة الخلافة عن الله في الأرض، وكمال عبادته سبحانه.

طهارة النفس شرط الخلافة عن الله

يقول الراغب الأصفهاني :

« لا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسها ونجسها؛

فللنفس رجاسـة، كما أن للبدن نجاسة، لكـن نجاسة البدن قـد تدرك بالبصر، ونجـاسـة النفس لا تـدرك إلا بـالبصيرة » وإيـاها قصـد تعـالى بقـوله :

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [1].

وإنما لا يصلح لخلافة الله إلا من كان طاهـر النفس، لأن الخلافة هي الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية في تحري الأفعال الإلهية.

ومن لم يكـن طاهـر النفس لم يكـن طاهر القول والفعـل، فكل إنـاء بالـذي فيه يرشـح، ولن يخلـو مسك سـوء عن عـرق سوء ولهذا قيـل : من طـابت نفسـه طاب عمله، ومن خبثت نفسه خبث عمله. [2]

---

(١) المدثر ٥ .

(٢) أنظر كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص٢٦ .

وكـم من مشروعـات لا تنقصها الـدقـة العلمية ولا التخطيـط المحكم، ولكنهـا فشلت وضاعت فيها الجهود، لأن الذيـن قاموا على تنفيذها والإشراف عليها لم يكن لهم خلـق ولا دين، ولم يكـونـوا من أصحـاب النفوس الطـاهـرة والأيدي النظيفـة، فجاءت أعمالهم فجة، منزوعة البركة والخير، ولم يكتب لها البقاء، ولم تلبث آثارها أن تزول، لأن الله تعالى ﴿ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

وهذا قانون اجتماعي يعمل عمله في البيئـة إيجابا وسلبا. ويجب ملاحظته ورعايته في الأعمال العامة والخاصة، والمشروعات ذات الطابع الجماعي والفردي معاً.

لذلك كان لا بد في حماية البيئة من طهارة النفـس، وتربية العقل والوجدان الراقي الذي يـربط الإنسـان بالله عن طـريق رعايـة أحكامـه في الحلال والحرام، والمحظور والمباح، والتعرف على آياته وسننه في البيئة المحيطـة وفي الحياة من حولنا، وفي الكون الواسع العريض.

٢- وعلى الصعيد الاجتماعي :

تتمثل حمايـة البيئة في مجمـوعة مـن الإجراءات تضمـن سلامـة المسار الاجتماعـي بتحقيق العدل الذي يتساوى الجميع في ظله، فلا يـزيد فيه نصيب قريب أو نسيب أو حسيب على نصيب بعيد.

ولا يزيد فيه نصيب مؤيد على نصيب معارض. ولا يؤاخذ فيه أحد بجريرة أحد، كما لا يفلت فيه مجرم من العقاب مهما كان، فـالعدل ميزان الله الذي وضعه للخلق، ونصبه للحق، فلا تخالفوه في ميزانه، ولا تعارضوه في سلطانه.

---

(١) يونس ٨١.

قال تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (١) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ (٢) .

يقول الماوردي :

«العدل الشامل يـدعو إلى الألفة ، ويبعث على الطاعة ، وتعمـر به البلاد ، وتنمو به الأموال ، ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان»(٣) .

عندما يقود الغراب يسرع الخراب خطاه

وإذا كانت هذه القيم هي بعض مردود تحقيق العدل في المجتمع ، وما لهذا المردود من أثر في سلامة البيئة ونظافة البنيـة الاجتماعية والاقتصادية والنفسية فيها ، فإن المرء يمكن أن يتصور المدى المدمر لغيـاب هذه القيم ، وما يحدثه هذا الغيـاب من تحطيم لنفسية الفرد والمجتمـع ، وإشاعـة روح اليأس والإحباط حين تفسد الضمائر ، ويسوء الخُلُـقُ ، ويتفشى الفسـاد والجور في كل شيء ، وتصبـح الكرامـة الإنسانيـة غير ذي معنى ، لأن الإنسان والحالة هذه لا يستطيع أن يحصل على أدنى حقوقه إلا بطرق غير مشروعة بداية بالرشوة ، وانتهاء بالمذلة والتفريط في الشرف والعرض والكرامة .

وهنا يُسْرِع الخراب في خطاه ، ويتحدى الفسـاد كل شيء ، ثم لا يُبْقي على شيء ، وكل ذلك بسبب غياب العدل الشامل الذي تعمر به البلاد ويصلح به العباد .

وتلك حقيقة أشار إليها كل المفكريـن قديمهم وحديثهم ، كما أنها من مستقلات العقول التي تدرك بالتجربة والواقع وأحداث الزمان .

(١) الرحمن ٧-٩ . (٢) الشورى ١٧ .

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي ص٥٣ دار اقرأ بيروت طبعة ١٩٨٤ .

وقد أشار القرءان الكريم في كثير من نصوصه إلى تلك الحقيقة لعل الأخلاف يتجنبون أخطاء السابقين ويدركون من خلال قرءانهم تلك الحقائق وهي :

أن القدر لا يحابي أحداً. وأن القانون لا يتخلف أبداً.

وأن سنة الله جارية في الجائرين والظالمين ولا تتوقف مطلقا.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (١).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢).

والنص يدعونا إلى التأمل والتفكر في مصائر السابقين؛

وكيف كانت قوتهم وآثارهم وما عندهم من العلم؛

وكيف اغتروا بما أوتوا من نعم؛

ثم طبق عليهم القانون الإلهي وجرت عليهم سنّة الله؛

وتبين لهم أن القوة بغير توفيق الله لا تفيد أصحابها؛

---

(١) الفجر ٦-١٤.   (٢) غافر ٨٢-٨٥.

وأن العلم مع الشهوات والهوى لا يعصم صاحبه من عقاب الله؛

وأن الجور والظلم والطغيان أسباب مباشرة في فساد البيئة وخراب الأرض وتدمير الحياة.

يقول الماوردي :
« وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور، لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل»[1].

وهكذا تفسد البيئة - بشراً ومكاناً - بانتشار الفساد والظلم، كما تصلح البيئة - بشراً ومكاناً - بانتشار العدل والمساواة.

وإذا كان العدل وجها من وجوه الحق تصلح الدنيا به، وقاعدة من قواعد العمران تنتظم بها المجتمعات وترتقي، فإن هذا العدل يبدأ بعدل الإنسان في نفسه أولاً، ثم يتعدى إلى الآخرين، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

يقول الماوردي :
« فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه، وجب أن يبدأ بعدل الإنسان في نفسه ثم بعدله في غيره.

فأما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح، وكفها عن المقابح، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقصير، فإن التجاوز فيها جور، والتقصير فيها ظلم، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم. ومن جار عليها فهو على غيره أجْوَر[2].

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٥٣.
(٢) المعنى أشد جوراً أي أكثر ظلما.

وأما عدله مع غيره فيكون باتباع الميسور، وحذف المعسور، وترك التسلط بالقوة، وابتغاء الحق في السيرة ».

وضد العدل الجور والظلم والبغي.

والظلم مُسْلِبٌ للنعم، والبغي مجلب للنقم، والله تعالى لا يرضى عن خلقه إلا بتأدية حقه.

وحق الله شكر النعمة، ونصح الأمة، وحسن الصنيعة، ولزوم الشريعة.

والسلطان السوء بالنسبة للأمة كولد السوء.

الأول يخيف البريء، ويقرب الدنيء.

والثاني يشين السلف، ويهدم الشرف.

ولذا قال رسول الله ﷺ :
(إن الله يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا)[1].

(أشد الناس عذاباً للناس في الدنيا أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة)[2].

(أشد الناس يوم القيامة عذاباً إمام جائر)[3].

وهكذا بالعدل تقوى الأمم، وتتقدم الدول.

---

(1) صحيح الجامع الصغير، المجلد ١ حـ٢ ص٥٠ تحقيق الألباني.
(٢)، (٣) صحيح الجامع الصغير، المجلد الثاني حـ٢ ص٣٣٥.

وقديما قال الحكماء :

« الأمن أهنأ عيش ، والعدل أقوى جيش » .

وإذا تحقق العدل ، تحققت المساواة التي تتكافأ في ظلها الفرص ، وتختفي بوجودها عوامل وأسباب التفاوت الظالم الـذي يقسم المجتمع والأمة ، فيجعل الثراء والترف في جانب ، والفقر والمسغبة والجوع في جانب آخر .

ويجزل العطاء لفئة ، ويجعل الحرمان نصيب فئـة أخرى ، ويمنح السعادة والرخاء لشريحة ، ويحتم التعاسة والشقاء لشريحة أخرى ، وكـأنها قدر محتوم ، لا مفر منه ، ولا فكاك عنه .

دور التكافل في حماية البيئة

إذن فحمايـة البيئـة من التلـوث الاجتماعـي تتطلـب أن يتكـافل المجتمـع كلـه ، وتستـوجب على أفـراده وفئاتـه أن تتقاسـم السراء والضراء ، والفرح والترح ، والفقـر والغنى وتفرض على الجميع أن يعيشوا فروعاً في شجرة واحدة ، يجمعهم جذع واحد ، فهم كـالجسد الواحـد إذا اشتكى منه عضـو تداعـى له سائر الأعضـاء ، يتألمون لألمه فيدفعـون عنه أسبـاب المعاناة ، ويـزيحون عنه قلـق الأمس ، واليـوم ، وهموم المستقبل الآتي .

قال رسول الله ﷺ :

(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهـم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(١).

---

(١) مختصر صحيح مسلم ص٤٧٢ ، ص٤٧٣ تحقيق الألباني المكتب الاسلامي .

٣ - وعلى الصعيد الاقتصادي :

تتمثل حماية البيئة في توفير فرص العمل وحماية حركة الإنسان حين تكون في الاتجاه الصحيح، وتأمين الحاجات الضرورية لجميع الأفراد، ومنع الاحتكار والغش والتدليس في البيع والشراء، ومصادرة كل ثروة تأتي بطريق الكسب الحرام، وقطع دابر الطفيليين الذين يعيشون على جهد الآخرين . . . يأكلونه سحتاً، ويشربونه ماءً حميماً. والتخلص كذلك من مظاهر الترف المستفز، ورعاية الأسر الفقيرة، وتوفير الحياة الكريمة، وضمان حق التعليم والصحة لغير القادرين، واحترام الجهد المبذول فلا يكافأ العمل الشاق بأجر تافه، ولا العمل التافه بأجر مرتفع .

كما تتمثل حماية البيئة من التلوث في منع الربا، وتيسير المشروعات الحلال، وحماية الملكية الخاصة والعامة، وتوفير ما يحتاجه الأفراد لاستصلاح الأرض و إنبات النبات، وتوجيه طاقات الأفراد نحو الاكتفاء الذاتي في السلع ذات الحساسية الاقتصادية التي تشكل خطراً على المجتمع إذا ندرت أو قل الإنتاج فيها .

كالقمح في بعض البلاد الإسلامية مثلاً . . فبسببه تُرْهَنُ الإرادة، وتُلْوَى الذراع، وتفرض الشروط، وتخضع البلاد لما لا يمكن أن يُقْبَلَ تحت ضغط الحاجة خوفا من هياج الجماهير.

والإسلام هنا يحمي البيئة من التلوث الاقتصادي بدفع الناس إلى العمل. ويعتبر الزراعة عملا من أعمال الجهاد، حين تعاني الأمة نقصا في بعض محاصيلها الزراعية .

بل إن رسول الله ﷺ جعل في الزراعة والفأس أجراً يمتد لما بعد حياة الإنسان .

فمن ناحية : يوجه الأمة إلى تعمير الصحاري، وإحياء الأرض الموات، حتى لا تقع فريسة المساعدات أو المعونات أو القروض المشروطة .

فيقول ﷺ :

(من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر، وما أكلت الطير منها فله منها صدقة)[1].

والأرض الميتة هي الأرض التي لم يظهر عليها ملك أحد، فلم يظهر فيها تأثير من إحاطة أو زرع أو نحو ذلك، ولا يوجد أحد يملكها أو ينتفع بها، و إحياؤها هو جعلها صالحة للزراعة والانتفاع بها .

قال الإمام البغوي :

« والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ومَنْ بعدهم أن من أحيا مواتاً لم يجر عليه ملك أحد في الإسلام يملكه، وإن لم يأذن له السلطان فيه . وهو قول أكثر أهل العلم، روي ذلك عن عمر، وبه قال الشافعي وأحمد و إسحاق، وذهب بعضهم إلى أنه يحتاج إلى إذن السلطان، وهو قول أبي حنيفة، وخالفه صاحباه، فقالا : « لا يحتاج لإذن السلطان في ملكية الأرض إذا هو أحياها من موات وجعلها صالحة للزراعة والانتفاع بها »[2].

ولنا أن نتصور الأثر الإيجابي لهذه الأحكام لو أنها طبقت، وانطلق الناس إلى الصحراء ليعمروها ويحيلوا تصحرها إلى روضات وجنات .

ولا يتوقف جزاء الكد في استصلاح الأرض على مجرد ملكيتها والانتفاع بها حال الحياة فقط، وإنما يمتد لما بعد الحياة فيضمن للإنسان مع - سلامة النية - استمرار الأجر وإن مات صاحبه، وانتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة، فحركته هنا ما دامت شريفة المقصد فأجرها يجري عليه بعد الممات .

---

(١) شرح السنة للإمام البغوي حـ٨ ص٢٧٠ بتصرف ، طبعة المكتب الاسلامي ١٩٧٦ .
(٢) المرجع السابق ص٢٧٠ بتصرف .

قال عليه الصلاة والسلام :

(سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته : . من علم علماً، أو كرى نهراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورث مصحفاً، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته)[1].

ويلاحظ في النص النبوي الشريف أنه كلما كثر النفع وعمت الفائدة كانت المثوبة عند الله في نمو وزيادة.

وهكذا تتحدد علاقة الإنسان بالبيئة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، وهذه العلاقة لم تنشأ من فراغ، ولم تفرض على الإنسان بالقهر، أو تحت تهديد الحديد والنار، كما فعلت بعض الفلسفات المفلسة. وإنما تتحدد هذه العلاقة إيجابيا وفاعلية بدوافع العقيدة التي تصلح كيان الإنسان كله وتوجه نشاطاته في جميع الميادين، وتفجر فيه طاقات بغير حدود، فيمارس الحياة بسمو يربطه بما بعد الحياة، ويدرك من خلال معطيات عقيدته أنه محاسب على كل ما يفعله في هذه الدنيا، وأنه مؤاخذ بما كسبت يداه.

وتخلق فيه تلك العقيدة طاقات إبداعية خلاقة، لأنها في تصوره تمهيد لما بعدها. وبقدر ما يقدم الإنسان فيها من خير بقدر ما يشرق المستقبل هناك ويضيء، ومن هنا تتسع في سلوكيات المسلم دوائر الخير وتنساح.

ولا يتوقف العمل في حياته عند حدود بيئته أو حدود دنياه، وإنما يتجاوز البيئة ويمتد أثره لما بعد الحياة، وما بعد الحياة هو المطلوب المرغوب.

فالعمل للآخرة إذن صلاح للدنيا وعمران للحياة، والعمل للدنيا إذا صاحبته النية الطيبة حماية للدين وتعمير للآخرة.

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته، المجلد ٣، ٤ ص٢٠١ تحقيق الألباني.

وهكذا يرتبط المسلـم في سلوكياته كلها بإطار أخلاقـي رائع، يُحَوِّلُ ميادين الحياة إلى ساحات عبادة وتسبيح، وهتاف بمجد الله في الأرض والسموات.

كما يحول ضجيج الآلات وضـوضاء المصانع إلى نغـم طاهر، تتجاوب بـه الأرجاء شكراً لله الذي منح الحياة، وخلق الوجود، وكرم الإنسان . .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) الأنعام ١٦٥ .

رِيحُ الشَّمالِ بَيْنَ
وِشاحِ التَّنْمِيَةِ وَتَعْقِيمِ السُّكَّانِ

دراسة حول مؤتمر القاهرة

مر مؤتمر السكان والتنمية وما صاحبه من ضجة علت فيها الأصوات حينا بالتأييد وحينا آخر بالتحفظ والاعتراض، مر كغيره من المؤتمرات، ولكن أبعاده وتداعياته تحتاج إلى وقفة مع الذات أولا ومع الآخر ثانيا.

مع الذات بإعادة النظر فى الثقة المطلقة التى منحناها للآخر فى كل المجالات، وقدمناه فى بعض المواقع على أبناء جلدتنا، وارتمى بعضنا فى أحضانه حتى النخاع، وطالب بعضنا أن نكون تابعين له فى كل شىء، حتى ولو لم يكن من دين الله على شىء.

هذه وقفة مع الذات نستعيد فيها الوعى، ونعيد النظر، ونحسب الأمور من جديد.

أما الوقفة مع الآخر فهى وقفة تستدعى إعلان حالة الطوارىء فى الوعى العام لدى أهل الجنوب، الذين هم معنيون بالدرجة الأولى بما جاء فى توصيات المؤتمر، ومقصودون من كل فقرة فيه.

وأحسب أن طرح المؤتمر فى صيغته التى طُرح بها تنطوى على كثير من محاولات

تـزييف الـوعـى، وتخويف الشعـوب، والتهـويـل المبالـغ فيـه فى قضية السكـان، وتصويرها على أنها أم المشكلات، والعائق الأوحد والأكبر والأضخم فى طريق تنمية مجتمعات العالم الثالث.

ولقد تـم طرح القضيـة فى بُعْد واحد فقـط، وأغفلت أبعادهـا المتعددة عـن عمد وسبق إصرار.

وربما لا تتاح لنا فرصة مناقشة كل الأبعاد فى هذه العجالة، وقد نفردها بدراسة فى غير هذا الموضع تتضمن شيئا من التفصيل والتوضيح.

غير أننا نتناول القضية فى بعـدها الأول فقط، وهو البعد الديمغـرافى الذى ركزت عليه الدعايـة، وحظى إعلاميا بكثافة ضخمة، كلها كـانت تصب فى مجرى واحد، هـو إقناع أهـل العالم الثـالث بحتميـة وقـف النسل وتحديـده عند رقـم معين، وإلاَّ فالويل لكل سكان الأرض من كوارث الفقر والمجاعات بحلول عام ٢٠١٥.

والغريب فى الأمر أنـه قد تم التركيز على البعد الديمغرافى مـن خلال رؤية الغرب الغنـى للمشكلـة، بينما أغفلت رؤيـة أهـل الجنـوب، أو تجاهل الجميـع رأى أهـل المشكلة الحقيقيين الذين هم سكان العالم الثالث.

طُـرِحَ البعـد الـديمغـرافى على أنــه القنبلـة التـى تهدد مصير الكـوكـب الأرضى بانفجارات شتى، تأخذ شكل المجاعات والكوارث، واغتيال الحياة، بالفقر المدقع، والمرض الموجع والجهل المطبق.

وحسمت القضيـة من خـلال رؤية الغـرب لها بأن كـل الحسابـات والإحصاءات تنبىء بذلـك، كما أن أجهزة الرصد بموجب قـانون «الغلـــة المتناقصـة»، «والناتج الحدى» عنـد علماء الاقتصـاد تقـول: بـأن سكـان الأرض مهـددون بـالمجـاعـات والكوارث ما لم يتوقف نسلهم عند حد معين، بحلول سنة ٢٠١٥.

واستغلت الإحصاءات - كما هـي العادة للتلويح والتخويف بها ينتظـر العالم من أمور مفجعـة ما لم تتحـرك أجهزته ومـؤسساتـه ودوله كلها للحـد من إنجـاب العالم الثالث- .

ونظـرا لأن العالم الثـالث عـالم فقير فهو لا يملـك قراره . وبما أنـه لا يملك قـراره فيجب أن يخضع لـرؤية الغرب فى الزمن الحاضر، كما يجب أن يخضـع - أيضا - لرؤاه فى مستقبل الأيام .

وهذا يستلزم بدوره ألا يحتفـظ العالم الثالث برؤيته الخاصة أو بهويتـه ، أو بأعرافه وتقاليده ، وألاّ تبقى له خصوصية فى الدين أو فى الهوية .

ومن هنـا يجب أن يكون هـذا العالم تـابعا للغـرب فى نمط السلـوك اليومـى ، وفى نموذج القيم السائدة فيه ، وفى فلسفته تجاه الكون ، والإنسان ، والحياة ، بغض النظر عما لديه من قيم أو معتقدات أو تقاليد وأعراف .

ولذلك طـرحت فى المؤتمر قضية الإجهاض ، وأشكال الإرتباط بين الـذكر والأنثى كبديل عن الزواج ، كما طرحت قضيـة الشذوذ الجنسى بشقيـــه (اللواط والسحاق) كشكل من أشكال الارتبـاط ، وكذا قضية الثقافة الجنسية وسـلامة الممارسات فى غير أنماط الـزواج كبدائل جيـدة للـزواج المبكر والـذى ينتج عنـه زيـادة فى النسل تعقـد المشكلة ولا تساعد فى حلولها .

وطبيعى جـدا أن تكون هـذه الممارسات محمية بـالقانـون الدولى ، وتتحـرك الأمم المتحدة بفرض الحصار و إنزال العقوبات بالدولة التى تخالفها .

كان هـذا هو الغـرض والهدف من طـرح الغرب للمشكلـة خلال المؤتمر مـن هذه الزاويـة، لولا اعتراض بعض الدول وتحفـظ البعض، ومقاطعة دول أخـرى للمؤتمر، بالإضافة إلى الضغوط الشعبية التى تحركت بدافع غريزى من دينها وهويتها لدفع هذا الاجتياح الأعمى لما لدينا من معتقدات وقيم وأخلاق.

هذه هى طروحـات الغرب ورؤيته للمشكلة، وهى كما نرى رؤيـة أحادية النظر، وتـتسم بالتعسف والتجزىء، كما تتسم بالأنـانية والاستعلاء، والبعد عن الموضوعية فى معالجة المشكلة.

فهى أحادية النظر لأنها نظرت إلى المشكلة من خلال منظور واحد هو رؤية الغرب للجانب الذى يعنيه، ويحقق مصالحه، ويحافظ على ثبات مستوى الفرق بين الشمال والجنوب فى الثراء والاستغلال والجشع، كما يُبْقِى على فجوة التخلف كى تظل عملية استغلال ثروات العالم الثـالث ونهب خيراته سهلة لينة حيث تبقـى كل خيوط اللعبة بموجب تقدمه وتخلف الجنوب بيديه.

ويظل الغـرب هو مفتـاح الحل لكل مشكلة تطـرأ عندنا، وبـالتالى فـلا يستطيع العـالم الثالـث أن يحرك ساكنـا أو يقيـم مصنعا أو يبنـى سدا بغير خبرة أهـل الشمال وتقنيتهم واستشارتهم في كل صغيرة وكبيرة من حياتنا، الخاص منها والعام.

ومن هنا تكون استدامة قضية التخلف فى العالم الثالث هدفا ومطلبا. لكن العالم الثالث برغم التخلف يزداد سكانه، وفى المقـابل فإن العالم الأوروبى المتقدم تتناقص فيه السكـان، وتزيد نسبـة الوفيات عن نسبـة المواليد برغـم الخدمات الطبية الفـائقة والرعاية الصحية الكبيرة التى تقدم للمواطن هناك.

وتقول الإحصائيات : إن طفلا واحدا من كل خمسة أطفال يولدون فى العالم من الغرب، بينما أربعة أطفال فى المقابل يولدون فى العالم الثالث.

وهذا يعنى على المدى البعيد نقص هناك وزيادة هنا، مما يهدد الغرب بفيضانات من البشر عبر عمليات الهجرة الجماعية التى تتم من الجنوب الفقير إلى الشمال الغنى، حيث الثراء والتقدم والعيش الرغيد.

وهذا بدوره سيحدث تغييرا فى اللحمة الحضارية والنسيج الاجتماعى لأوروبا، يتولد عنه انقراض الجنس الأصلى أو على الأقل ذوبانه ودمجه فى الشرائح الجديدة التى أتت عبر الهجرات من الجنوب.

إذا ما هو حل المشكلة ؟

فى نظر الغرب المشكلة لا تحل مثلا بتوفير فرص العمل، أو بتدريب الأيدى العاملة لدى أبناء الجنوب على حرف يستفيدون منها، أو بنقل التكنولوجيا إلى دول العالم الثالث، أو بمزيد من زراعة الأرض البور، وهى مساحات شاسعة يمكن أن تحل المشكلة، لكن هذه الحلول ليست مطروحة، ولم يشر المؤتمر إليها فى قليل أو كثير . . . . . إذاً ما هوالحل المطلوب ؟

الحل المطلوب أن تبقى الأوضاع على ما هى عليه، فقط يتوقف نسل هؤلاء، لأنه الميزة الوحيدة التى يتميز بها العالم الثالث.

ولأن هذه الزيادة هى عنصر التهديد الوحيد لرفاهية الغرب واستغلاله لشعوب العالم الثالث، لذلك تطرح المشكلة على أنها أم المشكلات كلها.

وبنظرة موضوعية مجردة تتضح أنانية هؤلاء الناس وخبث طويتهم، ونظرتهم

الاستغلالية العنصرية لغيرهم من الأجناس . ولنستقرىء لغة الأرقام لنرى .

تقول الإحصاءات :

١ - إن دول غرب أوروبا فقط تشكل ١٠٪ من مجموع الدخل العالمى .

٢ - فى المقابل تشكل القارة الأسيوية ٥٦٪ من سكان العالم بينما لا يحصلون إلا على ١٠٪ من مجموع الدخل العالمى .

٣ - نصيب الفرد فى الولايات المتحدة من الدخل العالمى ٤٠٪ بينما لا يتجاوز عدد السكان ٦٪ من سكان العالم .

٤ - العالم المتقدم يستهلك أربعة أخماس موارد العالم ، بينما كل خمسة أطفال يولدون منهم أربعة من الجنوب وواحد فقط من الشمال الغنى .

٥ - فى الستينات من هذا القرن كانت الدول النامية تشكل ثلثى سكان العالم وتحصل على ثلث الدخل العالمى ٣٣٪ .

أما اليوم فهى تشكل ٨٠٪ من سكان العالم بينما لا تحصل إلا على ٢٠٪ فقط من الدخل العالمى ، وبهذا أصبح متوسط دخل الفرد فيها ١٫٠٠٠ فقط ألف دولار سنويا فى حين أن متوسط دخل الفرد فى أوروبا ٢١٫٠٠٠ ألف دولار بينما يصل فى الولايات المتحدة إلى ٤٠٫٠٠٠ ألف دولار سنويا .

٦ - يتحدثون كثيرا عن مشكلة نقص المياه ويستشهدون بدراسة أعدها معهد بحوث السكان الدولية فى واشنطن صدرت عام ١٩٩٣ تحذر من أن مياه الشرب لن تكفى البشر فى القرن القادم ، وأن حوالى ٣٣٥ مليون نسمة من البشر يعانون من نقص المياه فى ٢٨ بلدا حاليا ، وسيزيد العدد إلى ٣ مليارات نسمة فى ٤٦ بلدا عام ٢٠٢٥ ، وتحدد الدراسة خارطة مناطق النقص فى الجزء الأعظم من البلاد

الإسلاميـة والأفريقيـة حيث يراد تنفيـذ مخططات الحد مـن النسل أكثـر من أى منطقة أخرى .

وبينما ذكـرت الدراسـة أن مشكلة الميـاه لن تكـون نقصا فى الموارد بقـدر ما هـى مشكلة خلل فى الاستهلاك للمصـادر الطبيعية للثروات ، وذلك يتضـح عندما نعلم أن المعدل الـوسطى للمياه النقية التـى يحتاجها الفرد هـو ٨٠ لترا فى السنة ولكن الاستهـلاك يصل إلى أكثـر من ٥٠٠ لتراً فى الـولايات المتحـدة الأمريكيـة مقابل الحرمان فى مناطق أخرى بدرجـة متفاوتة أدناها أقل من ٦ لترات في السنة فى بعض البلاد كمدغشقر مثلا .

٧- الصحراء الممتدة فى القارة الأفريقية مـن داكار إلى مقديشو حتى تتحول إلى أرض زراعية تحتـاج فقط إلى مليـار دولار لإمدادهـا بمضخات مـائية تعمـل بالطـاقة الشمسية ؛

وهـذا المبلغ هـو أقل مـن نصـف تكلفة حـاملـة طائرات واحـدة ، وبه تتحـول الصحراء إلى روضات وجنات يكفى انتاجها نصف سكان العالم من الغذاء .

٨- فى أفريقيا أيضا بلد كالسودان هو سلة العالم الغذائية بما فيه من مساحات صالحة للزراعـة ومساحات مـزروعة بالفعـل ، لكنه يحتاج إلى ١ مليـار دولار لشق الترع وتعبيد الطرق وربط أجـزائه بشبكة مواصلات ، و إنتاج هذا البلـد وحده يكفى سكان العالم كله من المنتجات الزراعية .

٩- فى الـولايـات المتحـدة يتركـون ٢٠٪ مـن المساحـات الـزراعيـة بُـوراً بغير زراعـة ويعـوضون المزارعين بمبـالغ مـالية حتـى يحافظوا على معـدلات الإنتاج وسعـر السـوق ، والأمر نفسـه تفعله أوروبـا ولكن بنسبـة ١٥٪ من الأراضـى الزراعيـة يتركونها بورا ليحافظوا على معدلات السعر العـالمية للقمح وليستعملوه سلاحا فى

السيطرة وفرض الإرداة وتنفيذ المخططات على حساب الجياع .

١٠- فى دراسة أعدتها نشرة CAIRO EXAMINER كايرو اكزامينر

جاء فيها : أنه بـالإمكان استضافة سكان العالم كله فى ولايـة تكساس وبطريقة جد مريحة .

وقال سبارتاكوس رئيس تحرير مطبوعة جلو بال أفريقا بوكيت نيوز ومقرها لندن (AFRICAN GLOBAL POCKET NEWS) قـال : إنها مؤامرة من أوروبا لجعل أغلبيـة العالم تضفى الاستقرار على سكـانها ومن ثم يمكنهـا الاستمرار فى العيش على موارد العـالم . وبإمكان الأرض أن تستوعب ٣٠ بليـون نسمة وليس ١١ بليون فقط إذا أحسن توزيع الثروة واستثمار الموارد بشكل يحقق العدالة .

١١- فى إيطاليـا يدفعـون ٦٥٠ دولارا لكل من يقتـل بقرة حلـوبا حتـى يحافظوا على معدلات سعر اللحوم والألبان على حساب المسـاكين من سكان العالم الثالث ، بينما فى دول السوق الأوروبية المشتركة يتم إعدام المنتجات الغذائية مثل الحبوب ، والسكر ، واللبن ، والفاكهة ، والخضروات ، لدعم الأسعار.

وكما يقول الفيلسـوف الفرنسى (جارودى) يـأتي الأغنياء إلى القاهـرة تحت غطاء الأمم المتحدة التـى يتسلط عليها الأمريكيـون ليقولوا للفقراء : « لا تنجبـوا بعد الآن أطفالاً كى نستطيع الاستمرار فى نهبنا وإفراطنا » .

تصدير الشذوذ والفوضى للعالم الثالث

فإذا تركنـا الإحصاءات بأرقامهـا المفجعة ، وبحثنا عن الـدوافع وراء الإصرار على تصدير الفـواحش للعالم الثالث سنجـد أن الفطرة فى عالم الغرب قـد انتكست ، وأنه

عالم يـريد فقـط ألا ينتقل إلينـا منه إلا رياح الخماسين المحملـة بالـوضاعـة والمعصية وفقدان المناعة .

فهو لا ينقل إلينا التكنولوجيا التى تساعد على التنمية ، ولا الخبرة التى ترفع كفاءة الإنسان فى العـالم الثالـث ، ولا البرامج التـى تساعـدنا على الخروج مـن تخلفنا ، ولا بعض ثروتنا التي نهبها من قبل عبر قرون طويلة والتى يستعملها الآن فى فرض شروطه مـن خلال البنـك الـدولى وصنـدوق النقد الـذى أضحـى اسمـه (صندوق النكـد الدولى) .

إنه لا ينقل إلينا شيئـا من ذلك ، إنما ينقل إلينا أمراضه وأغـراضه ومثالبه ، ويصر على أن يفرض علينـا قيمه الفـاسدة ، وفلسفته وأنماط حيـاته ، تلـك التى جلبـت له الأمراض والاكتئاب والجريمة والقلق ، وقطعت الروابط وفصمت العلاقات .

إن الإنسان فى الدراسـات الجادة هو محور التنمية وما لم يكن سَـوِيَّ النفس سليم الإدراك والحواس ، فلن تكون هناك تنمية .

ونحن لا ندرى ولا نتصور أن هناك علاقة بين الشذوذ وبين زيادة التنمية . لكنهم يريدون أن يتحول الإنسان المكرم الذى هو خليفة الله فى أرضه يريدونه أن ينسلخ من قيمـه ، وأن يتخلـص من سر آدميتـه ليتحـول إلى حيـوان لا يبحث إلا عـن الطعـام والجنس .

ومـاذا جنـت دول الشمال مـن هـذه الفـوضـى فى العـلاقـات الجنسيـة غير المرار والعلقم ، وانتكاس الفطرة ، وشيوع الجريمة ، وضياع الأخلاق .

إن الدراسات الاجتماعية الجادة والـدراسات الديمغرافية عندهـم تضىء إشارات الخطر حمراء ، وتـدق كل نـواقيس التحـذير بـأن أجناسـا بعينها فى الـدول الأوروبية

مهددة بالانقراض التام، وأن دولة كإيطاليا سيتناقص عدد سكانها من ٥٧ مليون نسمة إلى ١٩ مليون نسمة ومع ذلك فهناك عوائق دون نسل جديد برغم تشجيع الدولة للأمهات الحوامل، ومنع استخدام موانع الحمل، ومنح جوائز ومعونات للأمهات حتى يلدن .

وفى فرنسا تقل نسبة الخصوبة عند المرأة الفرنسية ٧٥٪ عن مثيلاتها من نساء العالم الثالث .

وببحث الأسباب اتضح أن هذا النقص فى نسبة الإخصاب ناتج طبيعى للممارسات الجنسية المفرطة بين الشباب والفتيات بغير زواج ، كما أن ورود أكثر من ماء للرجال على رحم واحد ينتج عنه مرض السيلان الذي يتسبب في انسداد قناة (فالوب) وهذا بدوره يؤدي إلى عقم لدى كثير من النساء ولو بشكل مؤقت .

وتظل قضية الإعراض عن الزواج وعزوف الشباب عن تكوين الأسرة مشكلة تؤرق الجميع وتهدد المجتمع بمزيد من النقص فى عدد أفراده .

وإذا كان الشاب عندهم يستطيع أن يحظى بأكثر من واحدة، وأن ينتقل من هذه لتلك ، وأن تغيير رفيقاته وعشيقاته أسهل لديه بكثير من تغيير حذائه ، فما الذى يربطه بواحدة ؟

ولماذا يتزوج ، والزواج مسؤولية وأعباء وتقييد بامرأة واحدة ! بينما العزوبة تحقق له ما يريد وأكثر مما يريد ؟ .

وإذا غلبته فطرته وأراد الاستقرار والزواج بواحدة ، فإن نسبة الإنجاب تتراوح بين طفل واحد أو اثنين على الأكثر، رغم تشجيع الدولة على الإكثار من النسل ، والسبب فى ذلك أن الفترة التى عاشها الشاب أو الفتاة ما بين سن البلوغ إلى سن

الزواج تكون قد تسببت فى كثير من الأمراض الجنسيـة، وبالتالى تقل نسبة الإخصاب عند الجنسين معا .

وهناك أسبـاب أخرى تهدد المجتمـع بانقـراض أفراده، كـانتشار أمـراض الإيدز والهاربس وغيرها من الأمراض التى تفتك بالإنسـان وتودي بحياته، بالإضافة إلى أن المرأة هناك تـريد أن تحقـق ذاتها فى ميادين العمـل، فلطالما حدثـوها عـن الاستقلال الاقتصادى، والاعتماد على النفـس، وتحقيق الذات، والمشـاركة الإيجابية فى صنـاعة الحياة باعتبارها نصف المجتمـــع . وقـد نجح الشياطين هنـاك فى شحن عـواطفها ووجدانها بكثير من الشعـارات حتى يتاح لهم أن تكون المرأة تحت أبصـارهم، أو بين أحضانهم كلما شاء وا وشاء لهم الشيطان والهوى .

فكانـت النتيجة أن خـرجت المرأة إلى مجالات العمـل دون مراعـاة للفروق الفـردية والنفسية والجسدية بينها وبين الرجال .

وفى مجتمعات مادية لا ترحـم، وتحت وطأة الحياة واحتياجاتها و إيقاعاتها السـريعة نسيت المرأة فى زحمة الواقع أمومتها .

فـإذا أنجبت فـالإنجـاب مشكلة، لأنها لا تملـك غير عيونها الـزرقـاء، وشعرهـا الذهبى، وبشرتها البيضاء، ورشاقة خصرها، وجمال قوامها، والحمل يحدث تغيرات فى ذلك كله .

إن الحمل يجعلها مترهلة، منتفخة، ويُغَيِّر مـن ملامح شكلها، وقسمات جمالها، التى هى كل رأس المال لديها . . . ومن هنا ينشأ العزوف عن الحمل، والإعراض عن الولادة، فـإذا تغلبت نـوازع الأمومة فيهـا واستجابت لنـداء فطرتها وحملـت وأنجبت فتلـك مشكلة أخـرى، لأن الضيـف القـادم للوجـود مـن جـديد ليـس كغيره مـن الضيوف، إنـه يحتاج لرعـاية، وعنايـة، ورضـاع، وتغـذية، وحضانـة . . . ووجوده يعوق حيـاتها ويحول بينها وبين مـا تشتهيه مـن سهرات المسـاء والسفر فى الإجـازات والخروج مع الأصدقاء .

وقد وصل الأمـر ببعض الأمهات أنهن يسافـرن لقضاء الإجازات WEEK END عطلة نهايـة الأسبوع ويتركـن أطفالهن، ثـم يعدن ليجـدن أطفالهن قـد فارقـوا الحياة وأراحوهن مـن عبء الرعايـة والاهتمام، وتلك مشكلة جديـدة أصبحت واضحة فى أوروبا كلها.

أما حميـة الأب وعواطـف الأبوة لـديه، وغيرتـه على أولاده، وخوفـه عليهم، فقـد تقطعت روابطهـا هى الأخـرى، لأنه فى داخـل نفسه يشـك كثيرا فى مصداقيـة نسبة الأولاد إليه، فـزوجته تقضي الأغلب الأعم مـن إجازتها مع صـديق لها، وربما فى غير المنطقة التى يعيش فيها الزوج السعيد.

وهذا الـزوج لا يدرى مـا الذى حدث.. وربما يـدرى أيضا... ومـاذا فى ذلك فهى مسألة عادية... ويستطيع هو الآخر أن يقضى WEEK END مع صديقة له إذا شاء... وبالتـالى فهو يشك كثيرا فى مصداقية نسبـة الأولاد إليه، ولا يدرى على وجه التحديد هل هذا الولد من صلبـه هو أم أنه من رجل آخر...؟ وهذا ما يجعله يستقبل موت الأطفال بشيء من البرود وعدم الاكتراث.

هـذه هي بعـض الأسباب في تعليـل ظاهـرة النقص المضطـرد في تعداد السكـان عندهم.

وبدلا من معالجة الظاهرة بقطع أسبابها، وتجفيـف منابع الرذيلة لديهم... بدلا من أن يهتموا بذلك، فإنهم يُصدِّرون إلينا أمراضهم، ويجبروننا على تعاطيها، ويريدون أن ندمن عليها، وأن نحميها بسياج القانون الدولى وتحت علم الأمم المتحدة.

أرأيتم سخفا أكثر من هذا السخف؟ أرأيتم عنصرية وتعصبا أكثر من هذا؟

إن الصراع فى أصله وأساسه وفى أبعاده الحضارية، صراع فكرة ضد فكرة، ومنهج ضـد منهـج، وحضـارة تـريـد أن تفـرض نفسهـا، وفلسفتهـا، ونمـط حيـاتها على الآخرين.

وتخترق من أجل ذلك سيادة الدول وعقائدها، وأخلاقها، وقيمها، وأعرافها، دون اعتبار لخصوصية كل مجتمع من حيث دينه وحضارته وتقاليده.

إنه نوع من الاستعمار الجديد يتوشح بوشاح التنمية، ويلوح بعصا المعونات، ويخيف الآخرين حينا بالبنك الدولى وصندوق النقد، وحينا آخر بأنواع الحصار والمقاطعة.

والغريب العجيب أنه يريد أن يؤصل هذا الظلم بالشرعية الدولية ويحميه بعلم الأمم المتحدة.

فهل هذا مؤتمر للتنمية ؟ أم أنه مؤتمر للاستعمار الجديـــد ؟

إنه مؤتمر يكرس الظلم، ويحول الكم البشرى الهائل من أبناء العالم الثالث إلى سوق استهلاكية تابعة تقنع بالقليل، وتكتفى من الغرب الغنى بالفتات الذى يتفضل بإلقائه إليهم ثم تعيش على فضلات معوناته كما تعيش القطط الضالة على فضلات الطعام فى ليالى الشتاء المظلمة.

وتغفل أو تسكت إلى الأبد عن المطالبة بحقها فى الحياة الكريمة، وبنصيبها فى ثرواتها المنهوبة وترتبط بذيل حضارته وبألف رباط من التبعية والتخلف والعجز المذل.

ذلك كله ليبقى الرجل الأبيض وريث الحضارة الرومانية القديمة سيدا يحكم العالم، ويتحكم حتى فى نسله، ويأمر وعلى الدنيا أن تجيب وأن تطيـــع.

لكنهم يغفلون عن سنة الله فى الكون، وأنه غالب على أمره، كما ينسون عدالته فى الحساب، ودقته فى الجزاء، وأنه سبحانه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١).

صدق الله العظيم

---

(١) هـــود ١٠٢.

فـاتـورَةُ الْـحِـسـابِ

أحيانا يحار المرء ويتساءل :

ألسنا كمسلمين على حق ؟ أليس أعداؤنا على باطل ؟ أليس لدينا منهج غيّر العرب قديماً وبهم غيّر الدنيا، وعدّل مسيرة التاريخ ؟ وعن طريقهم صنع حضارة وأقام للعلم منارات لا تزال تفعل الأعاجيب ؟

ألم يحدث هذا كله ؟ فلماذا تأخرنا وتقدم غيرنا ؟ ولماذا تخلفنا وسبقنا الأعداء ؟

وإذا كنا لا نزال نملك في عالم المادة آليات النهضة، وأسباب الانبعاث ومقومات الإقلاع الحضاري، فلماذا لا ننهض ؟

ولماذا نعيش عالة على غيرنا ؟

ولماذا يظل مستقبلنا رهينا بإرادة الآخرين ؟

تلك تساؤلات تطرح على النفس في حالات الضيق - وما أكثرها - ولحظات اليأس وبفضل الله - ما أقلها - ولولا فضل الله لأحاطت بالنفس مآس شتى فقتلت فيها كل تطلع للأمل، وكل رغبة في النجاة، ومن ثم لماتت في الإنسان إرادة الحياة.

والحقيقة أن هذه التساؤلات لها موضعها من التقدير العقلي كطرح يشخص الواقع بما فيه من مرارة، ويبحث عن مخرج وملاذ لا أقول من أزمة واحدة، وإنما من عدة أزمات، فالمسلم الآن لا يعيش أزمة واحدة، وإنما يعيش عصر - الأزمات - بالجمع.

فهو من ناحية مؤرق، ومكبل، ورهين، وسجين لمجموعة من الأوهام والقيم السالبة.

وهو من ناحية أخرى مُفَزَّعٌ ومكتئب، وقلق في ليله ونهاره، وغير مطمئن على حاضره ومستقبله. وتلك حالة تستولي على مشاعره العامة، وإن حاول إخفاءها وسترها بأساليب متعددة.

من المهم والحالة هذه أن نحاول - جاهدين وقدر الطاقة - أن نواجه أنفسنا بشيء من الصراحة والوضوح، وأن نضع النقاط على الحروف في الإجابة عن تلك التساؤلات.

سر الداء وأسباب العلة

وإذا حاولنا أن نرد مظاهر العلل إلى أسبابها فإننا وبشكل موضوعي سنكتشف أن تلك الأزمات كلها تنبع من مشكلة واحدة هي أم المشكلات ألا وهي: الأزمة مع الله.

وقد يبادر أحد الأشخاص ويقول معترضاً: ليس ذلك صحيحا، فالآخرون لا يؤمنون بالله أصلا، أو يؤمنون به على نحو منحرف ومع ذلك لا يعيشون ما نعيشه من أزمات، فهنالك التقدم والحضارة، والتقنية العالية، والإنسان هناك لا يعيش أزمة حرية، ولا يعاني من القهر والانسحاق كما يعاني الإنسان المسلم اليوم، كما أنه لا يعيش الحرمان بصوره المختلفة الدينية والاجتماعية، فكل شيء عندهم مباح بلا قيد.

فكيف يتسق هذا القول بإرجاع الأزمات كلها إلى أزمة واحدة هي الأزمة مع الله؟ والحقيقة أن هذا الاعتراض له وجهان:

وجه صحيح نتفق فيه معاً. ووجه آخر غير صحيح لا نتفق فيه.

وبداية لا بد من التفريق بين الإنسان المسلم الذي يُفتَرَض فيه أنه يعرف الله ويعيش حالة من الحضور العقلي والوجداني مع قيم السماء، ومن ثَمّ يعيش حالة الممارسة اليومية لكل سلوكيات الإسلام في حياته.. وبين إنسان آخر لا يؤمن بالله أصلا أو يؤمن به على نحو منحرف.

فالأول لديه منطلقات عقائدية يجب أن ينطلق منها، وأن يلتزم بها، كما يجب أن تكون توجيهات منهجه مسيطِرة وموجِّهة لكل سلوك، وضابطة لكل تصرف في حياته.

وكلاهما في التعامل مع الكون المادي والحياة المحسوسة متساويان أمام سنة الله في الكون وأمام قوانين المادة.

فالمسلم إذا قصر أو تجاهل أو تخلف لا ينفعه إيمانه في هذا المجال، بل غالبا ما يكون تقصيره منافيا لمبادىء دينه وتوجيهات رسالته التي جاءت لِتُعَمِّرَ الكون وتُرَقِّي الحياة وترفع قدر الإنسان وكرامته؛

وبالتالي فليس من المنطق أن يتساوى الـمُجِدُّ والـمُقَصِّر والكادح والكسلان. وميزان الله ومعيار العدالة يرفض ذلك وتأباه.

لكنه في الوقت نفسه يرفض أن ينسب هذا التقصير إلى دين الله، وأن تُحَمَّل أخطاء الأتباع على الفكرة ذاتها، أو أن تنسحب كل التصرفات السلبية على المنهج، بل لعل سر الداء في تلك القضية أن المسلم المقصِّر ليس لديه الوعي الكامل بمقاصد دينه وأهداف رسالته، فالعيب فيه هو، في تركيبته العقلية، وصياغته الوجدانية، وطريقة تربيته منذ البداية.

فقد تناول الدين شعائر وطقوساً، وتلقاه في مراحل تعليمه هكذا دون أن يلتفت هو أو يُلفِتَهُ مَنْ علّموه إلى أن ساحة العبادة تشمل ميادين الحياة الواسعة، زراعةً وتجارةً وصناعةً.

وأن البراعة في علوم الكون وعلوم المادة وشؤون العمران وفنون الحرب والسلام هي التي تُمَكِّنُ لدين الله في الأرض، وترفع قدر الإنسان في الدنيا، كما أنها تمهد الطريق أمامه إلى مستقبلٍ مشرقٍ عند الله في الدار الآخرة.

يقول رسول الله ﷺ: « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفرٍ الجنة

١- صانعه يحتسب في صنعته الخير.
٢- والرامي به.
٣- ومنبله.(١)

[أي الذي يقوم على صيانته وتوفير قطع الغيار له وتجهيزه لأداء مهمته].

وإذا كان الإيمان بضعا وسبعين شعبة، فإن الشعبة الأولى فيه تبدأ من أساس العقيدة [أعلاها لا إله إلا الله] لكنها تمتد بآثار الجمال والخير حتى تتناول نظافة الشارع، وتجميل الطريق بإماطة الأذى عنه، وكل ذلك يدخل في مجال العبادة ويندرج تحت التكليف الشرعي وله عند الله ثوابه ويضاف إلى رصيد الإنسان كعبادة تعدل الصلاة والصيام والحج.

ولئن تناولت توجيهات المنهج أساس العقيدة بدايةً ونهايةً، فهي بين البداية والنهاية لم تقف عند الحدود النظرية التي تكتفي من الإيمان بمجرد سبحات الفكر أو سوانح الخاطر، أو تقف به عند حدود الشكل الظاهري في الشعار والسمت فقط،

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وأبو داود والدارمي - راجع مشكاة المصابيح كتاب الجهاد، المجلد الثاني ص١١٣٧ تحقيق الألباني، طبعة المكتب الاسلامي.

وإنما تمتد لتشمل تخطيط المدن، وإقامة العمران، وتحقيق العدالة، ونشر الثقافة، وإشاعة الخير، وتحجيم الشر بمحاولة منعه منذ البداية أو على الأقل حصره في نطاق محدود.

تلك هي وظيفة المنهج في أولياتها، ولو سألنا أنفسنا في لحظات الصفاء عن الدين الذي يهتم بنظافة الشارع وتنسيقه فكيف لا يهتم بنظافة العقل، ونظافة المشاعر، ونظافة الصدور، وذلك بتخليصها من الضغائن والأحقاد، وعوامل الأثَرة، والتطلع المجنون لما عند الآخرين، وإخراجها من كهوف التخلف، وعشق الذات وجنون العظمة.

معيار الاسلام والتدين المردود

ذلك هو المعيار الذي وضعه الإسلام للمجتمع المسلم وللفرد المسلم. وقد سلك الدين كل الطرق لتحقيقها وإقامتها بالتربية وتزكية النفس وسائر أنواع العبادات.

فإذا رأيت إنسانا منحه الله العقل ثم هو لا يستخدمه أصلاً، أو يستخدمه بشكل يضر بنفسه وبالمجتمع والبيئة المحيطة به فاعلم أنَّ تدينه مردود عليه، وأن عبادته لا ترتفع فوق رأسه قيد أنملة، لأنه لم يتأثر بالمنهج الذي علم الشخصية المسلمة أنه «لا ضرر ولا ضرار» وأن من أكبر الكبائر «الشرك بالله والإضرار بالناس».

وإذا رأيت إنسانا بليد الحس، ميت العاطفة، جامد المشاعر، تُنتهك أمامه حرمات الله ولا يتحرك.

[وحرمات الله هنا ميدان واسع يشمل كل مخالفة، وكل جنحة وكل جناية في حق النفس أو حق الآخرين أي أنها ميدان يشمل كل ما نهى الله عنه] فإذا رأيت إنساناً تُنتهك أمامه هذه الحرمات ولا يتحرك، فاعلم أن تدينه يقف عند حدود

السطح، ولم يتجاوز الشكل الخارجي، وأن عباداته مهما كثرت وتنوعت فهي مجرد طقوس شكلية، يتلهى بها عن المضمون والجوهر، ويقف بها عند حدود الظاهر من المظاهر التي لا تزكي نفسا، ولا تهذب خُلُقاً ولا تغني عن صاحبها فتيلاً.

وإذا رأيت إنسانا يبحث عن نقاط الضعف في الناس لِيُعَيِّرَهُم بها، أو ينتقص عن طريقها من قدرهم وقيمتهم، ويفرح لخطئهم، ويَتَشفَّى فيهم، فاعلم بأنه محروم من ثمرة تدينه، وأن شره يغلب خيره، وأن ضغائنه وأحقاده تطفو فوق السطح، وتنضح غِلاً وأذًى، وأنه يداري تلك السوءات بشيء من مظاهر التدين التي لم تهذب مشاعر الحيوان فيه، والتي قد تنطلي على الناس زمناً ما ولكنها لا يمكن أن تنطلي على الله أبدا.

تلك هي أخطر الأمراض وأشدها فتكاً بشخصية الفرد المسلم والمجتمع المسلم.

تراجع القيم الدافعة وسر التخلف

لكن الخطر لم يتوقف عند هذا الحد، بل انعكست كثير من التصرفات السلبية في شخصية الفرد والمجتمع على مجموعة القيم الاجتماعية الد افعة للمجتمع، والمؤثرة في بنيته ونسيجه من حيث التقدم والتخلف.

فمثلاً العمل كفريضة دينية، وكقيمة نفسية تربوية، وكأساس للتنمية الاجتماعية والاقتصادية، نحن لا نعطيه قدره من العناية والرعاية، ليس على المستوى التطبيقي فقط، و إنما على مستوى التوجيهات الدينية والإعلامية التي تصوغ وجدان الرأي العام، وتشكل عقلية الفرد الناضج في الزمن الراهن، وتصنع عقليات الأجيال القادمة.

والناتج الحقيقي لمجتمعات المسلمين بالنظر إلى ساعات العمل الحقيقية مضحك ومخجل في الوقت نفسه.

ذلك بالإضافة إلى مجموعة من السلبيات التي أضحت تشكل مرضاً مخلاً بخلايا المجتمع العام مثل التسيُّب، والفوضى، والاتكالية، والكسل، والخمول في الأداء الوظيفي، والروتين العام الذي يبدد الوقت، ويقتل النشاط، ويهبط بالهمم العالية.

ذلك فضلاً عن روح المحاكاة والتقليد التي تسيطر على الناس في مجالات الأداء الوظيفي فتميت الملكات الإبداعية، وتحيل الإنسان العاقل المفكر إلى آلة تؤدي بعض وظائفها فقط، وبرتابة فاشلة ممقوتة، وكأنه لا عقل له، ولا مشاعر فيه، ولاملكات لديه.

هذا هو الواقع في مجال الأداء اليومي، وهو ينعكس - قطعاً - بآثاره السلبية على المجتمع والأمة تراجعاً وتخلفاً في كل الميادين.

فهل تصلح هذه الشخصية وهي على هذا المستوى من الهبوط والتدني لقيادة العالم، وحمل الرسالة، وتولي مسؤولية التوجيه والرشد؟

وماذا لديها تقدمه للناس؟

إن فاقد الشيء لا يعطيه كما يقولون، وطريقة حياة أُمتنا مليئة بالسلبيات القاتلة، والدين الذي تتحدث عنه، وكان يجب أن تعتصم به، وتحتمي بقيمه ومبادئه لا يسيطر بتوجيهاته على سلوكها، ولا يضبط في مجالات الحياة أغلب تصرفاتها.

إنه - إن وجد - فمظاهر وعادات، تُؤدى بشكل أشبه بالأداء الديناميكي، الذي يفتقد الإحساس والمضمون، ويخلو من روح الإخلاص، وينفصل عن الحياة والناس.

فالمسجد في وادٍ والإعلام في وادٍ آخر.

والبيت في وادٍ والمدرسة في وادٍ آخر.

وما يقال هنا غير ما يُمَارَسُ هناك.

والمجتمع مليء بالتناقضات المخيفــة.

الأداء الشاذ وتعطيل الكفاءات

وهكذا كل المرافق لا يربطها عِقد واحد، ولا تعمل في أداء متوازٍ، وإنما كل يعمل بطريقته وبأسلوبه الخاص.

وإذا كان الأداء المتوازي يصب في مجرى النفع العـام للمجتمع والأمة، فإن الأداء الشاذ بحركة انعكاسه وتناقضه ضد بعضه البعض يعطل الكفاءات، ويشل الإرادة، ويصيب المجديـن بالإحباط، ويحدث نوعا من الازدواجيـة والانفصال، كما يتسبب في حرمان الأمة من ثمرة جهود أبنائها.

ولئن كانت هنالك جهود فردية مبدعة ورائعة، فهي لم تلبث أن تصطدم وتتحطم أمام البيروقـراطية القـاتلة والروتين السـام، ومن هنـا لا تلبث هـذه الجهود أن تموت وتندثر وسـط بيئـــة لا تقـدر المجدين والمبدعين، ولا تعرف كيـف تستفيد بجهود أبنائها، وبالتالي فالمحصلة النهائية على النـاتج العام تحسب بالخصم من رصيد الأمة وليس بالإضافة.

وهـذه الحالة لا تسبـب التـوقف والجمـود في المجتمع فقـط، وإنما تـرجع بـه إلى الوراء، وتـرتد به القهقرى، فيعيـش حالة مـن التخلف المزري الذي يحيله عـالة على غيره من الأمم، ويجعله فريسة لكل طامع وأسيراً لكل معتدٍ أثيم.

ووسط هذا الجو الكئيب والمملوء بآفات التخلـف والضياع تبحث العقول المبدعة

لنفسها عن منفذ وملاذ فلا تجد مكانا وتقديرا إلا في أحضان الغرب، الذي يحرص بدوره دائما على استنزاف عقول أبناء الأمة، والاستفادة منها، وحرمان مجتمعاتها الأصلية من ثمرات جهودها وعبقرية عقول أبنائها.

ومن هنا يظل التخلف لنا والتقدم لهم.

و إذا كانت طبيعة الحياة لا تعترف بحق إلا لـلأقوياء، فإن الضعف والهوان يكون من نصيب المسلمين وحدهم.

وهكذا يُخَطَط ويراد لأمتنا أن تعيش على هامش الحياة دون أن يكون لها حضور أو تأثير.

و إذا كـان الدين الـذي نـزل من السماء قـد رفـع أمتنـا قديما إلى مكـان القيـادة والريادة، وبوأها مكانة التقدير والإعزاز.

فإن المسلمين في عصرهم الحالي قد تخلوا عنه، وهبطوا دون مستواه، وفرطوا في قيمه ومبادئه، وذابت هويتهم ومكوناتهم النفسية، ومقوماتهم المعنوية، وبالتالي فقد تحولوا - رغم الكم العددي الكثير [مليار وخمسمائة مليون نسمة] - إلى شيء لا طعم له، ولا لون، ولا رائحة، يستهلك ولا ينتج، ويأخذ ولا يُعطي، وينفعل ولا يفعل، ويتأثر ولا يؤثر، ويستقبل فقط ولا يرسل.

نعم هم من حيث الكم كثير، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ « غثاءٌ كغثاء السيل » لا يصلح لشيء حتى ولا حطبا للنار.

فهل هـذه الأمة هي التي أرادها الله أمة وسطاً واختارها لتكون شهيدةً على أمم الأرض كلها ؟

أم أن شيئاً خطيراً قد حدث غَـيّر الملامح والقسمات، وأحال أحرار الأمس، ورواد

النهضة، وقادة الحريـــة، ومشاعل النور إلى قطيع مـن الأسرى، يعيشون التخلف والضيـاع، ويعـانون التبعثر والتمـزق، ولا يجيـدون إلا العراك ضـد بعضهـم، ولا يتحركون في كل شيء إلا بإشارة وتصريح ممن ليسوا من دين الله على شيء.

قضية التمكين وعدالة القانون

وإذا كان هـذا هو وضـع المسلم المعـاصر فكيف يتحقـق له التمكين في الأرض، وكيف يستعيد مكانته وهو يعيش هـذه الحالة، ولا تتوفر فيه شروط الخلافة عن الله ؟ ولا حتى عناصر الإيمان الصحيح ؟ فهو بهذا الوضـع لم يفلح في دين ولا دنيا، بل قد أضاع دينه ودنياه وضيَّع نفسه وأمته.

وفي المقابل فإن الكافر - الذي لا يؤمـن بالله أصلاً، أو يؤمن به على نحوٍ منحرف - ويلتزم بسنـة الله في الأسباب، ويحترم بكـده وكفاحـه قوانين المادة، ويبـذل الجهد والعرق في إتقان فنـون الحياة وشؤون الدنيا فـإن عدالة الله تأبى أن يُحرم مـن ثمرة هذا الكفاح في الـدنيا ولـو كان كـافراً فعليـه كفره، وسيحـاسب عليـه عند الله في الـدار الآخرة.

وإذا كـان الآخـرون يحترمـون قـوانين الطبيعـة، ويُجِدُّونَ في التعـرف على المادة وخصائصها وقوانينها، ويستفيدون من كل دقيقة في حياتهم، ويوظفون عنصر الزمن ممثلا في احترام الوقـــت؛

وعنصر العلم ممثلا في احترام العقل، وتوفير الإمكانيات لـه؛

وعنصر المادة ممثلا في احترام المال وحسن استخدامه صرفاً واستثماراً.

فإننا دون أمم الأرض جميعاً أكثر الناس تفريطا في هذه العناصر واستهانةً بها.

وإذا كان ديننـا ينشيء علاقة عاقلـة بين الكائن والكون، ويقيم البنـاء الحضاري

على تلك الركائز التي استفاد منها أعداؤنا وسخروها لخدمتهم، فهو لم يكتف بلفت الإنسان إليها وتنبيهه إلى خطورتها في تقدم الأمم ورقي المجتمعات فقط؛

و إنما جعلها محل حساب دقيق في أحرج المواقف وأشدها خطراً في تحديد مستقبل الإنسان أمام الله في الدار الآخرة.

يقول رسول الله ﷺ

« لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :

عن عمره فيم أفناه.

وعن شبابه فيم أبلاه.

وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه.

وعن علمه ماذا عمل به »[1].

فهل يمكن أن تكون هناك دعوة لاستثمار الطاقات وتوظيف العناصر أفضل من هذه الدعوة؟

إن الآخرين الذين لا يؤمنون بالله، أو يؤمنون به على نحو منحرف قد انصرفوا إلى إجادة أعمالهم، و إتقان فنونهم، والاستفادة من كل ما هو متاح لديهم، فكان من حقهم بمقتضى قوانين العدالة الإلهية أن يتقدموا، وأن ينتصروا، وأن يحققوا أقوى الإنجازات وأعظمها في عالم المادة، وأن يمسكوا - بموجب هذا التقدم - بكل خيوط اللعبة السياسية وتوجيه دفتها لصالح قضاياهم، وأن يسخروا كل المنظمات والمحافل الدولية لتحقيق أهدافهم، فهل يلامون إنْ فعلوا ذلك ؟

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته ح٦ ص١٤٨ ، تحقيق الألباني وكذا مشكاة المصابيح ص١٤٣٥ . .

وإذا كان هذا هو حالهم فما هو حال المسلمين في المقابل ؟

إنك إن نظرت يمنة أو يسرة لا تجد غير الفوضى والتسيب وتبديد الطاقات وضياع الوقت؛

وبالجملة لا تجد غير أمة تعيش على أطلال آبائها، وتحسن الحديث عنهم بكلام طويل عريض، لكنها لا تحسن اقتفاء آثارهم أو الاقتداء بهم .

تجيد سرد تاريخ البطولة لكنها تعجز عن محاكاة البطل .

بين جاذبية الماضي ومرارة الحاضر

لقد انقسمت أمتنا الى فريقين :

فريق اكتفى بالانكفاء على الماضي البعيد، يلوذ به ويستجير، ومن هذا الفريق شرائح وفئات :

فئة تجتر ذكريات الماضي، وتعيش في عالم من الوهم خارج حدود عصرها وزمانها، ترضى من الحياة بالقليل الدون تحت دعوى الزهد الموهوم أو الورع المتصنع لدى المقلين الذين تتطلع نفوسهم لكنّ أسبابهم عاجزة فماذا يصنعون ؟

وهؤلاء ينسحبون من الحياة بدعوى خاطئة، وشعار مغلوط يعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويترك ساحات الحياة للشياطين الهائجة تفعل فيها ما يحلوا لها، وهذا الشعار مضمونه وفحواه أن الله تعالى : [أقام العباد فيما أراد] .

وهي دعوى مردودة على أصحابها، لأن الله تعالى لا يريد بالناس إلا كل خير، ولأن الدين الذي نؤمن به ونعتنقه وننتسب إليه إنما جاء أصلا ليحرر إرادة الإنسان، وليجعل له دورا ومكانة في توجيه دفة الحياة نحو الحق والخير والجمال .

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (١) .

لكن أصحاب هذا التوجه ينسحبون من الحياة ولا يؤدون فيها دورا رائداً ؛

ولا يشكلون قوة مؤثرة - لا حجما ولا وزنا ولا دعوة - رغم أن المسلم يجب أن يكون عنصراً مشعاً لمبادىء دينه بالخلق العظيم، والسلوك الحسن، والممارسات الراقية، والموقف الإيجابي في كل شيء.

وفئة أخرى حاولت وتحاول أن تُوَفِّقَ أوضاعها، وأن تلتزم بما كان عليه السلف الصالح، وهذا موقف رائع في الحقيقة لو أن أصحاب هذا التوجُّه لم يغالوا في رفض كل جديد مُبتَكَر، ولو أنهم فرّقوا بوعي صحيح بين المقاصد والغايات، وبين الوسائل المؤدية إليها، ولو اتضحت في أذهانهم الفروق الدقيقة بين الثوابت والمتغيرات في شريعتنا الغــــراء، ولو التزموا في خطابهم مع الآخرين بالتي هي أحسن، وفتحوا صدورهم وعقولهم لقبول الآخر كطرف في الحوار قد يحمل على الأقل بعض الحقيقة، وقد يكون لديه شيء من الحق الذي ليس حكرا على أحد بذاته.

و إذا كان الحق لا يتعدد، فإن وحدة الحقيقة لا تمنع من تعدد وجهة النظر إليها، وفي الدين الحنيف الذي جاء ختما للرسالات ومصاحبا لمسيرة الإنسان إلى قيام الساعة، ومستوعبا لحاجات البشر في الطول والعرض والعمق ؛

ففي هذا الدين ما يدفع إلى فتح النوافذ والأبواب مع الآخرين، وضرورة الحوار الراشد الذي يستهدف الوصول بالإنسان إلى شاطيء الأمان في بحثه عن الحق والحقيقة معا.

---

(١) آل عمران ١١٠ .

إن هذه الفئة لـو فعلت ذلك، لأدت دوراً رائداً في رد الناس إلى دينهـم رداً جميلاً. بدلاً من المسارعة إلى اتهامهم بالابتداع والفسوق أحياناً والشرك أحياناً أخرى.

أما الفريق الثاني، فقد انكفأ هو الآخر، لكن في جهة معاكسة.

لقد التوَت أعناقه نحو الغـرب، فأضحى لا يرى، ولا يسمع، ولا يُعجب إلا بما يأتي من هناك،

وفي نظره لا خلاص ولا مناص إلا بالالتحاق والانسحاق،

أي أننا يجب أن نلتحق بهم ونذوب فيهـم، وبالتالي تنمحي من الوجـود هويتنا، وخصـائصنـا، ومقومـاتنـا، كلهـا ونصبـح خـلايا في بنيـانهم ونسيجـاً في لُحمتهـم الحضارية.

وهؤلاء لا يفـرقون بين الشيء والفكـر، ويفتقدون حاسـة التمييز بين عـالم الأشياء وعالم الأفكار، وهـم بهذه الدعوى التي يبشرون بها ويدعون إليها ويتحمسون لشيوعها وإشاعتها إنما يريدون منّا أن نرفع أيدينا تسليما وانهزاما،

وأن نتخلى عن كـل ما لدينا مـن تاريخ وتـراث، وبذلك فهم يحملـون لأمتنا شراً كثيراً.

وبين هـؤلاء وأولئك تقـف النخبة الـواعية الـداعية إلى الله بحـق، تنير الطريـق، وتضيء إشـارات الخطر حمراء، وتحاول إعـادة الوعـي المفقـود إلى الشخصية المسلمـة باستعادة مقوماتها ومكوناتها، وبعـث همتها وإحياء أملها في التطلع إلى حماية الكيان العام وتحقيق الذاتية الإسلامية المستقلة، وجهـود هؤلاء معروفة ومقدرة عند الله وعند المخلصين من خلقه.

ونزيد الأمر وضوحا حتى لا يبقى في الموضوع لَبْس .

فالمؤمن بمقتضى إيمانه مطالب بالتعرف على هذا الكون ، كما أنه مكلف بأن يتمكن منه ، وأن يسخر ما فيه من قوى وعناصر لخدمة الإنسان وترقية الوجود وإسعاد الحياة ؛

وكل تقصير في هذا المجال يعتبر باسم الدين كبيرة من الكبائر قد تزج بصاحبها في نار جهنم ، كما يعتبر باسم المجتمع والصالح العام جريمة ترفع عن الإنسان ثوب المروءة ، وتسقطه من عين المجتمع .

وإذا كان الغرب - الملحد أو المنحرف في عقيدته - قد أخذ بهذا المبدأ وانطلق في دنياه على ضوء منه ، وانصرف إلى الإفادة التامة والعامة من كل ما هو متاح لديه كما - أسلفنا سابقا - فإنه وبغير جدال سيغيّر من حاله ، ويخرج من كبوته ، ويتجاوز عصر الظلمات ، ومن ثَـمّ يحظي بثمرات جهوده تمكينا في الأرض ، وسيطرة عليها ، واستغلالاً لثرواتها ، وتسخيرا لما فيها من طاقات وقدرات لصالحه هو ، وهذا ما تم بالفعل .

وليبق العالم الإسلامي منقسماً على نفسه ، نائما في تخلفه ، وليذهب أهله إلى البحر - ليشربوا منه إن شاءوا أو لا يشربوا - ما داموا لا حيلة لهم ولا همة لديهم .

وحينئذٍ يكون دينهم في موقف الضد منهم ، بل هو حجة دامغة لهم ، ودليل على إدانتهم وتفريطهم ، لأن كتابهم الذي احتوى الحق والحقيقة كلها قد فصل في هذا الموقف وأفاض في تفاصيله ؛

قال تعالى :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ (١) .

وتأمل كلمة (لا يُبخسون) .

إنها كلمة تعني العدالة كلها حتى في معـاملة الكافريـن ما داموا ملتزمين بسنة الله في الكـــون، مطبقين لقوانين المادة، مجدين في التعامل معها .

﴿ وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ .

ولماذا يُبخسـون ؟ ولصـالح مَـنْ ؟ وقـد كدُّوا وتعبـوا وخططوا ونظموا!

إن الله تعالى لا يُحابي جنسـا بعينـــه، وليس بينـه وبين بشرٍ ما نسب حتى يقـدمه ويؤخر الآخرين .

لقد اقتضت عدالتـه أن يُعامِل شتى الأجناس بقانون موحـد، فمن أجاد وأحسن فلا بد أن يجني الثمر، ومن قصر وتخلف فلا بد أن يدفع فاتورة الحساب .

فهل يعي المسلمون هذه الحقيقة ؟

وهل يتفكرون من جديد؟

وهل يستعيدون وعيهـم المفقود ويفهمون حقيقة الـدين الذي يعتنقونـه وينتسبون إليه ؟

أم أنهم سيبقَوْنَ متخلفين عنـه، متنكريـن له، هابطين عـن مستواه ليـدفعوا دائماً فاتورة الحساب ؟

---

(١)هود ١٥ . .

ثمة روابط وثيقـة بين الدين والطب والحياة، فـإذا كان الطب بفنونـه المختلفة هو الذي يحمي صحة الإنسان فإن الدين بضوابطه المختلفة وتشريعاته المتعددة هو الذي يحمي سلامة الحياة . .

فأحدهما يحمي وظيفة الصحة ، والآخر يحمي وظيفة السلامة ؛

وكل منهما يلتقي عند هدف تحدده رسالته تجاه الإنسان وتجاه الحياة .

وإذا كان الطب يدور بفنونه حول الوجود الجسدي لحياة الإنسان ، فإن الدين بضوابطه وتشريعاته المتنوعة يشمل الوجودين معاً الجسدي والمعنوي لحياة الإنسان .

والدين بما يحققه في ذات الإنسان من توازن هو الذي يجعل لهذا الوجود هدفاً وغاية ، ويحدد من خلال ذلك قيمة الحياة ومعناها ، ويهدي إليها رشدها وهداها ، ويمنحها سلامة المقصد ، وسلامة الهدف ، وسلامة الوسائل والغايات .

وثمة فارق كبير بين الصحة والسلامة ، فقد يكون العضو صحيحاً من الناحية الجسدية ، ولكنه ليس سليماً من الناحية الدينية الروحية والنفسية .

ومن هنا كانت دعوة خليل الله إبراهيم

وسلامة القلب هنا لا تتمثل في صحته وقدرته على أداء الوظيفة المادية بضخ الدم في الأوردة والشرايين ودفعه إلى أجزاء الجسد .

---

(١) سورة الشعراء ٨٧ - ٨٩

وإنما هي تتمثـل في سلامته من مـرض الشرك المذل، والكذب، والريـاء والنفاق والحقد، والضغائن، وعشق الذات، وجنون العظمـة، وفتنة النفس بتزيين المعاصي وتحسين الآثام.

وكم مـن أجساد صحيحـة البنية الماديـة، ولكنها مـريضة مـن الناحيـة الروحيـة والنفسيـة بخلوهـا مـن طمأنينـة الإيمان وثقة اليقين بـالله، وخـرابها من قيـم الجمال والحق.

ويا لشقاء الإنسان وتعاسته عندما يعيش الحياة بشق واحد فقط يبحث فيـه عـن ضرورات الجســد ومطالبه، بينما تذبل فيه أشواق الروح وتموت.

وإذا كان الطب يجعل الإنسان بصحته مقبلاً على الحيـاة، فإن الدين بما يوجده في النفس الإنسـانية من بـواعث وحوافـز هو الذي يحرك في الإنسـان إرادة خير الحياة، حيث يربط كل عمل فيها بنوعين من الجزاء :

أحدهما في الدنيا بتوطيد المكانة، ورفع القدر ، وعزة الإنسان، وذلك ما يجتمع في الحياة الطيبة.

والآخر في الآخرة بـإعلاء الشأن على رءوس الأشهاد، ودخـول الجنة، ورضوان الله وجمع الشمل في زمرة الصالحين من عباد الله المخلصين.

قال تعالى :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) .

---

(١) سورة النحل ٩٧

والطب في منظورالإسلام فـن من الفنون، وعلم من العلوم التـي يحتاجها المجتمع ولا تقوم حاجة الناس إلا بها.

وبالتالي فتعلمه وممارسته والبراعة فيه فرض مـن فروض الكفاية على من تأهل له، وقدر عليه، ووجدت لديه الملكات والكفاءات لدراسته والبراعة فيه.

وهذا الفرض إذا قام به البعض سقط عن الباقين؛

إذ يستحيـل أن يتحـول كل النـاس إلى أطبـاء، وإنما يتـوزعون على فنـون الحيـاة المختلفة كل حسبما تؤهله له قدراته الخاصة، وملكاته الذاتية.

ولما كان الإسلام ديناً يستوعب حاجات الناس طولاً وعرضاً وعمقاً.

طـــولاً في الزمان.

وعرضاً في المكان.

وعمقـــاً في تجدد الحاجات وتنوع المطالب في الضرورات والمرفهات.

ولما كان الإسلام يستوعب الزمن في أبعاده الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل.

ويستوعب المكان برغم تنوع المواقع الجغرافية وتباعد الحدود وتنوع البيئات.

ويستوعب حاجـات الناس المتجددة والمتعددة بتعدد الأجيال وتعـدد المواطن مع الزمان واستطالته، ومع المكان وامتداده.

لما كان الإسلام كذلك فقد أضحت الدنيا بساحاتها المختلفة وتنوع الاختصاصات والتخصصات فيها، أضحت قسماً من الدين وليست قسيمة له كما يدعون.

وبالتالي فلا يمكـن أن يكون هناك تناقض أو خصام بين الديـن والدنيا، إذ كيف يتصور في العقل أن يخاصم الكل أبعاضه وأجزاءه التي بها يتم وجوده ويتكامل ؟؟

ومع إيمان المرء المطلق بـأن كل شيء بيد الله وحده، وأن ما أصابـه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكـن ليصيبه، فإن احترام قانون السببيـة جزء من الديـن، والأخذ به امتثال لسنة الله في الأخذ بالأسباب، ومن هنـا كانت توجيهات رسول الله ﷺ للناس بالتداوي فيمارواه الشيخان.

(عبـاد الله تداووا. فـإن الله لم يضـع داء إلا وضع لـه شفـاء، غير داء واحد هـو الهرم).

وأيضاً فيما أخرجه البخاري : قوله عليه الصلاة والسلام : (ما أنزل الله من داء إلا أنزل لـه شفـاء).

وتلك دعوة رائعة مـن رسول الله ﷺ تفتح بـاب الأمل لليـائسين مـن المرضى مما يكون له الأثر الإيجابي في سرعة الشفاء.

كما تفتـح بـاب البحث العلمـي أمـام الطبيـب المسلـم في طلب الشفـاء لمرضـاه بالمحـاولات الدءوبـة والتجارب التـي لا تتوقـف للبحث عـن دواء للأمـراض التي يستعصي علاجها ويتعذر الخلاص منها،

وذلك يتم بدافع من إيمانه بأن الـداء شيء يدخل في قدر الله. وما دام كذلك فهو مخلوق لله الذي خلق كل شيء بقدر.

وبالتـالي فعلاجـه يدخـل في دائرة الممكنات بنـص حديـث النبي ﷺ، وكـذلك باستجلاء الواقع حيث لا يأس أمام المحاولات المستمرة والتجارب الدءوبة.

وكم من أمراض كانت بالأمس القريب مستعصية، ثم وفق الله بعض خلقه لمعرفة دوائها، وأقدرهم عليها وشاع هذا الدواء وانتفع به المرضى في كل مكان.

فهل يمكن أن تكون هناك دعوة للأمل والبحث واستمرار التجارب أفضل من هذا التوجيه ؟؟

إن الأمر لم يتوقف في مفهوم الإسلام عند الإشارة إلى الداء والدواء والبحث والتطبب فقط . لقد تجاوز ذلك وزاد عليه .

فالقرآن الكريم بإشارة ذكية لبقة ، استخدم الحقائق العلمية كدليل للإيمان بالبعث والجزاء بعد الموت ، ووظف تلك الحقائق كوسيلة لإقناع العقل المدرك على صدق القضية .

واقرأ معي قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ (١) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢) .

(١) سورة الحج ٥ - ٧ (٢) المؤمنون ١٢ - ١٧

والجملة الأخيرة في النص القرآني ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ توحي بعناية الله لكل شيء في هذا الوجود، كما أنها أيضا توحي بحضوره ورقابته لكل صغير وكبير في هذا الكون، وتخلق في الإنسان المسلم يقيناً قاطعاً بأن الله يراه في كل حال؛

وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يرتبط عمل الطبيب بشرف القصد وسمو الغاية ونفع الناس.

وقد اعتبر الإسلام البراعة في علوم الكون وعلوم الحياة سياجا يحمي الإيمان وأهله، ويدعم مكانهم ومكانتهم في دنيا الناس، ويوم أن يمارس الطبيب عمله بهذا التصور فيكون الله في باله وهو يشخص الداء ويصف الدواء، ويرعى في كل مريض حق من خلقه، فإن عمله هذا يتحول إلى عبادة من أعظم العبادات وأجلها قدراً،

وبالتالي تتجسد فيه كأسوة وقدوة قيم الخير والجمال والحق، وتنعكس من خلال نظافة سلوكه وذكاء عقله أشعة الإيمان وما تحدثه في النفوس من آثار بعيدة المدى في وجدان من يراها، ويتحول هو إلى عابد ذاكر لله وإن لم ينطق لسانه.

وتكون دعوته بالعمل الصامت أبلغ أثراً من كل الكلمات، وأرق وأجدى من كل عبارات البيان والبلاغ.

فهنيئا للأطباء حين يعرفون ربهم ويراعون وجهه، وطوبى لهم وحسن مآب.

اَلْإِيمَانُ ..
بَيْنَ النَّفْى وَالْإِثْبَاتِ

للإيمان ثلاثة أنواع من الوجود لا يتم إلا بها، ولا يتحقق إلا من خلالها، كما أنه لا يؤتي ثماره المرجوة في النفس البشرية وفي المجتمع والأمة إلا اذا تحققت الأنواع الثلاثة، واذا أردنا أن نشبه الأنواع الثلاثة من الوجود الإيماني برسم هندسي فأقرب الرسوم الهندسية تطابقاً وتشابهاً هو المثلث.

والمثلث رسم هندسي له أضلاع ثلاثة. بضلع واحد فقط لا يسمى مثلثاً، كما أنه بضلعين اثنين لا يكون أيضاً مثلثاً.

وإذا توافرت الأضلاع الثلاثة ولكنها كانت منفصلة وغير متصلة ببعضها فلا يكون مثلثاً أيضاً،

وإنما لا بد كي يكون المثلث مثلثاً أن توجد الأضلاع الثلاثة، وأن تكون متصلةً غير منفصلة، وفي بناء هندسي واحد.

كذلك الإيمان قد يتوافر منه نوع من الوجود اللفظي مثلاً أو القلبي... ولكن الوجود اللفظي في جهة، والوجود القلبي في جهة أخرى كما هو الواقع الآن وقد يتصلان أحياناً.

واذا أردنا أن نُفَصِّل هذا الأمر بشكل أوضح فإننا نقول:

إن الإيمان الحقيقي لا بد أن تتوفر فيه عناصر ثلاثة:

١ - أولها الوجود اللفظي

ويعبر عنـه بالمنطـوق الكـلامي ويتمثـل هذا الـوجـود ويتحقق حين ينطـق المرء بالشهادتين «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

وهذا النوع من المنطوق يرتب لصاحبـه حقوقاً في المجتمع المسلم، فهو بعد النطق بالشهادتين من حقه أن يعامل في مجتمع المسلمين باعتباره مسلماً.

وتجري عليه أحكام الشريعة في الزواج والطلاق والعدة والميراث،

واذا مـات يغسل بطـريقـة المسلمين، ويصلى عليه ويـدفـن بطريقـة المسلمين، وكذلك تقسم تركتـه، هذا، إذا مات . أما في حال حياته فإن الشريعـة تحفظ له دمه وماله وعرضه بموجب حديث النبي ﷺ والذي جاء فيه:

«بحسب امـرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلـم، كل المسلم على المسلـم حرام: دمه، وماله، وعرضه»[(١)].

وطبيعي أن إيقاع الضرر به من أي نوع يكون حـراماً كما تصان له حريته في التعبير وحقه في تولي الوظائف العامة.

ويـلاحظ أن الحديـث المذكور لم يتنـاول التفاصيـل الأخـرى التي تتصـل بالغيبـة والنميمة وايقـاع الضرر به مـن أي نوع، وإنما ركز الحديـث فقط على الـدم والعرض والمال باعتبار الثلاثة أساس مقومـات الوجود الإنساني، واذا هُدِّدَ الإنسان في واحدة منها أو فيها كلها فـإنه لا يلبث أن يخضع وأن يخنع وأن يذل، أمـا إذا كانت في حماية الشريعة كان صلب العود، قوي الإرادة، لا يخضع للمؤثرات الأخرى، ومن هنا كان تخصيص الحديث لهذه الثلاثة بالذات.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي مجلد ١٥، ١٦ ص١٢١ الطبعة الثانية دار احياء التراث العربي - بيروت لبنان سنة ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

لكن ذلك لا يعني أنه مستباح الحرمات في الحقوق الأخرى، كحقه في التعبير عن رأيه، وكحقه في اختيار العمل المناسب، وكحقه في الزواج ممن يريد، والسفر أو الانتقال من مكان الى مكان،

وإنما تناول الإسلام الأساسيات التي أمامها تُشَلُّ الإرادة البشرية ويعجز الفرد تحت ضغطها عن المقاومة، ويستسلم تماماً اذا هدد في واحدة منها لمن يهدده.

فأراد الإسلام أن يضمن له هذه الثلاثة،

وأن يحميها بسور كلّي لا يجوز أن يتحداه أو يتخطاه أحد.

والسور الكلي هذا، سور عام سَوَّر به الإسلام حياة الإنسان الخاصة والعامة ويدخل في نطاق هذا الصور تفاصيل كثيرة تدخل ضمن قائمة الأمور التي يحرم على الفرد أو المجتمع أن يتجاوزها في التعامل مع هذا الإنسان.

وبهذا ضمن له أساسيات في الحريات العامة كلها تتصل بالهيكل الأساسي لبناء الإنسان فرداً أو مجتمعاً، فاذا أمن الإنسان على نفسه وماله وعرضه عاش حر الإرادة مستقل القرار دون خوف يتهدده.

لكن هل يكفي هذا الوجود في الدلالة على الإيمان؟

لا، بل لا بد أن تنضم وتضاف اليه العناصر الأخرى والتي تتمثل في الوجودين القلبي والعملي معاً، بدليل أن كثيرين نطقوا بالشهادتين دون أن يتحقق في حياتهم الوجود القلبي والوجود العملي معاً، وإن تحقق المنطوق اللفظي قولاً على ألسنتهم،

وقد ردّ الإسلام إيمانهم واعتبرهم بعد مسلمين غير مؤمنين.

﴿قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[1] .

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ [2]

إذا لماذا يقولون هذا القول؟

والجواب، لأنهم بموجب هذا القول المدَّعى ينعمون بحقوق المجتمع المسلم، ويعيشون فيه آمنين على دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ثم عن طريق الخداع يعملون على تقويض أركان المجتمع المسلم.

ويظنون أنهم بهذا القول يضحكون على المؤمنين ويخادعون الله . . . ولذلك جاء في وصفهم قول الله تعالى :

﴿يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون﴾ [3].

نماذج من نواقض الإيمان

ومن صور نواقض الإيمان هذا القول العاري عن الصحة، والذي يفتقد الصدق والموضوعية، ثم لا يلبث أن يكشف أهله في الميدان العملي، وإذا كنا مطالبين بأن نجري أحكامنا على الظاهر باعتبارنا بشراً لا ندري البواطن،

إلا أن هذا الخداع لا ينطلي على الله، ولا يمر أيضاً على الأذكياء وأصحاب الخبرة والحصافة في مجتمع المسلمين، ذلك لأن القرآن قد وضع الضوابط لمعرفة الإيمان الحقيقي من الإيمان المزيف وبيّن أن أهل الإيمان المزيف، المدَّعى تكاد تظهر عليهم العلامات جلية واضحة، وقال الله لنبيه وللمؤمنين :

---

(١) الحجرات ١٤ .

(٢)، (٣) البقرة ٨، ٩ .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (١)

ولحن القول هذا يكشف الكثيرين ويعريهم، ويفضح سرائرهم ويخرج أضغانهم على شريعة الله وعلى الدعاة إليه في مناسبات كثيرة.

وإذا كان الصَّبُّ تفضحه عيونه، وتنم عن وجد جفونه، فإن المنافق يكشفه لسانه، ويخونه جنانه، وتنزلق منه عبارات تكشف سره وإن لبست وشاح الكلمة الحلوة والمنطق الرنّان:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (٢).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ (٣).

وهؤلاء لا يخفون على أهل الخبرة والحصافة، وكثيراً ما ينكشفون وتهتك سراؤهم في ميادين شتى، وأولها ميدان الإسلام العملي... حيث يتنادى المخلصون بتطبيق وتحكيم شريعته، فما إن تظهر هذه الدعوة حتى يصابوا بالهلع والفزع والرعب ويقولوا في كل موقع، هل نعود الى محاكم التفتيش من جديد؟

من سيفسّر النصوص؟ وهل سنطبق أحكام الشريعة في السرقة، والزنا، والردة، وكيف سنحكم على الناس؟

ثم ألا تتنافى هذه الأحكام مع مدنية الدولة وتقدمية القرن الحادي والعشرين؟.

(١) محمد ٢٩ - ٣٠.
(٢) البقرة ٢٠٤ - ٢٠٥.
(٣) المنافقون ٤.

وإذا كان المجتمع هو الذي يحمل جنين الجريمة في أحشائه فما ذنب أولئك الذين ستطبق عليهم أحكام الشريعة في القصاص والزنا والسرقة؟ ويصفون خصومهم بالظلاميين الذين يريدون بالأمة أن تعود الى كهوف القرون الأولى، وأن تتخلى عن الحكم المدني، ثم يتساءلون في خبث: أين الرحمة في معاملة الجناة، وبعضهم قد يكونون ضحايا لعوامل كثيرة؟

وهكذا يخرجون من الأجداث كأنهم جراد مذعور. وهم يغلِّفُون كراهيتهم للإسلام بعبارات منمقة، ربما تخدع السذج من الناس، كالعطف على الجناة، ومدنية الدولة الحديثة، وتقدمية القرن الحادي والعشرين، وحرية الضمائر وحرية التعبير، ويصورون الدعوة إلى تحكيم الشريعة وكأنها دعوة للعودة إلى الوراء، أو دعوة إلى الظلام كما يقولون،

ويصورون أنفسهم ومن على شاكلتهم بأنهم دعاة التنوير والحرية والديمقراطية وتحرير العقل.

وهكذا تظهر عليهم نظرية الاستشعار عن بُعْدٍ فيستشعرون الرحمة فجأة، ويظهر عطفهم على الجناة على حين غرة، ويفتحون أفواههم وأبواقهم بضرورة التروي في الأمر، وضرورة تحديد من هم أصحاب الحق في تفسير النصوص وتحديد الأحكام، ويطلقون العنان لكل من يملك ورقة وقلماً لعل مستنيراً منهم يفلح في إقصاء أحكام الإسلام، أو ينجح في إخراج بعض المسلمين من دينهم ولو بالتقسيط المريح.

أو لعل مستنيراً آخر يصادفه الحظ في النيل من داعية من دعاة الإسلام أمام الجماهير، أو في إحراجه، وتخويفه، وإشاعة التهم حوله حتى ينصرف الناس عنه فلا يسمعون لحديثه ولا يتأثرون بقوله، وحجتهم في هذا، أن الداعية المعروف ينفق على الفقراء كثيراً، ويعطي كل سائل، ثم يصفونه بأنه مؤسسة مالية متنقلة فمن أين يأتي بهذا المال؟

وهم لا يتساءلون ليطلبوا إجابة على هذا السؤال، فالجواب قد أعدّوه سلفاً، والاتهام جاهز لديهم، ومصادر التمويل لكل من يخالفهم الرأي والوجهة والمذهب هي قوى خارجية تمد الدعاة بالمال، وتجعل الداعية في غنى عن راتب الحكومة، ويتصرف فيها لديه من مال تجاه الفقراء والأرامل واليتامى وكأنه لا يخشى الفقر.

وهكذا تتداعى لديهم خواطر الحقد على دعاة الإسلام ورموزه، ثم يدفعهم هذا الحقد الى رمي الناس بالاتهام الظالم؛

فينطلقون هنا وهناك، يكتبون ولكن بغير أقلامهم؛

ويتهمون ولكن بغير دليل؛

ويهتفون ضد شريعة الله في كل موقع، وضد الدعاة إليها والمطالبين بها، ولكن بغير حناجرهم.

ثمن الخيانة والجرأة على الله

وهم معروفون للجميع، فأوصافهم لا تخفى على لبيب، لأنهم سدنة لكل صنم، وخدم لكل عهد،

يأكلون على كل مائدة،

وينوحون في كل مأتم،

ويرقصون في كل فرح.

إنهم جاهزون دائماً لتلبية طلبات سادتهم،

وهم على استعداد تام أن يستديروا وبحركة لولبية سعتها مائة وثمانون درجة،

ينتقلون بها بين عشية وضحاهـا - فجأة وبلا مقدمات هتافين لـلامبريالية، مدّاحين لخيرها وبركتها، مسبحين بحمدها في الصباح والمساء.

وهكذا بالأمس كـانوا أعدى أعدائها وألدّ خصومها، فـإذا بهم اليوم من دعاتها، وحراس نهجهـا «وكومبـارس» عزفها المنفـرد أو الجماعي ضمـن نغمة النظـام العالمي الجديـد في استغـلال الشعوب، وسلـب حـريـاتها، وتـدمير مقومـاتها ومقـدراتها، والدخول في أخص شئونها.

وهكذا تستغل هـذه الجوقة التائهة الضالـة لضرب الإسلام في الداخل عـن طريق النيل من دعاته ورموزه والعاملين له،

والثمن هو أن يتشرفوا بأن يدخلهم النظام العالمي الجديد عبيداً في بلاطه، بعدما مات سيدهم بسقـوط الماركسية، وانهدم المعبد الذي كانوا يصلـون ويتجهون إليه في سماء الكرملين،

ولذا فهـم يستحلفون عواصـم الغرب بحق سمائها الصـافية أن تقبلهم خـدماً في بلاطها، وسترى منهم ما تَقَرُّ به عيونها الزرقاء،

فهم سيتحولون فوراً من العداء لها إلى الهيـام بحبها، وسيوَّجهون سهامهم إلى كل الإسلاميين أعدائها،

وسيتحولون إلى رأس حربة على دين الله في بلاد المسلمين،

وسيكفون أسيادهم مئوونة الطعن في دين الله،

والتشكيك في شريعته،

والهجوم على رموزه ودعاته،

وإلصاق كل تهمة مخيفة كالتطرف والعنف والأصولية والإرهاب، وما يستجد في القاموس من مصطلحات تخيف الناس وتزيف وعيهم، وتنأى بهم عن التديّن الحق وتصرفهم عن كل مسلم يحب الله ورسوله، ويهوى أن يعيش في وطنه حر الإرادة مستقل القرار.

هؤلاء نعرفهم جيداً، ويعرفهم كل مؤمن، فقد نبأنا الله من أخبارهم، وكشف خباياهم، وفضح سرائرهم، وقال لنبيه وللمؤمنين:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (١).

وهكذا يكشف لحن القول ما كان مستوراً، ويعري أفكار هؤلاء، ويفضح ضمائرهم ونواياهم، وينفي انتسابهم إلى دين الله مهما تشدقوا بكلمات الإسلام، ومهما كانت ادعاءاتهم المزعومة، ذلك لأنهم في مواطن العمل وميادين التطبيق تنكشف خباياهم، وتفضحُ ألسنتهم عما تنطوي عليه قلوبهم المريضة، فهم يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، لكنهم يهربون من حكم الله ورسوله بكل وسيلة ممكنة، بالكلمة والحركة وتحريض الآخرين على رفض حكم الله صراحة إن أمكن، وإلا فإن الرفض الضمني يقوم بالمهمة ويعوق تحكيم الشريعة.

وهؤلاء ينفي القرآن عنهم صفة الإيمان وإن تشدقوا به كلمات وألفاظاً؛

يقول القرآن عنهم:

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

---

(١) محمد ٢٩ - ٣٠. (٢) سورة النور ٤٧

ومن صفات هؤلاء أنهم:

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (١) .

أما إذا كان الحكم سيجلب لهم مصلحة خاصة فهُم يُذعِنُون له، ويقبلون حكمه، يقول القرآن الكريم «وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين».

ويتساءل القرآن:

﴿ أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ (٢) .

ومن هنا فإن الإيمان الحقيقي لا بد وأن تتوافر فيه تلك الركائز الثلاثة:

الوجود اللفظي؛

والوجود القلبي؛

والوجود العملي التطبيقي.

فلا يكفي في الإيمان مجرد النطق بالشهادتين، فهناك الكثيرون ممن نطقوا بالشهادتين لكن أعمالهم كانت تناقض هذا الوجود اللفظي ولذلك فقد رد القرآن الكريم إيمانهم، وكشف خباياهم، وحذر من مسلكهم، وطالبهم إن كانوا صادقين بالطاعة وقول المعروف.. قال تعالى: ﴿ فأولى لهم (٢٠) طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ (٣) .

والنماذج السابقة خير برهان على ذلك، ومواقفهم من شريعة الله وتحكيم منهجه دليل قاطع على كذب ادعائهم الإسلام وانتمائهم إليه.

---

(١)، (٢)، سورة النور ٤٨-٥٠ .

(٣) محمد ٢٠-٢١

ومن هؤلاء كثيرون. بعضهم أدباء، وبعضهم شعراء، ومنهم صحافيون مرموقون ورجال دولة في مناصب كثيرة ممن يشكلون رأس حربة على الدين والمتدينين، ويغضبون كلما ذُكِّروا بالله والدار الآخرة، وصدق الله إذ يقول:

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١) .

وهذه الممارسات قولاً كانت أو فعلاً أو حتى نية وسريرة تعتبر في المنظور الإسلامي نواقض للإيمان ينتفي معها، ويتناقض معها كل مدلول للإيمان في صورته اللفظية أو القلبية أو العملية، ولا يستفيد صاحبها شيئاً من ثمرات الإيمان، لأنه بهذا الالتواء قد أفسد فطرته فلم يعد يتذوق للإيمان حلاوة، ولا يعتبر مسلماً ولو أعلن ذلك في كل صحافة العالم ووسائل إعلامه وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

٢ - الوجـــود القلبـــي

أمّا الضلع الثاني الذي يشكل مع الضلع الأول قاعدة المثلث فهو الوجود القلبي.

والوجود القلبي نعني به اليقين القاطع الذي لا يعتريه شك أو توهّم.

والنبي ﷺ حين حدثنا عن الإيمان، بيّن لنا أن الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، وجملة «وصدقه العمل» هذه تتناول الجانب العملي التطبيقي والذي سنشرحه بعد قليل، لكن ما يعنينا هنا هو عبارة «ما وقر في القلب» وكلمة وقر تعني استقر وتمكّن، ومنها قوله تعالى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ (٣) وقوله

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ (٤) .

---

(١) الزمر ٤٥ . (٢) يوسف ١٠٦ .
(٣) الأحزاب ٣٣ . (٤) الفرقان ٧٤ .

وقرة أعين تعني الزوجة الجميلة الصالحة والذرية الحسنة التي تستقر عليها العين ولا تطلب مزيداً، فهي تكتفي بما لديها من جمال الهيئة وبهاء المنظر في الزوجة والذرية،

والعين المستقرة أو النفس المستقرة هي القانعة بما لديها، وعكسها العين اللائجة أو النفس القلقة التي لا تطمئن على حال ولا تبقي على موقف.

فالإيمان هو ما وقر في القلب، ولا يقر الإيمان في القلب إلا إذا قام عليه دليل من البديهة أو الفطرة في داخل النفس البشرية، أو دليل من خارج النفس البشرية ويكون ضمن الأفق المدرك حول الإنسان في البيئة المحيطة زمناً ومكاناً.

وبالجملة ينتشر هذا الدليل في كل شيء في الكون، والوجود، والحياة وهو يتولد نتيجة علم واسع ويتفرع عن بحث مستفيض.

والمعروف لكل دارس في الإسلام أن الإيمان يتبع العلم تبعية ترتيب، فكأن العلم مقدمة للإيمان، والإيمان ثمرة ونتيجة لهذا العلم الغزير.

لأنه يبنى عليه ويؤسس على أدلته، وسنكتفي هنا بالإشارة إلى نصّ واحد فقط يوضح المطلوب.

يقول القرآن الكريم:

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١).

فمعرفة الحق تحتاج إلى علم واسع.. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك.

---

(١) الحج ٥٤.

ويترتب على هـذا العلم إيمان بـالحق الذي قامـت به الحجـة ، ودل عليه الـدليل والبرهان .

ثم تبدأ حركة القلوب في الإخبات والخشـوع ، وهي حركة لاتشير إلى النوايا المجردة فقط ، وإنما تـدفع بصاحبهـا الى الممارسات والسلوكيـات الإيجابية التي تجعـل المسلم ينحـاز بمحـض اختيــاره إلى مـوقـف الصـواب والحق ، مهما كـانــت التكـاليـف والتضحيات .

وطبيعي جداً أن هذا الإيمان الذي يغيّر الإنســان ، ويبدل المواقف ، ويبعث الهمة ويحرر الإرادة لا يمكن أن يكـون وليد مشاعر فيـاضة أو عاطفـة فوارة ترتبط بـالموقف نتيجة مؤثـرات معينة ثم لاتلبث أن تزول ، وإنما هـو وليد أدلة عقلية محضـة خاطبت العقل ، وحـاصرته ، وأحـاطت به مـن كل جانـب في البرّ والبحر ، والليـل والنهار ، والشمـس والقمر ، والنبـات والجماد ، وفي كل شيء في هـذا الـوجود ، واعتمـدت في مخاطبة العقل على لغة الدليل في أرقى تصوراتها العلمية .

صدق الرواية وسلامة التوثيق

وهنا يجد البـاحث المنصف نفسـه وهو يطالـع القرآن الكـريم أمام أرقـى منهجية علمية لم تصل إليها أعلى مستويات المناهج المعاصرة من حيث تنوع الدليل ، وصدق الرواية ، وسلامة التوثيق .

فالنصوص قد استعملت البرهان النظري في العقليات وقال القرآن الكريم لخصوم الدعوة قديما وحديثا ولا يزال يقول :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) .

(١) الأنبياء ٢٤ .

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢) .

وفي اللحظة التي يحتكم فيها القرآن إلى البرهان النظري في العقليات، ويسوق على صدق قضيته عشرات الأدلة، ويطالب الآخرين بالبرهان والدليل على ما يدّعون، - في اللحظة التي يفعل فيها هذا - يلجأ خصومه هاربين إلى مجرد التشويش والعبث واللغو في مواجهة الحكمة والتعقل.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٣)

ولا يكتفي عرض الدليل القرآني في قضاياه على مجرد البرهان النظري في العقليات، وإنما يعتمد المشاهدة والتجربة في الحسيات المادية.

وفي إعجاز بالغ تحدى القرآن خصومه ومعانديه حين جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا تساءل القرآن في عجب:

﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (٤) .

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (٥) .

---

(١) النمل ٦٤ .
(٢) القصص ٧٤، ٧٥ .
(٣) فصلت ٢٦ .
(٤) الزخرف ١٩ .
(٥) الكهف ٥١ .

أما في مجال النقليات فقد اعتمد القرآن على صحة الرواية وتوثيقها وقال لخصومه ومجادليه:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١).

وطالب المسلم برفض الظن في كل موضع يتطلب فيه اليقين الجازم والعلم المؤكد ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (٢).

(إيّاكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)(٣).

كما طالب برفض العواطف والأهواء الشخصية حيث يحتاج الموقف إلى الحياد والموضوعية، وحيث يكون التعامل مع طبائع الأشياء وقوانين الوجود مهما كانت نتائجها.

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٤).

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥).

ومن هنا نستطيع أن نجزم بأن الإسلام قرآناً وسنة وتاريخاً وواقعاً قد هيأ المناخ النفسي والعقلي الذي ينمو فيه العلم، وترسخ أصوله وقواعده، وتمتد فروعه وثماره لتغطي كل ميادين الحياة، ولتعطي ثمارها إيماناً ناضجاً، وسلوكاً سوياً، وضمائر حية، ونفوساً مطمئنة.

---

(١) الاحقاف ٤. (٢) النجم ٢٨.
(٣) رواه أبو هريرة – انظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد بن علان الصديقي، المجلد ٤ ص٤٢٦، إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية.
(٤) الإسراء ٣٦. (٥) القصص ٥٠.

وهذا الإيمان لا يتولد هكذا اعتباطاً وبغير دليل، وإنما يقوم عليه ألف دليل ودليل في كل شيء حول الإنسان كما قلنا.

وهذا الإيمان ليس وليد العاطفة المشبوبة أو نتيجة فوران عاطفي غير محسوب ومضبوط، وإنما هو وليد أدلة عقلية محضة خاطبت العقل، وحاصرته، وأحاطت به من كل جانب، في البر والبحر، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنبات والجماد، وفي كل شيء في هذا الوجود.

وانظر كيف يسوق القرآن أدلته في قوة تتحدى؛

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١).

ويلاحظ أن النص الكريم يتناول مجموعة من الظواهر تتضمن البيئة المحيطة بالإنسان وما فيها من مكونات ضرورية لحياة البشر، وكلها صادرة عن الإبداع الرباني الهائل،

وقد بدأت بالإطار العام الذي يعيش فيه وعليه الإنسان، ويمثله بصورة كلية:

١ - خلق السموات والأرض

٢ - واختلاف الليل والنهار

(١) البقرة ١٦٣ - ١٦٤.

٣- والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس
٤ - وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها
٥ - وبثَّ فيها من كل دابة
٦ - وتصريف الرياح
٧- والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون .

فالتعقل هنا ثمرة للبحث في ظواهر الكون، ثم هو وسيلة لمعرفة الإله الواحد والإيمان به .

ولذلك قبل هذا النص مباشرة يجيء قوله تعالى :
﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [(١)] .

فكانت هذه هي القضية التي جاء النص دليلاً عليها وبرهاناً على صدقها، وهو يحمل في طياته إشارة صريحة للعقل بضرورة النظر والتدبر في تلك الظواهر الكونية السبع ، وما فيها من دلائل الإبداع والروعة ، وما تحويه وتحتويه من عناصر الحياة للإنسان والحياة، وترك العقل حراً يختار الجواب الصحيح ، فهل هناك غير الله يفعل ذلك؟

واذا فقضية الإيمان به ، إلهاً معبوداً ليست وليدة عاطفة حارة أو باردة، وإنما هي وليدة عقل عرف الحقيقة فقرر:

أن يسير خلفها في كل درب ؛
وأن يرفع رايتها في كل صوب ؛
وأن يعلن أنه من حزب الله في كل موقع ؛
ومع المؤمنين به في كل موكب ؛
والكادحين له في كل عمل ؛

(١) البقرة : ١٦٣ .

والخائفين منه في كل وقت؛
والمحبين له في كل مكان؛
والتواقين إليه، والمشتاقين إلى رحابه في كل لحظة.

وبعدما تتفاعل في النفس كل الأبعاد العقلية والفكرية والنظرية بقيومية هذا الإله وإحاطته وكماله وجماله وجلاله تتولد حينئذٍ العاطفة المشبوبة التي لا تجد من هو أولى بالحب كله. والفضل كله، والجمال كله من رب العالمين.

وإذاً، فالوجود القلبي للإيمان يتمركز أولاً على العقل الجواب: الذي عرف الحقيقة فأحبها؛

وعرف صاحب الفضل فتوجه إليه؛
وعرف صاحب الغنى فطلب منه؛
وعرف صاحب القيومية فلاذ بحماه؛
وعرف فيه تجليات الربوبية والألوهية فوحد صوبه شعاره وشعوره؛
وشعائره ومشاعره؛
وسعى نحوه بالشكل الذي يحبه؛
وبمنهج العبادة الذي فرضه وارتضاه. ذلك هو مجال العقل قبل مجال العاطفة.

ومن روعة هذا الدين أنه لم يعتمد القوة ليعيش، ولم يبن الإيمان به على الضغط والقسر والإكراه، وإنما اعتمد البرهان ليحاور:

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١).

وفي دعوته للناس ليدخلوا في السلم كافة اعتمد على ما لديه من رصيد ضخم تتطابق فيه العقيدة مع الثوابت في الواقع الكوني، وتتطابق فيه الشريعة مع مصلحة الناس في كل زمان وبيئة، كما تتطابق فيه التوجيهات مع فطرة الإنسان حيثما كان.

(١) الكهف ٢٩.

ففي مجال العقيدة لا تنشأ الـدعوة إليها من فراغ ، وإنما هي دعـوة لها رجع صدى في بنية الكـون المادي وفي الواقع اليـومي ، يدركها الإنسـان في طبائع الأشياء بفطـرته وبصيرته ، وليسـت النصوص إلا إعـلانا عنهـا وتنبيها إليهـا وإشارة منطـوقة بلسـان الوجود تعبر عن كل شيء فيه ، حيث يهتف كل شيء في هذا الوجود لله بالوحدانية ، يقول القرآن الكريم :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (١) .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢) .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ (٣) .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤) .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (٥) .

فهل بقي شيء في الوجود شذّ عن موكب الخضوع لله غير الإنسان؟

مسكين هذا الإنسان . . إنه هو وحده الذي يبتغي غير الله رباً وغير الإسلام ديناً . ولذلك تساءل القرآن :

---

(١)، (٢) النحل ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) الحج ١٨ . (٤) النور ٤١ .
(٥) الرعد ١٥ .

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (١) .

وإذا كانت العقيدة تحتوي من الثوابت ما يتوافق ويتناغم مع ثوابت الكون، وما ينسجم مع واقع مفرداته في الخضوع لله والهتاف لمجده والتسبيح بحمده.

فإن الشريعة في هذا الدين تلتقي مع مصالح الناس، وتلبي وتستوعب حاجاتهم طولاً وعرضاً وعمقاً.

فقد جمعت في تعاليمها بين الثوابت والمتغيرات،

فالثوابت كالقصاص والحدود تعالج أمهات الجرائم الكبرى التي ينتج منها ويتفرع عنها كل جناية، أو جنحة، أو مخالفة، وأمهات الجرائم تلك ثابتة ثبات معنى الإجرام فيها، ويبقى أثرها وضررها وفسادها ثابت لا يتغير بتغير الزمان أو المكان أو أحوال الناس، ولذلك واجهتها الشريعة بقوانين ثابتة.

فإذا جفت منابع الإجرام عن طريق التوجيه والوعي أولاً، ثم عن طريق الحزم في معاملة المجرمين بتطبيق العقوبات ثانياً، فإن المجتمع يعيش آمناً مطمئناً، وكل مخالفة أو جنحة بعد ذلك تواجه وفق الضرر الذي ينتج منها بعقوبة تناسبها، وهذه المساحة الواسعة المتغيرة تعطي الحاكم المسلم مرونة تمكنه بها من مواجهة الطوارىء التي تحدث في الحياة اليومية، ولا تضع المجتمع في قوالب جامدة تحدد حركته وتحد من قدرته على مواجهة الأخطار، وإنما أمدته بشريعة يستطيع معها أن يتحرك بحرية، وأن يواجه ما يستجد من الجرائم والمخالفات على مدى الزمان كله دون أن يخشى الذوبان والدمج، وفي الوقت نفسه يتمتع بمرونة يمكنه بها أن يدخل إلى

---

(١) آل عمران ٨٣ .

العصر الجديد، وأن يملك آلياته دون أن يتخلف عن الركب الحضاري.

ولذلك فإننا نقول بثقة، ونجزم بيقين بأن شريعة الله صالحة لكل زمان،

وأنها قادرة على مواكبة العصر وتلبية حاجة الناس في كل بيئة، بالإضافة إلى ما تتمتع به من سهولة وسماحة وتيسير يرفع الحرج عن الناس، ويقدم لهم من التكاليف ما تسعه قدراتهم وصدق الله إذ يقول:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (١).

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢).

لكن ذلك لا يعني أن لا يكون للعاطفة مكان ومكانة.

حب الله بين قانون الكم والكيف

فالعاطفة تشكل الوقود الذي يتحرك به الإيمان وينمو،

كما أنها تشكل محوراً من محاور الارتقاء إلى الله في سلم العبودية والطاعة عن طريق المحبة،

وبالتالي فالإيمان البارد أو الخالي من العاطفة لا قيمة له، لأنه إيمان لن يحرك صاحبه إلى المواقف المطلوبة في السراء والضراء، ولن يكون باعثاً على إنكار المنكر في اللحظات الحرجة، ولن يأخذ صاحبه الموقف الإيجابي إذا انتهكت حرمات الله، ومن هنا يكون دور العاطفة فعّالا ومؤثراً في نقص الإيمان وزيادته.

ولعل حديث النبي ﷺ يوضح المطلوب بشكل أفضل حيث يوجهنا الرسول ﷺ إلى حقيقة مفادها:

(١) البقرة ١٨٥. (٢) الحج ٧٨.

أن الإيمان يرتبط في نمائه ونمـوه وكماله بالجانب العـاطفي الذي أشار إليـه بالحب وجاءت كلمات الحديث دقيقة حين استعملت صيغة أفعل التفضيل :

(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان :

أن يكون الله ورسوله أحـبَّ إليه مما سواهما ،

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ،

وأن يكره أن يعـود في الكفر بعـد أن أنقذه الله منـه كما يكره أن يقـذف في النار)(١) متفق عليه .

والإسلام لا يصادر في الإنسان طبيعته ، كما أنه لا يتركـه لهواه يميل به حيث مال ، وإنما يحترم في الكيان الإنساني مشاعره وأحاسيسه ويتـدخل بالتوجيهات والتدريبات ليجعل هذه العواطف تسير في الاتجاه الصحيح .

وترسم التـوجيهات الـدينية بـالنصوص الثـابتـة والقاطعـة خريطـة للعلاقـات الاجتماعية في الحب والكره والغضب والرضا والفرح والحزن والقلق والطمأنينة .

وبغير شك أن العـاطفة محلهـا القلب ويعبر عنهـا في حالـة الإيجاب بالحب ، كما يعبر عنها في حالة السلب بالكره أو البغض .

والحب له تعريف وله قانون وله ضوابط تحدده ؛

«والمحبة - كما يعرفهـا الإمام النووي « هي الميـل إلى ما يوافق المحـب» وقد تكون

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين حـ٢ ص٢٤٩ ، ص٢٥٠ .

بحواسه كحسن الصورة أو بفعله إما لذاته كالفضل والكمال، وإما لإحسانه كجلب نفع أو دفع ضرر، والمراد بالميل هنا الاختياري دون الطبيعي». (١)

أما أبـو عبد الله القرشي فيعـرف المحبة بأنها مـوافقة الحبيب في المشهـد والمغيب. فليس بصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده.

وإذا كانت المحبة هي الميل الاختياري فإن الحب لا يثبت إلا إذا توجه الميل كله إلى الحبيـب بحيث يهب الإنسـان عواطفـه كلها ومشـاعره كلهـا لمن يحب، فيميل إليـه بكليته، ثم يؤثره على نفسه، وروحه، وماله، والناس أجمعين، وهذا هو المعنى الذي أشار إليه الرسول ﷺ حيث قال :

(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين). (٢)

ومن المعروف بداهة أن هنالك مجموعـة من العوامل الإيجابية ذات التأثير في سلوك الانسان على درجات متفاوتة.

ولا شك أن عامل الحب مـن أقوى هذه العوامل تأثيراً ووضـوحاً وحضوراً في حياة الإنسان.

ومدلول الإيمان الحقيقي كما قلنا لا يتحقق إلا بالحب، وهذا الحب ليس مجرد ميل عاطفي معزول عن حركة الحياة، يكتفى منها بمجرد الهيام بالمحبوب في حالة أشبه ما تكون بالغياب عن الوعي؛

وإنما هو حالة من الإحساس بالحضور الدائم لوجود المحبوب في حياة المحب.

(١) عمدة القاري، شرح صحيح البخاري للشيخ أبي محمد محمود بن أحمد العتبي مجلد ١ جـ ٢ ص ١٤٢
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي المجلد الاول ص ٢٨٩

فالإحساس هنا بحضور المحبوب في حياة المحب إحساس مرتبط باليقظة والمنام، بالحركة والسكون، بالنطق والصمت، بالغضب والرضا.

ولا نقول بالمشهد والمغيب، لأن حالة الحب هنا في المدلول الإيماني هي ارتباط القلب بمن لا يهجر، ولا يغدر، ولا يخون، ولا يغيب.

لذلك ينتفي الغياب في مدلول العاطفة الإيمانية، لأنه ينافي معنى الإيمان شكلاً ومضموناً.

ونعني بالغياب هنا: (غياب المحبوب عن حياة المحب) والله تعالى حاضر دائما لا يغيب.

قال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (١).

وهذه النقطة تكاد تكون كمية. فالمؤمن يجب أن يمتلىء بحب الله تعالى من رأسه إلى أخمص قدميه.

وهذا المعنى يطرحه اختيار صيغة أفعل التفضيل في الحديث الشريف «حتى يكون الله ورسوله (أحبَّ) إليه مما سواهما».

كما يطرحه القرآن الكريم بنفس الصيغة أيضاً وصفاً للمؤمنين في مقابل الذين يتخذون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله.

وطبيعي أن يكون هذا الحب لدفع ضرر أو لجلب نفع، ولكن العاطفة هنا أخطأت طريقها، وتوجهت لمن لا يدفع ضرراً أو يجلب نفعاً، لا لنفسه أصلاً، ولا لغيره تبعاً.

---

(١) الأعراف ٧.

وقد أفاض القرآن الكريم في شرح أضرار هذا التوجه الخاطىء وما يحدثه في النفس من آثار تنأى بها عن الحقيقة، وتجعل صاحبها يعيش في جو من القلق المدمر، لأنه يطرق على غير الباب، ويلجأ إلى غير ملجأ، ويلوذ بلا شيء:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ (١).

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٢).

في مقابل هذا التوجه العاطفي الخاطىء كان هناك التوجه الصحيح، والقرآن الكريم يضع أمام أنظارنا طرفي المعادلة وهي تقسم البشر الى فريقين لا ثالث لهما

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (٣).

هذا فريق ضل الطريق وأخطأ الهدف، وبدد الطاقة، وأهدر العاطفة.

في مقابله فريق آخر هم أولئك الذين عرفوا الحقيقة وحددوا وجهتهم، ووحدوا توجههم، فأحبوا ربهم الحب كله، وكان حبهم له يطغى على كل شيء.

فنفوسهم به عامرة؛

وقلوبهم به نابضة؛

وعقولهم له خاضعة؛

---

(١) الفرقان آية ٣. (٢) فاطر ١٣، ١٤.

(٣) البقرة ١٦٥.

وجوارحهم له طائعة،

وألسنتهم تهتف بحبه وتعلن بمجده آناء الليل وأطراف النهار،

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (١).

وهـذا هو المعنـى الذي وضعـه القرآن في مقـابل الصـورة المهتزة والمهترئة، والتـي تظللها الوحشة ويغيب الأنس عنها؛

في مقابل هذه الصورة تأتي صورة المؤمن المحـب الذي يرتبط بربه، مولاه وسيده، فيسيطر حبه على كل شيء ويفيض نداه على النفس والكون والأشياء، فيمنح الوجود روح الوجـود، ويفيض على الحياة والأحيـاء سر الحياة **وهذه هي النقطة الأولى** وهي نقطة تكاد تكون كمية أو يعبر عنها بالحب من حيث الكم.

أما النقطة الثـانية فهي ترتبـط بالكيف. أي أنها نقطـة كيفية، وقـانون الحب هنـا يفرض على المحب أن يتعلق لا بالمحبوب فقط وإنما يتعلق حتى بآثاره.

والأدب العربي يتضمن الكثير مـن القصص في هذا المجال. وبغير مقـارنة ودون أي إسقاطات فقيس بـن الملوح مثلاً لم يتوقف حبه عند حدود الـذات الإنسانية ممثلة في محبوبته ليلى.

وإنما أحب الأرض التـي مشت عليها، والتراب الذي وطـأته أقدامهـا، وشكلت الجمادات التي وقفت عندها أو احتوتها بين جـدرانها يوماً ما، شكلت هذه الجمادات روافد عاطفية تفيض بها نفس قيس، وشغلت مساحة من ذاكرته ووجدانه، فعبر عن حبه لهذه الاشيـاء لأنها ارتبطت بحبيبتـه، ودونت لنـا أدبيات الشعـر الجاهلي الكثير الكثير من هذه المعاني:

---

(١) البقرة ١٦٥.

أمر على الديار ديار ليلى . . . أُقَبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي . . . ولكن حب من سكن الديارا

وكما يقولون : بسكانها تعلو الديار وترخص .

فالعاطفة هنا قد تجاوزت حدود الذات لتصل إلى الأشياء والجمادات ؛

وهذا ما يفرضه قانون الحب حين يعلق المحب لا بالمحبوب فقط وإنما أيضاً بآثاره .

خريطة العلاقات الاجتماعية بين الحب والكره

ولذلك وبمقتضى - هذا القانون - يتم تحديد الدوائر الإنسانية والاجتماعية التي يتعامل معها المسلم بالإيجاب «الحب» أو السلب «الكره» .

وهذه الدوائر لا تتوقف عند حدود التعامل مع الأشخاص ، وإنما تتعداها إلى المؤسسات وما يصدر عنها من الأقوال والأفعال .

ويرسم لنا القرآن الكريم خريطة العلاقات الاجتماعية ، ويحدد لنا من خلالها نقاط القرب والبعد ، والحب والكره والصداقة والعداء ؛

وهذه الخريطة تتضمن قفزة نوعية في عالم القيم يتحدد على أساسها ارتباط المسلم بالناس والأشياء .

فالإنسان بعيداً عن توجيهات المنهج يرتبط مع غيره بروابط متعددة ، في مقدمتها رابطة الدم والنسب ، وتتحدد وشائج القربى على أساس من هذه الروابط .

لكنه في إطار المنهج تتم صياغته - عقلاً ووجداناً - بشكل آخر يتجاوز حدود

البيئة بروابطها المعروفة، فعن طريق المنهج يقترب البعيد، ويبعد القريب، وتنشأ بين أتباعه والمؤمنين به وشائج جديدة على أسس من مبادئه وقيمه، ويبتر هذا المنهج أقوى الوشائج وأعلاها إذا خالفت مبادئه.

فنبي الله نوح ينظر إلى ولده في لحظة الأزمة والخطر يحدّق به، والموج يكاد يغرقه، فتتحرك في نفسه عواطف الأبوة فينادي ربه قائلاً:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١).

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢).

هنا نجد أنفسنا أمام خريطة جديدة تبتر أقوى العلائق «علاقة الابوة» وتضع مكانها علاقة جديدة هي علاقة العقيدة الواحدة، والمبدأ الواحد، والفكرة الواحدة والقضية الواحدة؛

قال يا نوح انه ليس من أهلك . . . ، كيف لا يكون من أهله وهو ولده ومن صلبه؟

إنَّ مفهوم الأهل هنا أخذ بُعْداً جديداً ؛

إنه البعد العقدي، فأهله هم أتباع عقيدته، الملتزمون بمنهجه، السائرون على دربه، وليسوا مجرد من تربطه بهم علاقة الدم والنسب.

فنحن هنا أمام قفزة نوعية في عالم القيم، بدأت تشكل صيغة جديدة لعالم جديد من العلاقات تقدمت فيه روابط العقيدة والقيم وتأخرت علائق الدم والنسب.

---

(١)، (٢) هود ٤٥، ٤٧.

ويتأكد هذا المعنى في سورة التوبة حين يخاطب الله الجماعة المؤمنة محذراً إياها أن تطغى علائق النسب والعشيرة والجنس والدم على علاقة العقيدة والإيمان .

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِن اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١) .

إن الولاية هنا دائرة لا يدخل فيها إلا من آمن ولو كان من أقصى الارض ؛

ويخرج منها كل من استحب الكفر على الإيمان ولو كان أباً أو أخاً .

فعلاقة الدم والنسب هنا تأخرت وتوارت ، وحلت محلها أخوة العقيدة والدين .

وعلى ضوء تلك الخريطة الجديدة تتحدد للمسلم شبكة العلاقات الاجتماعية التي يرتبط بها ويتعامل معها إيجاباً وسلباً دون غموض أو التباس ؛

وبناء على تلك الخريطة لم يعد المسلم حراً في توجيه عاطفته بالحب نحو أعداء الله ؛

كما لم يعد حراً في كراهية المؤمنين وأولياء الله .

﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢) .

فالموقف هنا قد تحدد تماماً ، وحسم غاية الحسم ، وتبين للمؤمن في وضوح تام الأسس التي يرتبط بها مع غيره من الناس بروابط الحب والكره ، وظهر جلياً له من خلال النصوص :

---

(١) التوبة ٢٣ .

(٢) آل عمران ٢٨ .

أن القريب يمكن أن يكون بعيداً؛

وأن البعيد يمكن أن يكون قريباً؛

وأن المحور الذي تدور عليه العلاقات وتتمركز حوله العواطف بالإيجاب أو السلب إنما هو المحبوب الأول في حياة المؤمن وهو الله رب العالمين.

فمن آمن به وأحبه فهو أخ لكل المؤمنين به والمحبين له؛

ومن كفر به وجحد حقه فهو أبعد الناس عن المؤمنين ولو كان أباً أو ابناً أو أخاً.

لقد ارتبطت العاطفة هنا بمركز توجيه محوري داخل قلوب المؤمنين، ولم تعد تتوجه خبط عشواء وفق الهوى والمزاج الخاص، أو وفق المصالح والمطامع . . .

وهكذا يحدد لنا المنهج في حسم:

نحب مَنْ . . . ونكره مَنْ؛

نقرب مَنْ . . . ونبعد مَنْ؛

نسالم مَنْ . . . ونعادي مَنْ.

اَلْمُسْلِمُ بَيْنَ وُضُوحِ الرُّؤْيَةِ ..

وَضَبابِ الْعَلاقاتِ

لقد اتضحت على ضوء المنهج في حياة المؤمن رؤيته ورؤاه، فلم تعد تحكمه - كما هو الواقع - علاقات ضبابية بأعداء الله في مجالات شتى. رغم وضوح العداء منهم لله ولرسوله وللمؤمنين.

إن هذه الرؤية الضبابية المظلمة كلفت المجتمع الإسلامي الكثير الكثير من الدماء والأموال والمصالح، وجعلت بلاد المسلمين تتعامل مع الأعداء لا من خلال منهج وإنما من خلال فوضى قاتلة، حولت الوافد الجديد إلى سيد مطاع، يمسك بيده كل مقاليد الأمور، ويتحكم عن طريق أدواته وآلياته في مصادر القرار، ويتعامل مع مجتمع المسلمين لا على أنه مجتمع ذو خصائص ومنهج ومقومات، ولديه وحدة عقيدة تجمعه وتوحد بين مشاعره وشعائره، وإنما يتعامل معه على أنه وحدات فردية ممزقة الأوصال، مشرذمة، مبعثرة من الناحية المادية والمعنوية.

من الناحية المادية بتبديد القدرات، وإدخالها في صراعات تستنفذ الجهد والطاقة، وترفع الثقة بين الأشقاء وتضع محلها الشكوك والمطامع وسوء الظن.

ومن الناحية المعنوية بسلب الخصائص والمقومات، عن طريق إشاعة الفكر الضال والمنحرف، ومحاولة فرض أنماط معينة في الفكر والثقافة والسلوك اليومي والممارسات الحياتية بشكل عام بحيث تبقى سيطرته لا على المقدرات المادية فقط، وإنما على الإنسان عقلاً ووجداناً أولاً ، ثم على الثروة والتراب ثانياً .

وبهذا يتم في مجتمعات المسلمين إحكام الدائرة بدقة، وتضييق الخناق على كل أصحاب الفكر المقاوم لهذا الاستعمار الجديد.

وإذا كنّا ومعنا كل المثقفين الشرفاء - نستشعر خطورة الموقف، وفداحة الثمن الذي ندفعه من كرامتنا وحريتنا وأرضنا- فإن الخطر الأكبر لم يظهر بعد، والأثر الأشد سوءاً لم يأتِ بعد، والمستقبل لا يحمل للعرب والمسلمين في أحشائه شيئاً جميلاً، ذلك لأن البطانة التي تسللت إلى مصادر القرار ومراكز التوجيه في مجتمعات المسلمين تؤدي دورها بخبث بالغ، وقد بدت البغضاء من أفواههم في أكثر من موقع، لكن ما تخفيه صدورهم من الحقد على المسلمين أنكى وأشد.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ (١).

وعبارة ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ تلفت النظر في اختيارها تعبيراً عن الحالة التي تقوم بها البطانة في الإفساد والتدمير، فلفظة الخبال تعني في اللغة.

فساد العقل بالجنون، وذهاب الفؤاد بالهّم، وقطع الأعضاء حتى لا تؤدي وظيفتها، وشلل الإرادة بحيث يظل الإنسان غير قادر على شيء.

ومن معانيها أيضا: السم القاتل والفتنة وصديد أهل النار (٢).

هذا من حيث اللفظ؛

أما من حيث المعنى العام فهي تعني: أن البطانة لا تألوا جهداً في ترك وسيلة من

---

(١) آل عمران ١١٨-١٢٠.

(٢) المعجم الوسيط حـ١ ص٢١٧ دار إحياء التراث العربي ببروت، الطبعة الثانية وكذا القاموس المحيط للفيروز آبادي ص١٢٨٠ مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧م.

وسائل الإفساد السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، الفردي والجماعي، إلا ويجلبونها إلينا ويشيعونها فينا، ويحرضوننا عليها. ولنقرأ النص مرة أخرى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (١).

وأحسب أن بغضاء الأفواه قد ظهرت في المواقف والمحافل الدولية، وفي إفشال كل قضايانا العادلة والوقوف بجانب أعدائنا، وإمدادهم بكل وسائل قهرنا وإذلالنا على طول الخط. فماذا تبقى أيها الناس؟

لقد تبقى الكثير الكثير، وصدورهم تخفي ما هو أكبر وأكثر، فهل يعي المسلمون خطورة الموقف وهل يفكرون ويتعقلون؟

لقد جاءت مواقف الواقع دليلاً صادقاً ومطابقاً لتوجيه المنهج الإسلامي في التعامل مع الآخرين، وكانت الحرب في البوسنة والشيشان خير برهان حتى لمن لا عقل له. وكما يقولون.. ليت للبراق عينا فترى..!!

فالرؤية فيهما واضحة لكل من يرى حتى ولو لم تكن له عين... فقد تمده الأذن بسماع ما يكره وما يجعل الولدان شيباً.

والغريب العجيب أن سفارات هؤلاء الذين يفعلون ذلك بإخوان لنا ترتفع شامخة في عواصم عربية وإسلامية كثيرة، ويستقبل الرسميون منهم بحفاوة وترحاب، وتعقد معهم صفقات تجارية تمول خزائنهم بمئات المليارات، وتسد في مجتمعاتهم

(١) آل عمران ١١٨-١٢٠.

النقص في ميزان المدفوعات، في الوقت الذي يقفون فيه من قضايانا هذه المواقف.

ويتصرف كل قطر على حـدة. وكأن الأمر لا يعنيه مـن قريب أو بعيد، هـذا هو الواقع المر ولكنه واقع مرفوض في مدلول الإيمان ومعناه.

وهو واقع ينقض كل عناصر التدين الحق ويرفع عن أصحابه سمت الإيمان؛

بل ويسلب انتسابهم للإسلام أصلاً ولنقرأ النصوص:

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (١).

فالذين يأخذون هذا الموقف الإيجابي، ويلتـزمون بالمنهج في توحيد عواطفهم تجاه أعداء الله ماذا يقول عنهم القرآن الكريم:

﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢).

فالنـص هنا حدد مجموعـة من الخصائص النفسية لمجتمـع المسلمين جاءت على الترتيب كالتالي:

١ - نفي الإيمان شكلاً وموضوعاً عن كل من يوادون من حاد الله ورسوله.

وهذا ما تفيده نصًّـا عبارة:

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٣)

(١)، (٢) المجادلة ٢٢.

٢ - علاقة العقيدة هنا فيمن يؤمن بالله واليوم الآخر توجه العاطفة إيجاباً وسلباً، إيجاباً بالحب لأولياء الله، وسلباً بالكره والعداء لأعداء الله والجاحدين به والكارهين لدينه، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أوعشيرتهم.

ويلاحظ أن عملية الكره هنا لأعداء الله لا تنسحب على ذواتهم وشخوصهم، وإنما تتوجه إلى الأفعال والمواقف، فنحن نكره أفعالهم ومواقفهم فقط.

٣ - الإلتزام بالموقفين السابقين دلالة إيمان حقيقي تمكّن من النفس وسيطر عليها، وملك زمام التوجيه فيها ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ .

٤ - تأييد الله ونصره وعنايته ورعايته تتوقف على الالتزام بهذا السلوك في ضبط العواطف، وتحديد المواقف، وتوجيه المسار العام، وهذا ما يفيده النص في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ .

ولقد تحقق هذا التأييد في بداية الدعوة من خلال مواقف كثيرة حدثت في بدر وفي أحد وفي غير هذه المعارك.

ويجب أن نلحظ العلاقة الوشيجة بين الصدق في الولاء لله وبين النصروالتأييد، فكأن الولاء الصادق والحب الصادق يستنزلان التأييد والنصر.

«وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً» (١) .

ولن يكون المؤمن صادقاً في حبه لله إلا إذا كان قادراً على أن يُحكِّمَ ولاءه لله في كل عواطفه، وعلاقاته وصلاته بالآخرين؛

وهذه مسألة جديرة بالاهتمام، عميقة الأثر في الفكر الإسلامي، منحها الإسلام

(١) آل عمران ١٢٠ .

أهمية فوق العادة كفاية في توجيه العواطف، وكوسيلة وأداة في تربية المسلم على قيم المنهج في الحب والبغض.

والنقاط الأربعة السابقة تتصل اتصالاً مباشراً بالبعد الأول في الزمان والمكان... لكن حياة المؤمنين لا تتوقف فقط عند البعد الأول في الزمان والمكان (الحياة الدنيا) وإنما يوجه المنهج إليه دعوة مباشرة لمد الحياة، فلا يتوقف بها عند حدود المحسوس في هذا العالم.

وإنما يجب أن تتسع طموحاته لتصل إلى الخلود في الوجود زماناً ومكاناً، وبالتالي فإنها تتعدى هذا العمر المحدود على سطح هذه الأرض، وتتجاوز عالم المحسوسات لتدخل بالإنسان إلى عالم الخلود «في مقعد صدق عند مليك مقتدر».

إنها دعوة تتجاوز عالم الفناء لتدخل في مستقر عند الله أبقى وأخلد.

ولذلك يشير النص الكريم الى ما أعده المحبوب لمن أحبوه وأحبوا فيه وأبغضوا فيه:

ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها

رضي الله عنهم

ورضوا عنه

أولئك حزب الله

ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون.

من خـلال الحب لله يتولـد الحب لكل مخلـوقاته ، وهنـا تنشأ عـلاقة عـاقلة بين الكائن والكون على ضوء هذا الحب .

والتصور الإسلامـي في تحديد العلاقة بين الأشياء والإنسـان لا يعترف بالصدام ، ولا بالصممية ، وإنما يحدد أسلـوب التعامل مع الأشيـاء من خلال علاقـة صامتة ، لكنها على كل حـال ليست صماء ، بل إنَّ لها منطقا تتخاطب بـه فيما بينها ، وتتلقى به من ربها ، وتسمع له وتستجيب .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (١) .

أي سمعت له وحق لها أن تسمع .

والقرآن الكريـم قد أعطى نموذجا لطبيعـة التفاعل ومداه الـواسع بين الإنسان – السيد المطاع – في هذا الكون وبين العناصر المستجيبة بالتسخير لأمره وإرادته ،

وبينت النصوص أن الإنسان الخليفة عن الله في الأرض يمكـن أن يرتقي بالعلاقة فيسمع الأشيـاء ويخاطبها ، وداود وسليمان نموذجـان للعلاقـة العاقلة والنـاطقة بين الإنسان وغيره من المخلوقات .

فالنبي الملك سليمان يعلن هذه العلاقة وينادي في الناس :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ

(١) الإنشقاق ١-٥ . .

وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١) .

العلاقة هنا . . . ليست صامتة ، وإنما هي علاقة عاقلة وناطقة ، وتأمل قوله تعالى : عُلِمْنا منطق الطير . . . فتبسم ضاحكاً من قولها .

إذاً هنالك لغة عبرت عن المطلوب في لحظة الخطر ، وحذرت بها النملة بني جنسها حتى لا يتعرضوا للدمار والتحطيم ، وسمع نبي الله سليمان كلماتها ، وتبسم ضاحكاً من هذا القول .

ولئن كانت معرفة منطق الطير ولغة النمل وحديث الأشياء خاصية لا يصل إليها كل الناس ، إلا أن علاقة الإنسان بالله وطبيعة المحبة المتدفقة تجذب إلى الإنسان عالماً من الرؤية غير محسوس ، وتنقله من المدى الممنوح لأدوات الإدراك ـ سمعاً وبصراً وذوقاً ولمساً وشماً ـ إلى مدى آخر تعمل فيه البصيرة مكان البصر، وتتخطى فيه الروح حواجز الزمان والمكان ، وتزال الأستار والحجب بين الإنسان والأشياء ، فيصبح السمع أدق ، والبصر أحدّ ، لأن المخلوق حينئذ لا يرى بأدواته هو ، وإنما أضحى يسمع ويبصر برؤية الله له ، وبسمع الله فيه . . . .

فالله عن طريق الحب يتجلى في الإنسان باسم السميع والبصير، والودود ، فيتسع المدى المرئي والمسموع إلى الأفق الأعلى والأوسع ، وتتلاشى حدود الحس الثقيل والمادة المحجوبة عن حقائق الأشياء وأسرارها.

ولعل الحديث القدسي يشير إلى هذه الحالة حين يسيطر الحب على علاقة الإنسان بالكون والحياة كماً وكيفاً.

---

(١) النمل ١٦-١٩ .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله تعالى قال :

من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ،

وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ،

وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه ،

فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ،

وبصره الذي يبصر به ،

ويده التي يبطش بها ،

ورجله التي يمشي بها ،

ولئن سألني لَأُعطينّه ،

ولئن استعاذني لَأُعيذنّه)[1].

فما من مفردة من مفردات الوجود إلا وتُبادل الإنسان العاطفة ، تحبه وتحن إليه ، وتحنو عليه ، وتتوجه إلى ربها داعية له ، مستغفرة لذنوبه ، لأن حبه لله أحدث انسجاماً بينه وبين الكائنات كلها فأضحت رفيقة درب ، وصديقة مبدأ وقضية . . .

فالمبدأ واحد . . . والمسار واحد . . . والمنتهى واحد أيضا . .

فمن حيث المبدأ : الكون والإنسان صادران عن إرادة واحدة . . هي إرادة المحبوب الأعلى . .

(١) رواه البخاري . انظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج١ ص٣٠٣ و٣٠٤ .

﴿ إنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) .

ومن حيث الوجهة والمسار . .

الكون بمفرداته كلها يسبح بحمده ، ويهتف بمجده .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ (٤) .

أمّا من حيث المنتهى والمآب فهو إليه حتماً ولا مماراة في ذلك . .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ (٦) .

﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ (٧) .

---

(١) يس ٨٢ .
(٢) الإسراء ٤٤ .
(٣) النور ٤١ .
(٤) الرعد ١٣
(٥) المؤمنون ١١٥
(٦) النجم ٤٢
(٧) العلق ٨

وهكذا يعرف المسلم من خلال منهجه نقطة البدء التي ينطلق منها ويشترك فيها مع الكون بمفرداته كلها .

ثم يعرف أيضا أنه والأشياء معه صادران عن إرادة واحدة ، خاضعان لرب واحد ، فيتولد عن ذلك وحدة في المسار والمصير والوجهة .

وإذاً فلم تعد تحكمه بالأشياء علاقة التناقض والصراع كما في الفلسفات والأيديولوجيات الأخرى .

وإنما أضحى الكون بأشيائه ومكانه وزمانه ومفرداته كلها صديقا لهذا الإنسان محبا له ، لأنه يسلك معه نفس الطريق ، ويتجه إلى نفس الغاية ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طلع له أُحد فقال :
(هذا جبل يحبنا ونحبه ، أللهم إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت ما بين لابتيها) (١).

﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٢) .

وهذا الود مبعثه وأساسه علاقة الحب التي ربطت بين الله والإنسان ، وامتدت من خلال هذا الأفق المشرق ليدخل فيها كل شيء في السموات والأرض ، وهذا المعنى هو الذي أشارت إليه الآية السابقة « سيجعل لهم الرحمن وداً » كما وضحه الحديث الذي رواه البخاري ومسلم ونصه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

---

(١) فتح الباري مجلد ٧ ص ٣٧٧ مراجعة وتصحيح وتدقيق العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز ، ترقيم وتبويب العلامة محمد فؤاد عبد الباقي طبعة دار الفكر.
(٢) مريم ٩٦.

(إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل : إنَّ الله تعالى يحب فلاناً فأحبِبْه ، فيحبه جبريل فينادي في أهل السماء : إنَّ الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض)[1].

فَنَبْعُ هذا الحب هنا مصدره محبة الله للعبد بعد أن يكون العبد قد أحب ربه وتعلق به ، وارتبطت مشاعره وأحاسيسه ، وغضبه ورضاه ، وقلقه وطمأنينته بحب ربه له ، ورضاه عنه في المواقف كلها .

وهكذا تتسع دوائر الحب في عواطف المسلم لتشمل الأهل والجيران ، وتمتد لتدخل فيها أخوة الدين فلا يكتمل إيمان المرء إلا إذا أحب لإخوانه ما يحب لنفسه . . .

بين الحب والارهاب

لقد بلغت دعوة المحبة في هذا الدين مدى لم تعرفه الدنيا من قبل ؛

ولئن كان الفوز بالجنة في دار الخلود هدفاً يسعى المؤمن لتحقيقه فيما بعد الحياة ، فإن الطريق إلى هذا الفردوس العظيم يبدأ بالإيمان ، ولا إيمان حيث الكراهية والبغضاء ، والحقد ، والصراع اللئيم الذي لا يعرف الشرف ويشيع في الناس القلق والفزع ، ويسلبهم نعمة الطمأنينة والسلام .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال . . قال رسول الله (ﷺ) : «والذي نفسي بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا .

ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحابَبْتُمْ؟ . أفشوا السلام بينكم» .

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين جزء ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ .

ولعله مـن المفيد أن نذكّـر القـارىء الكريم بـأن الإيمان الحقيقي هنا يتـوقف على وجود الحـب، وهذا ما أشارت إليه . . عبـارة الحديث الشريف: «لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

والوسيلة الفعالة والـمُـثـلـى في ايجاد الحب بين الناس هي إفشاء الســلام. . .

تـرى. . . مـا المقصود بهذه العبارة في النص ا لشـريف؟ . .

هـل هي مجرد إلقـاء التحيـة المخصوصـة في ديــن الله بين المسلمين كما يفهـم البعض؟ .

أم أنها دعوة واسعة لتحقيق الطمأنينة و إشاعة الأمن في جوانب الحياة كلها، وبين مفردات الوجود بأرضه وسمائه ونباته وجماده وحيوانه و إنسانه .

ومـن المفارقـات الغـريبة والعجيبـة في عصرنـا هـذا، - عصر القدرة الهائلـة على التزييف والتضليل وانقلاب الحقائق واختلاق الأكاذيب، وانفـلات القيم - .

من المفارقات أن تكون هذه هي دعوة الإسلام في تقـديرها لمكانة الحـب كفريضة في الإيمان، وكـدليل على صـدقـه في اشاعـة الطمـأنينة والسـلام، وحمايـة الدمــاء والأموال والأعراض .

من المفــارقات أن يكـون هـذا هـو مضمــون الإيمان في دين اللـه الخاتم الذي هـو الإســلام. . . . في الـوقت الـذي يتهم هـذا الـدين وأتبـاعـه بتهمة الارهـاب والعنف .

ففي اللحظة التي يدعـو الإسلام فيهـا كل المؤمنين به إلى إفشاء السلام كمضمون لدعوته . . . تتحرك كل أجهزة التعصـب والعدوان في الغرب لترمي ديننا بِعِلَّتهم هـم

وتنقل إلينا تهمة العيش على القضم والهضم والشراسة والعدوان . . . فإذا ذكر التطرف والعنف فهما يقترنان بالإسلام والمسلم . . وهذا ما تقوم به وتُرَوِّجُ له وسائل الاعلام الغربية ، بينما لم يطلق الوصف ولو مرة واحدة على صرب البوسنة رغم ما فعلوه من مذابح ،

كما لم يطلق على التعصب الصهيوني وما فعله ولا يزال يفعله بشعب فلسطين ولبنان .

أو ما فعلته روسيا ولا تزال تفعله في القوقاز والشيشان . .

إن كل مناهج الأرض قد فشلت في نزع الكراهية من قلوب البشر ، وبرغم كل الحوافز والدوافع والمثيرات ، وبرغم الكم الهائل من القوانين التي تنظم العلاقة بين الإنسان والإنسان لم تنجح كل هذه المحاولات في نزع فتيل البغضاء والكراهية ، ورأينا بأم أعيننا ونحن في نهاية القرن العشرين ما فعلته الكراهية بملايين البشر قتلاً وتدميراً وتعذيباً وانتهاكاً للحرمات و إراقة للدماء البريئة .

ومذابح البوسنة والشيشان شاهد العار على حضارة القرن العشرين والواحد والعشرين .

ولعل سر هذا الفشل الذريع أن هذه الأيديولوجيات والمناهج لم تضع في اعتبارها إحسان العلاقة بين الخالق والمخلوق أولاً .

بل إنها تجاهلت هذه العلاقة ، وربما جحدتها وتنكرت لها ، فكان نصيبها هذا الكم الهائل من الكراهية والضغائن والأحقاد والصراعات .

إنَّ الإسلام هنا وبتجرد تام . . هو وحده القادر على أن يقدم للدنيا شفاءها

ودواءها ، وأن يخلصها من أمراض الكراهية التي فتكت بها وأكلت الأخضر واليابس .

إنه الدين الوحيد الذي يجعل الحب فرضا من فرائضه ، ولا يكتمل فيه إيمان المرء إلا إذا أحب لغيره ما يحب لنفسه ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[1].

بل ينفي - بالقَسَم - عن المنتسب إليه صفة الإيمان ما لم يأمَنْ جاره بوائقه .

ويأتي هذا النفي على لسان رسول الله ﷺ بصيغة القسم تأكيداً وتحريضاً .

تأكيداً . . على أن الحب ركن في الإيمان ودليل على صدقه ، وأن الدين الصحيح يبني بالحب شخصية المؤمنين به ويفرضه فرضا في حياتهم .

وتحريضاً . . للمؤمن على التخلص من كل أسباب الكراهية ، وتجنب ما يضر الآخرين ويؤذي مشاعرهم ، ويعكر صفو القرب والجوار الطيب في حياتهم .

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي شريح الكعبي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن : قيل يا رسول الله لقد خاب وخسر مَنْ هذا ؟ قال : من لا يأمَنُ جارُه بوائقه . قالوا : وما بوائقه ؟ قال شره)[2].

وهكذا تتمدد دوائر الحب في منهج الإسلام ، ويتسع مداها في الزمان والمكان حتى تُظَلِّلَ كل شيء ، وينعم في ظلها الإنسان وحتى الحيوان الأعجم بالسلام والوئام والطمأنينة .

(1) سنن الدارمي ج ٢ ص ٣٠٧ دار الفكر بيروت .
(2) رواه البخاري وأورده صاحب الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٥٢ دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٨ .

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال: «عُـذبـت امـرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[1].

وهكذا يكـون للحيوان نصيـب من دعوة الحب في ديـن الله فـلا يجوع ولا يظمأ، ومن يفعل به ذلك فمصيره إلى النار وبئس المصير.

فضوابط المنهج هنا حاصرت نـوازع النفس في الشرور والآثام ، وحجزت أضرارها من أن تصـل إلى الآخريـن بأذى ، أو تمتـد إليهم بمكـروه الجوارح واللسان في القـول والفعل.

(فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمِنه الناس على دمائهم وأموالهم)[2].

وإذا كان الحديث السابق لا يعطينا من خصال الإسلام إلا شعبة واحدة من شعبه العملية وهي (كف الأذى عـن الناس) ويجعلها معياراً يتميز به المسلـم الصادق من المنافق، فـذلك هو الأفق الأعلى ، والأرحـب ، والأعظم ، والأجمل ، والأكمل دائما حين تطرح القوائم في المقارنة بين دين ودين ، ومنهج ومنهج ، ورسالة ورسالة .

فهل يدعونا ذلك إلى إعادة النظر في فهمنا لشعب الإسلام والإيمان؟ .

وهل يدعـونا ذلك أيضا إلى التفكير في إعادة صيـاغة منهجنا وتقديمه للـدنيا من جديد؟ .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي حـ١٦ ص١٧٢ دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية .
(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ١٢ حديث رقم ٢٦٢٩ .

أما المحور الثالث في مثلث الإيمان ، أو الضلع الثالث كما أشرنا من قبل فهو :

الجانب العملي التطبيقي . . .

وهذا المحور إنما هو ثمرة للمحورين السابقين ، ونتيجة عملية لمدى قناعة المسلم والتزامه بهذا الدين .

ويمكننا أن نقسم هذا المحور إلى نقطتين هامتين :

الأولى : وتتناول جانب الفرائض الدينية في هذا المنهج .

والثانية : تتناول جانب الفرائض الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وهاتان النقطتان تتكاملان فيما بينهما ولا تتعارضان .

النقطة الأولى تكاد تكون واضحة المعالم بينة القسمات والملامح . . . غير أن آثارها هي التي تحتاج إلى شيء من التوضيح والتفصيل . . .

فما من مسلم إلا ويعرف طبيعة هذه الفرائض ، وطرق أدائها ، وأوقاتها ، وكيفيات الأداء في هذه الفرائض من صلاة وزكاة وصيام وحج ، لأنها ـ بجانب كونها فرائض دينية ـ إلا أنها تمارس في الحياة اليومية ، مما يجعلها واضحة المعالم ، مأنوسة الممارسة ، فليس المسلم غريباً عنها أو جاهلاً بها .

غير أن ديناميكية الأداء قد تحول الفريضة عن مهمتها الأساسية في تزكية النفس وتطهير القلب ، وترقية الوجدان والمشاعر ، خاصة إذا خلَتْ عملية الأداء من روح الإخلاص والحب وتحولت إلى مجرد ممارسات يومية أشبه ما تكون بحركات الرياضة التي يمارسها البعض . . .

وتلك هي نقطة الخطر التي نحذر منها، وندعو المسلم أن يتجنب الوقوع فيها.

أبعاد العبادات

ومن المعلوم لدى المسلم أنه ما من فريضة من الفرائض إلا ولها أبعاد ثلاثة :

البعد الأول : هو البعد الاعتقادي.

فلا بد مع الممارسة أن يكون الإنسان مؤمنا بصدق ما يفعل، موقناً بجدواه على الفرد والمجتمع.

البعد الثاني : وهو البعد الأدائي...

ونعني به أن العبادات لا بد أن تُؤدَى كما أمر الله وكما بَيّنَ رسول الله ﷺ ، فلا يجوز فيها أن يتدخل الهوى بالزيادة أو النقصان أو تغيير في الوقت أو الهيئة، لأن المسلم حين يعبد ربه إنما يعبده بالاقتداء والاتباع .

والنموذج الذي يمثل قمة العابدين وسيد العارفين بالله وخير المطبقين لمنهجه إنما هو رسول الله ﷺ.

لذلك فنحن نأخذ عنه ، ونتلقى منه ، ونقتدى به باعتبارين :

الأول : أنه مبلّغ عن الله تعالى.

والثاني : أنه خير مَـنْ طبق ونفـذ، واجتمعت فيه وتكاملت كل عناصر العبودية الخالصة لله رب العالمين. هذا من ناحية.

من الناحية الأخرى فإن الله الذي أنزل الكتاب هو الذي أمرنا بطاعة هذا النبي

وقال لنا :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١) .

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (٣) .

وحذرنا من عصيانه ومخالفة أمره :

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (٤) .

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٥) .

وبناءً عليه وجب على المسلم أن يلتزم بما بينه رسول الله ﷺ في طريقة وأسلوب الأداء اليومي للعبادات ، لأن الله فوضه في بيان الكيفية والوقت والمكان ، ولا بيان لأحد بعد بيان رسول الله ﷺ ، ولذلك قال : « صلوا كما رأيتموني أصلي »(٦) .

البعد الثالث : المقتضى والأثر . . .

ونعني به مردود العبادات الأخلاقي والاجتماعي على الفرد والمجتمع .

(١) النور ٥٤ .
(٢) النساء ٨٠ .
(٣) آل عمران ٣١ .
(٤) النساء ١٤ .
(٥) النور ٦٣ .
(٦) مشكاة المصابيح المجلد ١ ص٢١٥ .

وهذه نقطة جديرة بالاهتمام نتيجة الفصل الخاطىء بين العبادات وبين الممارسات اليومية في عقل المسلم أولاً . .

ثم في الشارع العام ثانياً .

فالمساجد تمتلىء بالمصلين ، والصيام يسيطر بمظاهره على مؤسسات المجتمع أثناء الشهر الكريم . . . وتزداد كل عام وفود الحجيج إلى بلد الله الحرام .

إذاً ما هي المشكلة . . . .

المشكلة أن هذه العبادات لم تَعُدْ تؤد الأثر المطلوب منها في ضبط سلوكيات الناس أثناء الحياة اليومية .

فمع الاعتراف بوجود هذه المظاهر والسمات الإسلامية إلا أن الممارسات شيء آخر؛

فهي مليئة بالتناقضات المخلة بأبسط قواعد الأدب والمروءة والأخلاق . . .

وأمام المصالح والمطامع يتحول الإنسان إلى وحش له أنياب ومخالب ، وينسى في سبيل تحقيق مآربه كل الضوابط والتوجيهات .

وهنا تحدث الكارثة حيث يظهر الفصل الواضح بين العقيدة والسلوك ، والانفصام بين القول والفعل ، والازدواجية والاختلال في شخصية الإنسان المسلم .

ولذلك فقد وجب على كل العلماء والموجهين والمفكرين أن يبذلوا قصارى جهدهم في لفت الأنظار إلى ضرورة تحقيق هذا البعد الأخلاقي والاجتماعي الذي هو المقتضى والأثر للعبادات في حياة المسلمين ،

وهو بعد لـه حساباته في تقدم المجتمع ، وصيـاغته بشكل جديد وقيـم جديدة ، وتحويله من مجتمع مستهلك مادي، إلى مجتمع ذي صبغـة ربانية يتراحم الأفراد فيه ، وتحكمه وتسوده المروءة والعفة ومكارم الأخلاق .

وذلـك مـا تشير إليـه النصوص وتلفـت الأنظـار والبصـائر إلى ضرورة تحقيقـه في المجتمع وتحققه في شخصية المسلم :

ففريضـة الصوم مثلاً في بعـدها الثالـث (المقتضى والأثر - أو المردود الأخـلاقي والاجتماعي تكون مهمتها أن تنأى بالمسلم عن قول الزور والعمل به :

(من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[1].

والزكاة كذلك ترتبط في بعدها الثالث بالجانب الأخلاقي والاجتماعي .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [2] .

والصلاة كذلك لا بـد فيها من وجود البعد الثالث وهـو الثمرة والنتيجة ، والأثر والمقتضى الأخلاقي والاجتماعي .

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [3] .

فـالانتهاء عـن الفحشاء والمنكـر هنا يمثـل المردود الأخلاقـي والاجتماعي لمهمـة الفريضة في تزكية النفس وتطهير القلب وإنارة البصيرة . ولذلك فقد روى الدارقطني في الأفراد عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

---

(١) مشكاة المصابيح المجلد ١ ص ٦٢٣

(٢) التوبة ١٠٣

(٣) العنكبوت ٤٥ .

(قال الله عز وجل :

إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ،

ولم يتكبر على خلقي ،

وقطع نهاره بذكري ،

ولم يَبِتْ مصراً على خطيئته ،

يطعم الجائع ،

ويؤوي الغريب ،

ويرحم الصغير ،

ويوقر الكبير ،

فذلك الذي يسألني فأعطيه ،

ويدعوني فأستجيب له ،

ويتضرع إليّ فأرحمه .

فمثله عندي كمثل الفردوس في الجنان

لا يتسنى ثمارها ولا يتغير حالها)(١).

وهكذا تؤدي العبـادات دورها في تزكية النفس والارتفاع بمستـوى الفرد والمجتمع أخلاقياً، ومن ثَـمَّ اجتماعياً واقتصادياً .

غير أن الكثيرين مـن الناس قد يتصورون أن المطلـوبات الدينيـة تقتصر على هذا النوع من الفرائض وحدها .

(١) أنظر كنز العمال ص ٩١٠ المجلد ١٥ ط مؤسسة الرسالة.

وأن المسلم يكـون قد أدى ما عليـه إذا قام بهذه الفـرائض . . . وبالتالي فميـادين الحياة المختلفـة لا علاقة لها مـن قريب أو بعيد بهذا الـدين إلا من خـلال تأثيره على الفرد في توجيه السلوك ، وهذا مفهوم مغلوط ، فـالقيم المؤثرة في دفع حركة المجتمع إلى الأمام تعتبر في منظور الإسلام فرائض اجتماعية ، كالعدل ، والمساواة ، والحرية ، والأخـوة ، والوحـدة ، وإجـادة الفنون والآداب ، والبراعـة في علـوم الكون وعلـوم الحياة .

وهذه القيم لا تقل تأثيراً في حياة الفرد عن الواجبات الدينية .

كما أنها في موازين الحساب والجزاء تعدل الصلاة والصيام والحج .

وكل تقصير فيهـا ، أو إهمال لها ، أو تفريط في تحقيقهـا يحسب مع الكبـائر التي يحذر الإسلام منها ، وينأى بالفرد والمجتمع عنها .

ولذلك فلا يمكن لمجتمع المسلمين أن يحقـق نهضته العلمية والحضارية إلا بالمزج التام بين فرائض الدين والواجبات الاجتماعية ،

وهذا التقسيم نظـري لضرورة البحث فقط ، فليس في حياة المسلـم فرق بين عمل للدين وعمل للدنيا ، خاصة إذا صحـت الوجهة وسلمت النوايا ، فكلاهما وجهان لعملة واحدة .

الوجه الأول من العملة :

الفرائض الدينية :

وهي التي تعمِّر النفس وتشيد فيها بنيان الإخلاص والتقوى ، وترتفع بها فوق الحس الثقيل ؛

وتنتقل بالإنسان من حدود الالتصاق بعالم المادة الضيق لتربطه بعالم الملكوت الأعلى ، فيتحقق له عن طريق تلك الفرائض الجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وبذلك تحدث عملية الإشباع الروحي التي يتحقق بها الانسجام الذاتي في داخل الكيان الإنساني بين ملكاته النفسية والمادية معاً .

الوجه الثاني :

الواجبات الاجتماعية :

وهي الواجبات التي تشكل الأساس في عمارة الكون المادي ، ويتحقق مردودها على مركز الإنسان في الكون باعتباره السيد المطاع والخليفة عن الله .

وإذا كان الوجه الأول من العملة كما قلنا يعمّر النفس ويشيّد فيها جانب القيم والأخلاق والفضائل .

فإن الوجه الثاني يُعَمِّرُ الكون وَيُشَيِّدُ فيه أركان المشروع الحضاري ، ويحمي البيئة المادية من أسباب الفساد والفوضى ، ويرتب هذه الحماية على أساس من العقيدة والقيم المنبعثة عنها ، ويرسخ في حس المسلم وعقله أن شُعَبَ الإيمان لا تتناول الإنسان فقط بالإصلاح والتصحيح ، وإنما تستهدف مع صلاح الإنسان صلاح البيئة المحيطة والكون العريض ، كما يرتب كل فساد في الكون على فساد الناس في نواياهم وضمائرهم وما كسبته أيديهم :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١) .

ولقد كانت أمة الإسلام أسبق الأمم في إنشاء المشروع الحضاري الكبير ووظفت في سبيل تشييده وإقامته أبعاد الزمان وأبعاد المكان . .

---

(١) الروم ٤١ .

فمن حيث البعد الزماني: قرر الإسلام أن الخير والشر كلاهما لا يضيع أبداً مهما كان صغير الحجم صغير الأثر ما دام مرتباطاً بغاية نبيلة المقصد شريفة الوسائل. أو بغاية سيئة الأثر غير شريفة الوسائل.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١).

وهنا نجد أن بُعْدَ الزمان لم يتوقف عند حد، بعكس المسيحية التي اعتبرت التجربة الإنسانية ساقطة من الحساب منذ صلب المسيح فهو قد كفَّرَ بصلبه كل الخطايا وتحملها عن الناس - كما يدعون؛

وهذه في الواقع دعوى تصادم العقل، وتناقض المنطق، وتجافي الحقيقة من كل الوجوه، فلا المسيح قد صلب، ولا هو يملك التكفير عن ذنب لا عن نفسه ولا عن غيره من البشر، وبالتالي فقضية الخطيئة بمفهوم المسيحية ساقطة من حساب العقل، وليست التجربة الانسانية في الصواب والخطأ هي التي تسقط - كما يدعون -.

ومن حيث البعد المكاني اعترف الإسلام بالتجربة الإنسانية، واعترف قبل ذلك برسالات السماء ـ ثم قَبِلَ فكرة الإبداع الإنساني في إثراء الحضارات، واعتبر التجارب الإنسانية ضمن روافد التكوين الحضاري للأمم والشعوب.

و إذا كانت الفلسفات قد اعتبرت الصراع هو قانون الوجود فإن القرآن الكريم كمحتوى للحضارات لم يرفض فكرة الصراع أصلاً، وإنما اعترف بها ولكن لغاية هي القضاء على الفساد:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (٢).

فهناك عطاء لكل جيل على مستويين..

(١) الزلزلة ٧ـ٨ (٢) البقرة ٢٥١.

الأول، هو مقاومة الفساد ومحاولة تخليص الحياة منه، وتحديد آثار الشرور والآثام المترتبة عليه والمتولدة عنه .

ومن هنا كان قبول فكرة الصراع لا باعتبارها قانون الوجود كما تروج الفلسفات المادية، وإنما باعتبارها وسيلة لغاية هي . . مقاومة الفساد، ولذا فقد سماها القرآن الكريم بقانون التدافع .

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) .

المستوى الثاني،

أن فكرة بناء الحضارات ليست قاصرة على جنس بعينه، كما أنها ليست حكراً على جيل بذاته . .

فهناك عطاء لكل جيل ولكل جنس، وبالتالي فالتراكمات المختلفة لها في التكوين الحضاري إسهام كبير ويشارك فيها الأجيال والشعوب والأمم،

وكما تزدهر الحضارات وتنمو كذلك تشيخ وتكبر، وهنا لابد من أمة أخرى تقوم بعملية الدفع حتى لا يحدث ركود حضاري وتتوقف دورة الزمن ـ وهي لا يمكن أن تتوقف ـ فما لم تكن لك فستكون عليك، وهذا ما يسمى بقانون الاستبدال في المنطوق القرآني . . .

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ (٢) .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (٣)

(١) الحج ٤٠ . (٢) محمد ٣٨ . (٣) فاطر ١٦-١٧ .

شُعَبُ الإِيمانِ ..
وَدَوْرُها فِي التَّراكُمِ الحَضارِيِّ

ولئن بدأت شعب الإيمان بكلمة التوحيد باعتبارها القمة والغاية في حياة المسلم، فإن هذه الشعب تمتد وتتفرع حتى تتناول نظافة الشارع وكف الأذى عنه مادياً ومعنوياً معاً :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(الإيمان بضع وسبعون شعبة ،

فأفضلها قول لا إله إلا الله .

وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان)(١).

وهكذا تظهر وتتفوق المنظومة الإسلامية الرائعة بشمولها وتمددها لتظلل كل شيء ولا تهمل شيئا في هذا الوجود.

وبالتالي فكل ما يصلح الإنسان ويعينه على أداء رسالته وتحقيق خلافته عن الله ، ويجعله أصيلاً لا تابعاً في هذا الكون ، وسيداً منتجاً لا مستهلكاً فقط ، وحراً لا يدين بالعبودية إلا لربه فقط . . .

كل ما يحقق له ذلك يدخل ضمن مفردات المنظومة الإسلامية على ضوء من الفهم الصحيح للقاعدة الأصولية المعروفة :

« ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ».

---

(١) أخرجه الخمسة . راجع جامع الأصول جلد ١ ص ٣٢٧ الكتاب الأول في الإيمان والإسلام حديث رقم ١٩ وتيسير الوصول ج١ ص ١٨

وبذلك تتحول القيم الدافعة، والمحركة، والمؤثرة في حركة المجتمع إلى الأمام من مجرد قيم قد تمارس لدى غير المسلمين وتطبق في حياتهم كوسيلة لحماية المجتمع وتقدمه وتحقيق أمنه وسلامته، إلى جزء من الإيمان الصحيح، ومفردة من مفرداته المتعددة، لا يضار المجتمع بغيابها فقط، وإنما يتأثر الإيمان بوجودها إيجابا وسلباً، فإن تحققت في الفرد والمجتمع نما الإيمان وازداد، وإن غابت عن الفرد والمجتمع والأمة، نقص الإيمان وتراجع.

بل إن العقيدة الصحيحة لا يمكن أن تبقى وتستمر، وتؤدي دورها الكامل إلا في ظلال القيم التي تحقق للمسلمين القوة بشقيها :

الروحي : ممثلاً في الفرائض الدينية.

والمادي : ممثلاً في الفرائض الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

١ - العـــدل :

وهو في مقدمة الفرائض الاجتماعية التي قامت بها السموات والأرض وانتظم بها الوجود كله :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (١).

والميزان هنا رمز للعدل المطلق مجرداً عن الزمان والمكان، لأنه صفة من صفات الله لا يصلح بغير وجودها زمان أو مكان، فكيف يتصور غياب هذه القيمة في مجتمع المسلمين ؟

(١) الرحمن ٧، ٨، ٩.

بل كيف يقوم مجتمع أصلاً بغير هذه القيمة ؟

«لذلك فإن الله تعالى ربط وجود البينات في رسالات الرسل التي جاءت لتعمل عملها في إقناع العقول ، وتطهير القلوب ، وتزكية النفوس بالميزان الذي هو رمز للعدالة المطلقة التي لا تتحقق أصلاً إلا في ظلال القوة المادية التي تحمي مجتمع المسلمين وقيمهم، ومنهجهم، من عمليات الاجتياح الضرير الذي يتعرضون له بين الحين والحين ،

وفي مقدمة هذه القوة البراعة في صناعة الحديد الذي فيه بأس شديد لكل من يخرج على الحق ويتمرد عليه ،

أو لكل من يرفض العدالة ويحيف على دعاتها»(1).

ولقد أشار العلامة الفخر الرازي إلى هذا المعني حين قال :

(الميزان إشارة إلى حمل الناس على تلك الأحكام المبنية على العدل والإنصاف ، والحديد إشارة إلى أنهم لو تمردوا لوجب أنْ يُحْمَلُوا عليها بالسيف) (2).

قال تعالى :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (3) .

---

(1) راجع كتاب ﴿ دعوة إلى التأمل ﴾ للدكتور/ ابراهيم أبو محمد ص ٨٩ الطبعة الثانية - بتصرف .
(2) تفسير الفخر الرازي ج ٢٩ ص ٢٤٠ دار الكتب العلمية طهران الطبعة الثانية .
(3) الحديد ٢٥ .

وبهذا تكون قيمة العدل مفردة ضمن مفردات المنهج الإسلامي، يطالب المسلم بتحققها في نفسه وأهله كفرض من الفروض، كما يطالب بالعمل على تحقيقها في المجتمع الإسلامي أولاً ، ثم في المجتمع الإنساني ثانيا .

ولا يصدق النطق بالشهادتين لديه إلا إذا تحقق العدل في حياته الواقعية، وفي البيئة المحيطة به على أقل تقدير في صدق دعواه .

وعليه أن يسعى بكل وسيلة ممكنة لتحقيق العدل ، ومحاصرة الجور والظلم ، استجابة وامتثالاً لأمر الله بذلك في كتاب منهجه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١)

ويلاحظ في النص الكريم أنه لا يطلب مجرد القيام بالقسط ، وإنما يطلب بصيغة المبالغة ﴿ قَوَّامِينَ ﴾ أن يكون القيام لله ، وأن يتجرد الإنسان في تحقيق العدالة من نوازع النفس فلا يميل مع الهوى ولا يحيف مع ﴿ شَنَآنُ ﴾ (٢).

فتحقيق العدالة هنا فريضة دينية استجابة لأمر الله ؛

كما أن التجرد في تطبيقها سمة من سمات المسلم ، ولو على نفسه أو والديه والأقربين ؛

فالعدل هنا غاية ترتبط في وجدان المسلم وعقله وسلوكه بنزاهة التطبيق المطلقة بعيداً عن الأهواء التي تعتري النفس أمام حالات الغنى أو الفقر ، والقوة أو الضعف .

---

(١) المائدة ٨ (٢) الشنآن هي العداوة والكراهية .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (١) .

وبذلك حسمت قضية العدالة من أي خلاف ، وحماها كتاب المنهج من لحظات ضعف النفس باتباع الهوى أحياناً ، أو بالشفقة على من كان فقيراً أحياناً أخرى .

فالله الذي أمر بالعدل وأقام به السموات والأرض هو الله الذي خلق الجميع ، ومن هنا فهو أولى بالغني والفقير معاً .

« إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما . . . فلا تتبعوا الهوى أنْ تعدلوا . . . »

هكذا، وبهذا الوضوح والحسم تناولت النصوص قضية العدالة ، وفرضتها فرضاً، وأوجبت تحقيقها في النفس، والوالدين، والأقربين، والبيئة المحيطة كلها، وفي المجتمع الإنساني أيضاً.

٢- المساواة

وتلك هي المفردة الثانية التي تدخل ضمن المنهج الإسلامي وتمثل في بناء المجتمع ركناً ركيناً .

فالإسلام لا يعرف الطبقية الممقوتة التي ينقسم الناس في ظلها إلى سادة وعبيد .

كما أنه لا يُقَيِّمُ الأفراد على ما يملكون من عَرَضٍ زائل أو متاع رخيص .

---

(١) النساء ١٣٥

إنـه ينظر في الإنسـان إلى الملكات العليـا التـي تُعْلي من قـدره وقيمته ، وتستبقـي جوانب الإنسان فيه .

الرجولة بمعيار القيم لا بمعيار المـادة

ويقرر الاسلام أن أخطر ما يهدد المجتمع ويقوض أركـانه أن تعلو فيه القيم المادية وتتراجع فيه القيم الروحية والأخلاقية .

وبدلاً من أن يتوجه السؤال إلى الإنسان مَنْ أنت ؟

يتحول السؤال إلى كم أنت ؟

مَن أنـت بقيمك وعقلك ، وملكاتـك ، وخلقك ، وشرفك ، وأمـانتك ، وعلى ضوء هذه القيم يتم تحديد مكان الإنسان ومكانته في المجتمع المسلم .

أمّا أن يتحول السؤال إلى : . . كم أنت ؟ فتلك كارثة كبرى . .

لأن التقييم هنـا يتم وفق مـا يملكه الإنسـان من مال أو متـاع أو عرض متغير ، ويتم تحديـد المكانـة والقدر وفـق هذه المعـايير المادية في النظـر إلى الإنسان بـأشيائه وممتلكاتـه التي كثيرا ما تتحقق بعيـداً عن الأمانة والشرف ، وبطـرق كثيرة أغلبها غير مشروع . . . . فيترتب على ذلك تقديم من يملكـون المال والقوة - ولو كانوا يفتقدون نظافة الضمائر والذمم - على أصحاب الملكات والكفاءات والخلق الرفيع ،

وبذلك يحرم المجتمع من أخطر العوامل تأثيراً في نموه ودفع حركته إلى الأمام، لأن قيم الخير فيـه تراجعت بينما تقـدمت عليها قيـم مادية بحتـة ، مقطوعة الصلـة بعالم الفضائل والأخلاق ،

وإذا كان الإسلام - كما أشرنا - لا يعترف في تقسيم الرجال بالطبقيات الممقوتة ويرفض أن يتميز الإنسان لمجرد أنه يملك المال فقط ، فهو في الوقت نفسه ينصب الموازين الحق في تقدير الرجال على أساس من اعتبارين اثنين :

الأول : أن البشر يتساوون جميعاً في أصل الخلقة والتكوين ،

فلا ميزة لدم على دم ، ولا لعرق على عرق ، ولا لجنس على جنس ، ولا للون على لون آخر . .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (١) .

فأصل الخلقة والتكوين يتساوى فيه الجميع ولا يتميز جنس على جنس .

(كلكم لآدم وآدم من تراب)(٢).

الثاني : أن مجال المنافسة يجب أن يكون في إطار من الفضيلة والشرف ، وأن خير الناس في الدنيا هو من يلتزم بالتقوى والعمل الصالح . . . .

وذلك مجال متاح لكل من أراد أن يزكي نفسه ، ويطهر قلبه ، ويعلي في الأولين والآخرين مكانته .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣) .

---

(١) النساء ١

(٢) حديث رقم ١٧٧٦ ص ٤٧٣ مختصر صحيح مسلم. (٣) الحجرات ١٣

وتلك هي الطبقية الأولى التي يقرها الإسلام ويدعو الجميع إليها،

وهي طبقيـة لا تعتمد في تميـزها لـون البشرة، أو العصبيات، أو الجنـس ، كما لا تعتمـد العرض الفـاني في تقـويم الـرجـال ، وإنما تعتمد صـلاح النفـس ، ونظافـة الضمائر، والإحسان إلى النـاس كمعيار في التقييم، وكـأساس في التمايز. وذلـك هو المفهوم من «مصطلح التقوى» في النص الكريم «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

وتلك دائرة مشرعـة الأبواب، مفتـوحة النـوافذ لجميـع الخلق، بصرف النظـر عن اللون أو الجنس أو العرق أو المستوى المادي في الثراء والفقر.

وهذا هو المعنى الجميـل الذي أشار إليه الحديث الشريف الذي يمثـل قفزة نوعية في عالم القيم عند تقييم الرجال.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(إن الله لا ينظـــر إلى صـــــوركم وأموالكـم، ولكـن ينظـر إلى قلـوبكـم وأعمالكم)(٢).

ففـي ميزان الإسـلام لا تَدْخُـلُ الأعراض الـزائلـة ، ولا هيئات النـاس في تقديـر ملكاتهم ، وإنما المعـوّل عليه ـ قيم متاحة - كما أشرنا للبشر جميعاً.

ولمّا كان المجتمـع العربي قبـل الإسلام مجتمعـاً طبقياً ينقسـم الناس فيـه إلى سادة يملكون كل شيء وبيدهـم كل مقاليد الأمور ، وإلى عبيد لا يملكـون حتى من أمـر

---

(١) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري تحقيق الألباني حديث رقم ١٧٧٦ ص ٤٧٣ .

أنفسهم شيئاً، فإن الإسلام قد جاء ليعدِّل الموازين ، ويشكل بصياغة جديدة قيم المجتمع ، فيستبقي فيها ما يفيد ويحافظ عليه وينميه ، ويستبدل فيها ما يضر ، ويغير من نظرة الناس بعضهم لبعض ، ويضع معياراً - ثابتاً - بثبات قيمه - في تقدير البشر ، ويرفض النظر السطحي الذي يقف عند حدود الظاهر من الأشياء ولا يغوص إلى عمق الإنسان ليجلي أجمل ما فيه من الفضائل والقيم.

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال :

(مر رجل على النبي ﷺ فقال لرجل عنده جالس : ما رأيك في هذا ؟ فقال رجل من أشراف الناس : هذا والله حَرِيٌّ إنْ خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ : ما رأيك في هذا ؟ فقال : يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين. هذا حريٌّ إن خطب أن لا ينكح ، وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله ، فقال رسول الله ﷺ : هذا خير مِنْ ملء الأرض مثل هذا)[1].

فالرجل الثاني ـ رغم فقره وقلة ذات اليد لديه ـ خير من ملء الأرض رجالاً من أمثال الرجل الأول.

والرجل الأول ـــ وإن كان من أشراف الناس بمعيار الجاهلية ، وله بين أبناء المجتمع مكانة تجعله مسموع الكلمة إن تكلم، مجاب الطلب إن سأل، مقبول الشفاعة إن شفع، إلا أنه ـ بمعيار الإسلام هنا لا بمعيار الجاهلية ـــ لا يمكن أن يتساوى مع الأول وإن ملك كل خزائن الأرض ؛

لأن التقييم هنا لا يخضع للقيم المادية في تقدير الرجال، ولم يقف عند حدود المظاهر المرئية أو عند القشور الخارجية في التعامل مع الناس،

(١) متفق عليه، راجع دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ج٢، ص٥٦.

وإنما يخضع التقييم هنا لمعايير جوهرية جديدة لم يعرفها مجتمع الجاهلية من قبل، تتصل بنظافة الخلق ونظافة الضمائر والقلوب، ورجاحة العقل وطهارة النفس.

وتلك قفزة نوعية في التقدير والتقييم، أراد رسول الله (ﷺ) أن يرسي قواعدها، وأن يغرس بذورها في مجتمع كانت الكلمة والسيادة والتصدر فيه لمن يملك المال، وإن خبثت نفسه ودنست فطرته.

فأراد (ﷺ) أن يجعلها لمن يملك طهارة النفس ورجاحة العقل، وشرف الضمير، وأن الثراء والفقر لا دخل لهما في تقدير الرجال..

الطبقية الثانية :

أما الطبقية الثانية التي يعترف بها الإسلام في تمايز الناس وتقديرهم فهي الطبقية العلمية التي ترفع أهل العلم إلى مستوى مرموق في التقدير والتبجيل والتوقير، وتربط بين المعرفة والتطبيق من ناحية، وبين الغايات التي يسعى إليها العالم بعلمه من ناحية ثانية.

فلا يكفي أن يكون لدى العالم عقل موسوعي مجرد، لكنه مقطوع الصلة بمن أبدع السموات والأرض، فقلبه فارغ من الإيمان، ومشاعره خالية من الارتباط بالله، حينئذ يتحول هذا العالم في أي تخصص كان إلى مجرد «شريط كاسيت» أو «ديسك كمبيوتر» على أكثر تقدير.

وإنما العلم المعتبر في ميزان الإسلام هو الذي يرتبط بغاية، فإما أن يهدي صاحبه إلى هُدىً أو يرده عن رَدىً، بصرف النظر عن نوع العلم وتخصصه، وذلك منحى في توظيف القدرات والملكات يتميز به الإسلام وينفرد.

قـال رسول الله ﷺ (مـا اكتسب مُكْتَسِـبٌ مثـل فضل علـم، يهدي صاحبـه إلى هدى، أو يرده عن ردى، ولا استقام دينه حتى يستقيم عقله) (١).

التلازم بين النص والعقل

وجدير بالملاحظة هنا قضية الربط بين استقامة الدين واستقامة العقل.

فكـأن العقـل شريـك النـص في التعـرف على الحقيقـة والـوصـول إلى المقـاصـد والغايات.

ومن هنا كان العقل مناط التكليف، ولا تكليف على مَـنْ لا عقل له.

وهذا في الواقع إعلاء رائع لدور العقل ومكانته في مواجهة فريقين.

فريـق خارج الـدائرة الإسلاميـة يلغي دور العقـل، ويصادر نشـاطه، ويطـالب الأتباع بإطفاء سراجه كي يدخلوا ملكوت السماء،

والمبدأ السائد لدى هؤلاء هو: ﴿أطْفِيءْ سراج عقلك واتَّبِعْني﴾.

وهذا ما دعت إليه ونادت به المسيحية في القرون الوسطى.

أما الفريق الآخر فهو فريق داخل الدائرة الإسلامية.

ويمثلـه أولئـك الـذيـن يُـهَـمشون دور العقـل في كثير مـن المواقـف والمواقـع، ويمنحونه إجازة مفتوحة حيناً ولا يكتفون بذلك، بل يطاردونه في كل موقع، ويلغون دوره في التعرف على الحقيقة، ولا يقبلون بـأقل من سجنه واعتقاله في زنـزانة ضيقة لا

(١) أخرجه الطبراني في المعاجم الثلاث ـ أنظر فيض القدر شرح الجامع الصغير حـ٥ ص٤٢٤ دار الفكر.

تسمح له بالنمو والازدهار عن طريق الحوار والمناقشة، فضلاً عن السماح له بالحياة ليحيا.

والغريب العجيب أن يتم ذلك كله باسم الإسلام الذي حرر العقل وحطم أمامه كل القيود والأغلال.

وإذا كانت النصوص - قرآناً وسنّة - هي المادة الخام - لصياغة الدليل والبرهان والحجة، فإن العقل هو المصنع الذي يصنع هذا الدليل - أو هو الآلية التي بها وعن طريقها يتم الاستنباط، وصياغة الدليل والبرهان وإقامة الحجة، وتحديد مناط الأمر والنهي ومعرفة المقصود من الأمر - وجوباً أو ندباً أو إباحة.

وكذلك الحال في النهي. إن كان للتحريم أو للكراهة أو للتنزيه.

وبالتالي فإلغاء دور العقل هنا أو تهميشه لا يتم احتراما لقداسة «النص» كما يفهم البعض؛

وإنما هذا الالغاء أو التهميش يشكل خطورة على المدى البعيد والقريب على شريعة الله، كما يشكل عدوانا على النص نفسه.

ذلك لأن الدين الذي نعتنقه ونعيش في مظلته، ونتجادل أحياناً حول قضاياه، هو نفسه الذي قرر رعاية الجهد العقلي في مجال التجربة - صواباً وخطأ - ولم يحرم المجتهد المخطىء من ثمرة جهده وإعمال عقله؛

وإذا كان قد قرر للمجتهد المصيب أجرين.. فهو لم ينس المجتهد المخطىء.

والأصل في ذلك هو حديث رسول الله (ﷺ) الذي رواه عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله (ﷺ) قال:

«إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[1].

كل ما هنالك أن علاقة العقل بالنص ربما ليست واضحة لدى البعض.

فقد يفهمون ـ خطأ ـ أنَّ العقل في مواجهة النص، وهذا غير صحيح على الاطلاق؛

بل إنَّ الثنائية مرفوضة شكلاً وموضوعاً في التصور الإسلامي الصحيح.

العقل والنص وجهان لنعمة واحدة

ومن هنا يجب إزالة اللبس بين النصوص والعقل، وفك الاشتباك المصطنع بين الطرفين، فكلاهما وجهان لنعمة واحدة هي نعمة الله الكبرى في الانسان وعليه:

الأولى:
هي نعمة الله وفضله بإنزال الكتاب وإرسال الرسل، ورسم معالم العقيدة الصحيحة والشريعة الصالحة

والثانية:
هي توظيف نعمة العقل لمعرفة مراد الله من خلقه، وتحديد العلاقة بين العبد والمعبود، والرب والمربوب.

فالاستقلال بالثانية «العقل» والاستغناء بها عن الأولى شرود عن الحق وانحراف عن الصراط المستقيم.

---

(١) صحيح سلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي المجلد الثالث ص ١٣٤٢ ط دار احياء التراث العربي

كما أن إهمالها «نعمة العقل» وتهميش دورها ضياع للأولى، وتفويت لمصالح العباد التي جاءت الشريعة لتحقيقها وحمايتها ورعايتها.

ومن هنا لابد أن يوجد التلازم بين النص والعقل، وأن تكون العلاقة واضحة بين الطرفين، لا على أنهما متقابلان، فالتقابل الذي يتولد عنه الاختلاف والتناقض والتضاد مرفوض، وبالتالي فالثنائية التي تضع العقل في مقابل النص ثنائية مغرضة.

ونحن نتوسم فيمن يطرحونها هكذا.. سوء الفهم، أو سوء النية، أو هما معاً.

والطرح في الفكر الإسلامي الصحيح لا يحمل هذا الطابع ولا يعرفه أبداً، ولا يعترف بوجوده إن وجد، والقول بالتقابل غير معقول وغير مقبول، ولذا فقد وجب التأكيد - كما أشرنا - على أنهما - النص والعقل - وجهان لعملة واحدة هي نعمة الله الكبرى في الانسان ممثلة في العقل،

ونعمته الكبرى - سبحانه - ممثلة في الشرع الشريف.

كل ما هنالك أن النص يمثل الإطار الفكري الذي يتحرك العقل في ظله فيستضيء ويسترشد، ويحاول من خلال النص التعرف على المقصود والمراد، ولا حرج عليه إن سلك في سبيل ذلك كل وسائل البحث وَطَرَق كل الأبواب متسائلاً، ومحاوراً، ومفكراً، ومستنبطاً... وأن يفهم تَعَبُّداً ولا يتجاوز حدوده.

وإذا كان المجتمع الإسلامي قد عانى من غياب العقل في تفسير النصوص - زمنا ما - فترة التراجع الحضاري والانكسار التاريخي في حياة أُمتنا الإسلامية.

فإن البشرية كلها قد عانت من التعسف في استعمال النصوص لدى الأوروبيين، كما عانت من توظيفهم الرديء للدين في إثارة العصبيات والفتن، وشن الحروب باسم الصليب على شعوب كثيرة.

وكـان للكنيسـة والسيـاسة في الغـرب - ولا يـزال - دور مشين ينـدى لـه الجبين ويخجل منه الزمان .

وقد أضـافت الكنيسـة والسياسـة في العصر الحديث إلى الأيـام والليالي السـود في تـاريـخ الدنيـا صفحـات جـديدة ملـؤهـا الجور والظلـم، والخبث والعـار و إبـادة الشعوب . وليست مأساة البوسنة والشيشان عن الأذهان ببعيدة .

بل إنَّ الـدنيا قـد عانـت ولاتزال تعانـى من التـوظيف الـرديء للعلم في مجالات مختلفة . . وكم قاست البشرية ولا تـزال مـن ويلات أصحاب العقول العلمية الذين استعملوا عقـولهم في البغي والعـدوان ، وباعـوا علمهم ومعـه ضمائرهم وأخـلاقهم للشيطان ، فصنعوا أدوات الفتـك والتدمير ، وادخروا في مخازن السلاح مـن الأنواع البيولوجية والميكروبية ما يكفي لتدمير الكوكب الأرضي عشرات المرات ، ذلك فضلاً عن المخزون الاستراتيجي المعد لبرامج حرب النجوم . . . .

هذا هو العلم حين لا يرتبط بالله، ولا يعرف للهداية طريقاً . . . .

وكأن التـاريخ يعيد نفسـه فتتكرر الأخطاء والتجـاوزات، ولا يعتبر بنو البشر بما حل في السابقين .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .

(١) غافر ٢١ ، ٢٢

ويتكرر التحذير وهو يصك الآذان منبهاً إلى خطورة الاغترار بالعلم وتسخيره في الإفساد وظلم الناس وتدمير الحياة.

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١).

(١) غافر ٨١ - ٨٥

الخاتمة

وبعد . . . عزيزي القارىء

فتلك بعض الحقائق وبعض الرؤى ، طرحناهـا عليك . وقد حاولت فيها أن أتعرض لجزء من الواقع المر من حيث الأسباب والمقومات ، والمكونات والخصائص والنتائج ، وقد آثرت ألا أكتفى بمجرد الرصد والتوصيف ، وإنما تعرضت له بشيء من النقد والتحليل .

وإذا كانت العبقرية البشرية مَهما سَمَتْ تحمل بالضرورة طابع الأرض ، لأن كل شيء فيها يخضع لقانون الزمان والمكان - كما يقول المفكر الاسلامي مالك بن نبي - فإن الفكر الناتج عن هذه العبقرية لا يمكن أن يستعصى على الخطأ ، أو يستعلى على المناقشة والحوار . . . وقد تعلمنا من ديننا وتراثنا أن كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا رجل واحد فقط قد عصمه الله وحماه وهو محمد رسول الله ﷺ .

فإن كانت الدعوة التى وجهناها إليك من خلال هذا الكتاب قد لقيت القبول لديك ، وحظيت منك بشيء من الرعاية والاهتمام فيها ونعمت ، والفضل فى ذلك يرجع إلى توفيق الله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإنى بذلك لفرح مسرور .

قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا

وإن كان الأمر غير ذلك فما أظنك عزيزى القارىء تبخل على كاتب هذه السطور بإسداء النصح وتصويب الخطأ وإنى لرأيك لمستمع ولتوجيهك لمصغ .

وستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً .

المؤلف

الدكتور ابراهيم ابو محمد

اَلْمَصادِرُ والْمَراجِعُ

١ ـ القرآن الكريم. ٢ ـ السنّة النبوية الشريفة.

١ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته تحقيق محمد ناصر الدين الألباني طبعة المكتب الاسلامي.

٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووي الطبعة الثانية دار إحياء التراث العربي.

٣ ـ مختصر صحيح مسلم ـ للحافظ المنذري ـ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

٤ ـ سنن الترمزي - المكتبة الاسلامية للطباعة والنشر.

٥ ـ سنن الدارمي طبعة دار الفكر ـ بيروت.

٦ ـ فتح الباري مراجعة وتصحيح وتدقيق العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز
بتويب وترقيم العلامة محمد فؤاد عبد الباقي طبعة دار الفكر.

٧ ـ جامع الأصول. ٨ ـ تيسير الوصول.

٩ ـ شرح السنّة للإمام البغوى طبعة المكتب الإسلامي.

١٠ ـ مشكاة المصابيح تحقيق محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي.

١١ ـ الترغيب والترهيب دار إحياء التراث العربي ـ بيروت طبعة ٣ لسنة ١٩٦٨.

١٢ ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمدبن علان الصديقي دار البحوث العلمية والافتاء

١٣ ـ كنز العمال طبعة مؤسسة الرسالة.

١٤ ـ القاموس للفيروز ايادي مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٩٨٧.

١٥ ـ المحاور الخمسة للقرآن الكريم للعلامة الشيخ محمد الغزالي الطبعة الأولى ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩
دار الصحوة والنشر.

١٦ ـ المعجم الوسيط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت الطبعة الثانية.

١٧ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي دار اقرأ ـ بيروت طبعة ١٩٨٤.

١٨ ـ دعوة إلى التأمل الطبعة الثانية - للدكتور إبراهيم أبو محمد.

١٩ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير دار الفكر.

٢٠ ـ كتاب الزريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني.

٢١ ـ تفسير الفخر الرازي دار الكتب العلمية طهران الطبعة الثانية.

فهرس الكتاب

مَطْبَعَةُ الْكِيلانِيّ
٢٢ ش الأديب كامل كيلانى - باب الخلق
ت : ٣٩١٨٥٩٨ - ٠٢/٣٩٥١٥٤٣

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م